
سلسلة
الجوائز
114
الهيئة المصرية العامة للكتاب
خابير مارياس
رواية
قلب ناصع البياض
ترجمة وتقديم: د. طلعت شاهين
عبد الهادى سعدون

خابير ماریاس

قلب ناصع البياض

رواية

ترجمة وتقديم:

الدكتور طلعت شاهين

عبد الهادى سعدون



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠١٤



تليجرام
هنا
سور الأزبكية

• الكتاب: قلبٌ ناصعُ البياض

Corazon tan Blanco

• تأليف: خابير ماریاس

Javier Marias

• ترجمة: د. طلعت شاهين

عبد الهادي سعدون

• تقديم: د. طلعت شاهين

• الطبعة الأولى ٢٠١٢.

• طبع فى مطابع الهيئة المصرية للعامة للكتاب.

تقديم

خابير ماریاس (Javier Marias) المولود فى مدريد عام ١٩٥١، يعد اليوم واحدًا من أهم روائيى إسبانيا المعاصرين، خاصة فى الربع الأخير من القرن العشرين. هو مؤلف لأعمال مهمة سواء فى القصة أو الرواية والنقد مثل: الرجل العاطفى، ظهر الزمن، عندما رأيت ميتًا، رغبات ماضية، وغيرها. كما أن أعماله تُعاد طباعتها لأكثر من مرة سواء فى بلده إسبانيا أو فى دول أمريكا اللاتينية، كما أن طبعات رواياته إلى اللغات الأجنبية الأخرى فاقت المائة طبعة بأكثر من خمس وعشرين لغة عالمية، ونحن اليوم نقدم الترجمة الأولى باللغة العربية لروايته المهمة "قلب ناصع البياض".

سبق للروائى خابير ماریاس أن حاز على جوائز أدبية مهمة عن مجمل أعماله، منها: رومولو غاييغو للرواية، جائزة بريكس فمينا، جائزة دبلن، نيللى ساش وغيرها.

أما روايته التى نقدمها هنا (قلب ناصع البياض) المستوحى عنوانها من مقطع شكسبيرى يدور حول النقاء والخيانة، فتعد قمة رواياته، وقد حققت أكثر من مليون ونصف المليون نسخة فى المبيعات بالدول الناطقة بالإسبانية فحسب. كما تم نقلها إلى أكثر

اللغات الحية المعروفة اليوم، وحازت على جائزة أفضل كتاب مترجم فى معرض فرانكفورت العالمى للكتاب. كما أنها ومنذ صدورها حازت على جوائز أخرى، منها: جائزة النقد عام ١٩٩٢، جائزة بريس أويل لأفضل رواية مترجمة إلى الفرنسية ١٩٩٣، أفضل كتاب مترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٩٥.

تدور رواية (قلب ناصع البياض) على امتداد فترة زمنية طويلة، ولكنها متقطعة أو لنقل مجزأة، وتتناول تاريخ علاقة شخص مع الآخرين من خلال مراجعة عشوائية لا إرادية لتاريخ عائلته وبالأخص أبوه. يولد البطل فى حدث ذروة تكامل الرواية، وولادته لم تكن بدون ذلك الحدث. بعد أعوام سيكون هو الخيط الموصل لاكتشاف أسرار الأب وتاريخ العائلة والعلاقات البشرية المبهمة والعصية على الإدراك دون الحديث فيها. تبحر الرواية ما بين أسلوب الاستطراد والحوار، وما بين استخدام تقنيات الرواية الحديثة بأبعد مدى لها، وتتداخل فيها الآراء الخارجة عن الحدث والنقد الشائك، وتنزاح طويلاً مع غرض الكوميديا السوداء والمزحة المفتعلة. ولكن رواية (قلب ناصع البياض) على ذلك تعتبر رواية ذات نفس بوليسى، رواية اكتشاف الحقيقة والتمعن بها، ولكنها ليست نمطًا روائيًا بوليسيًا، بل تتخذ من هذا النمط والأسلوب الروائى غاية الاستقصاء والتداخل ضمن تقنية السرد الروائى.

رواية (قلب ناصع البياض) تتخذ من حدث ماض ذريعة لاستنطاق الأغراض الإنسانية وآفاقها، كيف نشرف على حياة الآخرين، التداخل مع الآخر، اكتشاف الآخر عن طريق آخرين، العلاقة المتنامية ما بين الشك واليقين، وأسرار الإنسانية التى تتنقل

ما بين لسان وآخر ما إن يطفر أول حرف من أول كلمة.

إن البطل، الذى هو مترجم (مهنة الروائى الأولى فى الواقع) يتخذ من هذا العالم أداة للكشف عن ماهية الوجود وتداعياته، وأسبابه ومرتكزات ديمومته، عبر الترجمة وخبرات حياة الآخرين، وسنكون معه فى رحلة تجديد للمدارك وإعادة الاعتبار لتساؤلات بشرية محضة، ورغبة فى تدنيس تلك الغلالة المقدسة من علاقاتنا الشائكة مع الآخر الأقرب والآخر المجهول. إن البطل يمثل هنا أى واحد منا، الإنسان المعاصر، المقنن، الذى لديه أكثر من تساؤل، بينما هو فى الواقع لا يمتلك قلبًا ناصع البياض ولا يجرؤ على التفكير به.

إنها رواية أفكار ورواية مراجعة مع الذات ومع الأنساق الروائية المتداخلة.

د. طلعت شاهين

My hands are of your colour
But I shame to wear a heart so white

Shakespeare

"يداى بلون يديك

ولكننى أخجل من حملى لقلبٍ ناصع البياض"

شكسبير

" إلى خوليا آلتاريس

و إلى لولا مانيرا، فتاة هافانا .. فى الذاكرة."

لم أود أن أعرف، ولكننى عرفت أن إحدى الصغيرات، عندما لم تعد طفلة بعد، وليس ببعيد من عودتها من رحلة شهر العسل، قد دخلت إلى الحمّام، وقفت أمام المرآة، فتحت بلوزتها، خلعت حمالة الصدر، وبحثت عن القلب بفوهة مسدس أبيها الخاص، الذى كان فى صالة الطعام برفقة العائلة ومدعوين ثلاثة. عندما سُمع صوت الإطلاق، لخمس دقائق بعد أن تركت الطفلة المائدة، لم ينهض الأب فى الحال، وإنما ظل لبضع ثوان جافلاً بفم ممتلئ، دون أن يجرؤ على مضغ اللقمة ولا بصقها ولا حتى أن يعيدها إلى الطبق؛ وعندما نهض أخيراً وركض ناحية الحمّام، الذين تبعوه رأوه، بينما كان يكتشف جسد ابنته المدمى ويداه على رأسه، كيف كان يمرر لقمة اللحم من طرف إلى آخر، دون أن يعرف بعد ماذا يفعل معها. كان يحمل المنديل بيده، ولم يلق به حتى اللحظة التى لاحظ فيها حمالة الصدر ملقاة فوق المغسلة، حينذاك غطاها بالمنديل الذى فى متناول يده أو الذى كان فى يده وشفتاه ملطختان، كما لو كان أكثر خجلاً لمنظر الحمالة الأليف من الجسد الصريع شبه العارى الذى كان باتصال مع الحمالة منذ وقت قصير وحسب: الجسد الجالس عند المنضدة أو المبتعد فى الممر أو المنتصب على قدميه أيضاً. قبل

ذلك، بحركة آلية، أغلق الأب حنفية المغسلة، محبّس الماء البارد الذى كان مفتوحًا باتساعه.

كانت الابنة تبكى بينما كانت منتصبة أمام المرآة، فتحت البلوزة، خلعت حمالة الصدر وبحثت عن القلب، لأنها، وهى ملقاة على الأرضية الباردة للحمام الواسع، كانت عيناها ممتلئتين بالدموع، ما لم تكن عليه أثناء الغداء ولا يمكن لدموعها أن تتساقط بعد أن انهارت بلا حياة. على العكس من طبيعتها، وبشكل عام، لم تقفل سقاطة الباب، مما جعل الأب يخمن (لكن لبرهة وحتى دون أن يفكر، عندما ابتلع اللقمة) بأنه ربما كانت ابنته، بينما كانت تبكى، كانت تنتظر أو ترغب بأن يفتح شخص ما الباب ويمنعها من أن تفعل ما فعلته، ليس بالقوة وإنما بحضوره وحسب، بتأمله لعريها وهى حية أو أن يضع راحة يده على كتفها. لكن لا أحد (ما عداها هى الآن، ولأنها لم تعد طفلة) لقد مضى إلى الحمّام أثناء وقت الطعام.

الصدر الذى لم يعان من الارتطام كان واضح الرؤية، متكورًا، أبيض وما زال منتصبًا، توجهت نحوه النظرات الأولى غريزيًا، أكثر من أى شىء آخر ولتجنب الاتجاه إلى الطرف الآخر، الذى لم يوجد الآن أو كان دمًا وحسب. منذ سنوات والأب لم ير هذا الصدر، ترك مراقبته عندما بدأ بالتشكل والتكور بهيئة نهدٍ أمومى، ولهذا لم يشعر بالرعب فقط، وإنما بالكدر أيضًا. الطفلة الأخرى، الشقيقة، التى رأته يتبدل فى مراهقتها وربما بعد ذلك، كانت أول من لمسه، وبمنشفة (منشفتها الخاصة الزرقاء الباهتة، التى كانت تميل لأخذها) مسحت بها دموع الوجه الممتزجة بالعرق والماء، إذ إن

الصنبور وقبل أن يُغلَق، كانت قد طفرت منه زخة ماء باتجاه الحوض ولتسقط دفقات منه على الوجنتين، وعلى الصدر الأبيض والتنورة المجعدة لشقيقتها فوق الأرض. أرادت كذلك، بسرعة، أن تمسح الدم كما لو كانت تستطيع علاجها، لكن المنشفة تبللت بالحال ولم تعد تصلح لمهمتها، واصطبغت أيضًا. وبدل أن تتركها ببللها وتغطى بها منطقة الصدر، فقد ألقت بها عندما رأتها حمراء فاقعة (كانت منشفتها الخاصة) وتركتها معلقة على حافة المغسلة، حيث بدأت تقطر. تكلمت، لكن الشيء الوحيد الذى نجحت فى قوله كان اسم شقيقتها، ومن ثم أعادته.

لم يستطع أحد المدعوين تجنب النظر إليها عن بعد من خلال المرآة، ومسد شعر رأسه بيده للحظة، الزمن الكافى ليلاحظ أن الدم والماء (وليس العرق) قد لطخا الأرضية وعلى الأقل على أى انعكاس يحدث، فى إطار صورته هو بينما كان ينظر. كان عند المدخل، دون أن يدخل، مثله مثل المدعوين الآخرين، كما لو كانوا قد ألقوا إلى النسيان القواعد الاجتماعية فى تلك اللحظة، معتبرين أفراد العائلة الوحيدين الذين لهم حق اجتيازه. أطل الثلاثة برؤوسهم، الجذع وحسب محدبًا مثل كبار يستمعون إلى الأطفال، دون أن يمضوا إلى الأمام أكثر من ذلك بسبب التقزز أو الاحترام، ربما بسبب التقزز، على الرغم من أن أحدهم كان طبيبا (الذى شوهد فى المرآة) ومن العادى أن يتقدم خطوة بثقة ويفحص جسد الابنة، أو على الأقل، أن يرتكز بركبتيه على الأرض، وأن يضع إصبعين من أصابعه عند الرقبة، لكنه لم يفعل شيئًا، ولا حتى عندما كان الأب، أكثر شحوبًا وارتباكًا، قد عاد إليه، مشيرًا لجسد ابنته، وهو يقول له بنبرة تضرع ولكن دون مبالغة "دكتور"، ليواصل

موليًا ظهره - دون أن ينتظر فيما إذا كان الطبيب سيجيب على نداائه - ليس له وحسب، بل أعطى ظهره للجميع، ولأبنائه كذلك، وللتى لا يجرؤ أن يعدها ميتة بعد، وبمرفقين مستندين على المغسلة، ويدين تحيطان جبهته، بدأ يفرغ كل ما أكله، حتى لقمة اللحم التى انتهى من ابتلاعها دون مضغ.

إنه شقيقها الذى كان أصغر من الطفلتين، اقترب منه، ولكن بلفتة مساعدة لم يستطع أن يصل سوى للمس أطراف جاكيتته، وقد كان عليه أن يتمسك به دون أن يهتز من ترجيع والده، ولكن لمن رآه فقد كانت إشارة يبحث فيها عن حماية، فى اللحظة التى كان لا يستطيع الأب أن يمنحه إياها.

سُمع الصفير لفترة قصيرة، صفير فتى الدكان، والذى كان يتأخر لمرات فى جلب الطلبات حتى ساعة الغداء، كان يفرغ الصناديق عندما دوت الطلقة، أطل كذلك برأسه وهو يصفر، كما يفعل عادة الأطفال فى الطريق، ولكنه توقف فى الحال (كان فى نفس سن الأخ الأصغر) عندما شاهد حذاءين بكعب عالٍ نصف منزوعين أو منتزعين من القدمين، وتنورة مرتفعة قليلاً وملطخة، وفخذين ملطختين؛ فمن موقعه كان بإمكانه رؤية الابنة المسجاة. عندما لم يستطع أن يسأل أو أن يمضى، ولا أحد قد انتبه لوجوده، كما لم يكن يعرف إن كان عليه أن يحمل صناديق الزجاجات الفارغة، عاد إلى المطبخ وهو يصفر مرة أخرى (لكن هذه المرة ليطرد الخوف أو يخفف من الصدمة) ظانًا أنه الآن أو فيما بعد ستعود مديرة المنزل للظهور هناك، وهى التى كانت عادة ما ترشده بتوجيهاتها، ولم يعثر عليها الآن لا فى مكانها ولا حتى مع الذين

يملئون الممر، على العكس من هذا كانت مدبرة المنزل، كعضو منظم للعائلة، لها قدم في الحمّام وأخرى خارجه وهي تجفف يديها بالوزرة، أو ربما كانت تتخذ منه إشارة صليب.

كانت مدبرة المنزل، في لحظة إطلاق الرصاصة قد تركت الأطباق الفارغة التي انتهت من جلبها فوق منضدة المكتب المرمرية، ولهذا فقد اختلط عليها الأمر مع الجلبة التي أحدثتها في الوقت نفسه، ثم إنها انشغلت بترتيبها في الصينية، وبخفة وتعب - بينما انشغل الصبي بتفريغ الصناديق بجلبة أيضا - جهزت الكعكة المثلجة التي أمروها بشرائها ذلك الصباح بسبب مجيء ضيوف؛ وفي اللحظة التي أصبحت جاهزة كانت قد حسبت بأنهم في صالة الطعام قد انتهوا للتو من الطبق الثاني، حملت الكعكة إلى هناك ووضعتها فوق الطاولة والتي بسبب الفوضى، كان لا يزال عليها بقايا لحم وأطقم ملاعق وشوك ومناديل ملقاة بأية طريقة فوق السماط ولا وجود لأي مدعو (كان يوجد طبق نظيف تمامًا، كما لو كان أحدهم، الابنة الكبرى، قد أكل بسرعة ولملم فضالة الطعام كذلك، أو حتمًا لم يقدم له لحم).

أدركت حينذاك بأنها، وكما اعتادت، كانت قد اقترفت خطأ حمل الكعكة قبل أن تُرفع الأطباق وأن تضع أخرى نظيفة، ولكنها لم تجرؤ أن تحملها وأن تكدس غيرها خشية من أن يكون الضيوف الغائبون لم ينتهوا بعد وربما رغبوا بالمزيد (ربما كان عليها أن تجلب الفاكهة أيضًا). وكما نظمت ألا تسير في البيت خلال فترة الطعام وحددت حركتها ما بين المطبخ وصالة الطعام حتى لا تزعج أحدًا ولا تثير الانتباه، كما أنها لم تجرؤ على الانضمام لدمدمات المجموعة المتحلقة حول باب الحمّام لأنها لم تعلم بعد السبب،

وبخلاف ذلك فقد ظلت تنتظر، يداها معقودتان إلى الظهر، والظهر مستند إلى خزانة الأوانى، وهى تنظر بتردد إلى الكعكة التى انتهت من تركها فى منتصف الطاولة الفارغة، وتتساءل إذا ما كان الأجدى لها أن تعيدها إلى الثلاجة للحظات، خوفا من تأثير درجة الحرارة. ترنمت قليلاً، ورفعت مملحة من الأرض، صبت نبيذًا فى قدح فارغ، قدح زوجة الطبيب، التى كانت تشرب بسرعة.

بعد دقائق من تأملها للكعكة وهى تفقد شكلها، ودون أن ترى نفسها قادرة على اتخاذ قرار، سمعت جرس الباب الداخلى، ولما كان من واجبها أن تجيب، رتبت منديل الرأس، ووضعت المريلة بطريقة مضبوطة، وتحققت من أن جوربيها لم يكونا هابطين وخرجت حتى الممر. نظرت بسرعة خاطفة إلى يسارها، حيث كانت المجموعة منشغلة بدمدمات وتعجب يُسمع لها وقع الدسيسة، لكنها لم تدخل بينهم ولم تقترب وإنما مضت إلى اليمين، كما لو كانت مجبرة. عندما فتحت الباب تقابلت وابتسامة منتهية مشبعة بعطر كولونيا (المدرج معتم) للابن الكبير للعائلة وللصهر الذى عاد من رحلة شهر العسل منذ فترة قصيرة، وصل الاثنان فى اللحظة ذاتها، من المحتمل أنهما تقابلا فى الشارع أو فى المدخل (جاءا لتناول القهوة دون شك، ولكن لا أحد قد صنع القهوة بعد).

ابتسمت المدبرة بردة الفعل، تنحت جانبًا وتركتهما يدخلان، وكان لديها الوقت الكافى لتتبين تغير ملامحهما ومضيهما مسرعين فى الممر حتى الحمّام حيث الجميع. الزوج، الصهر، ركض إلى الخلف شاحبًا، ويده على كتف الأخ، كما لو كان يريد أن يوقفه حتى لا يرى ما رآه، أو أن يجذبه إليه. لم تعد المدبرة بعد إلى صالة الطعام، وإنما تبعتهما، ضاغطة على خطوتها بالتشابه، وعندما

وصلت باب الحمّام تنفست من جديد، الآن بصورة أشد، رائحة كولونيا شذية لأحد الشابين أو لكليهما، كما لو كانت قد انكسرت قنينة أو أن العرق الطارئ قد ضاعف تركيزه. بقيت فى موقعها دون أن تدخل، مع الطباخة وكذلك المدعوين، ورأت، بشزر، أن صبى الدكان قد مر من المطبخ إلى صالة الطعام وهو يصفر، كان يبحث عنها بالتأكيد، لكنها كانت خائفة جدًا لدرجة أنها لم تستطع أن تناديه أو تزجره أو أن تنبهه.

الصبى، الذى رأى ما يكفى قبل ذلك، توقف للحظات فى صالة الطعام ومن ثم مضى دون أن يلقى بالتحية أو يحمل صناديق القنانى الفارغة، وبعد ساعات من ذلك، رفعت الكعكة الذائبة وألقت بها فى المزيلة، ينقصها قطعة معتبرة لم يمسسها أى من الضيوف، وكأس زوجة الطبيب عادت لتكون بدون نبيذ. كل الناس قالت إن رانز، الصهر، الزوج، أبى، سيئ الحظ، لأنه أصبح أرملاً للمرة الثانية.

كان هذا منذ زمن طويل، عندما لم أكن قد ولدت بعد، ولم يكن هناك أدنى احتمال أن أولد، بل أكثر من هذا، فقط ابتداء من تلك اللحظة سنحت لى فرصة أن أولد. أما اليوم فأنا متزوج ولى أقل من عام منذ أن عدت من رحلة شهر العسل مع لويسا، زوجتى، التى تعرفت عليها منذ اثنين وعشرين شهرًا وحسب، زواج سريع، سريع جدًا قياسًا لما يقال بأن على المرء أن يفكر به جيدًا، خاصة فى أزمنة الفوضى التى ليس لها علاقة بتلك الأزمنة على الرغم من قربها (انتظرتها، مثلاً، حياة غير مكتملة فقط أو ربما قياسا بحياتى الخاصة، أو بحياة لويسا) لكنه كان متأملاً أو متعطلاً وكله له قيمة، حتى الحماقات، لا أقول الميتات، الميتات باليد نفسها، مثل هذه الميتة التى ذهبت ضحيتها ما كان يمكن أن تصبح خالتى تريسا، على الرغم من أن شيئًا من تلك القرابة لم يحدث لأنها فى النهاية كانت تريسا أجيلار فقط، والتى فهمت حقيقتها شيئًا فشيئًا، ليس عن طريق شقيقتها الصغرى، أمى، التى كانت صامتة تقريبًا طوال طفولتى ومراهقتى وبعد ذلك ماتت أيضًا وصمتت إلى الأبد، بل وحتى من خلال أشخاص آخرين أو طارئين، وأخيرًا عن

طريق رانز، زوج الاثنتين، وأيضًا زوج لامرأة غريبة لا أمت لها بصلة قرابة.

الحقيقة أننى إذا أردت فى الوقت الحالى أن أعرف ما حدث منذ زمن طويل إنما ذلك بسبب زواجى (لكن من الأفضل أن أقول إننى لم أرغب فى ذلك، رغم إننى علمت به). فمنذ أن اقترنت (هذا الفعل مهمل، لكنه حسن الخط ونافع) فقد بدأت بامتلاك حظ الإحساس بالمصائب، بطريقة شبيهة عندما تصاب بمرض ما، لا تدرك متى تشفى منه على وجه اليقين. الجملة المصاغة تغيير وضع التى عادة ما توظف بعجالة وعنها أريد أن أقول القليل جدًا، إذ تبدو لى أكثر تهذيبًا ومحددة فى مثل وضعى، بل تتشكل بشكل خطر، على عكس المألوف. بالطريقة نفسها التى يجبرنا فيها المرض على تغيير وضعيتنا مثل إجبارنا أحيانًا أن نوقف كل شىء والاضطجاع فى الفراش خلال أيام لا تعد، والنظر إلى العالم من طرف المخدة فقط، لقد جاء زواجى ليعطل كل عاداتى وكذلك قناعاتى، بل وأكثر صرامة، على رؤيتى للعالم. ربما لأنه كان زواجًا متأخرًا قليلاً، إذ كان لى أربعة وثلاثون عامًا عندما عقدت قرانى.

المشكلة الكبرى والمشتركة فى بداية كل زواج متفق عليه منطقيًا، على الرغم من هشاشة زماننا وسهولة ما لدى المتزوج من فرص فسخه، فمن التقليدى ألا يمكن تجنب تجربة وصول هذا الإحساس غير اللطيف، من أجل الحصول على نقطة ختامية، أو من الأفضل القول (أراهن على أن الأيام تستمر بعدم تأثرها وبلا نهاية) إن اللحظة المخصصة لشىء آخر قد أزفت. أعلم تمامًا أن هذا الإحساس مؤذ وغير صائب، والخضوع له يمنح السبب للعديد

من الزيجات الواعدة أن يكون مصيرها الفشل ما أن تبدأ فورًا. أعلم كذلك بأن الأفضل أن تراهن على هذا الإحساس الطارئ، وأبعد من أن تهتم بشىء آخر، أن تكرس نفسك له، للزواج، كما لو أن البناء والنظرية الأهم، حتى لو شعر أحدنا بأن النظرية قد اكتملت والبناء مشيد.

كنت أعرف هذا كله، ودون شك عندما تزوجت، وخلال رحلة الزواج (ذهبنا إلى ميامى، ونيوأورليانز ومكسيكو، ومن ثم إلى هافانا) شعرت بإحساسين بغيضين، والآن أتساءل إذا ما كان الثانى حقيقيًا أم مجرد خيال مبتكر أو مصطنع لتلطيف الأول، أو ربما لمواجهته. الإحساس البغيض الأول هو الذى ذكرته، والذى يسمع أحدنا من أجله كل أصناف المزح التى تُخصص للذين يمضون فى زواجهم، ومن أجل الأمثلة العديدة السيئة فى اللغة حول ذلك، وهى التى يشترك فيها كل المتزوجين (بالأخص الرجال) فى بداية شىء يرى بطريقة غير معقولة ويعاش وكأنه نهاية هذا الشىء. هذا البغض يُلخص فى جملة مرعبة جدًا، وأجهل تمامًا ماذا يعمل الآخرون ليتجاوزوها: "والآن ماذا؟"

تغيير الوضع هذا، مثل المرض، لا يُحصى ويتدخل فى كل شىء، أو على الأقل لا يسمح لأحد أن يستمر مثلما كان سابقًا: لا يسمح، مثلاً، بعد أن نمضى إلى العشاء أو إلى السينما، أن نفترق ويذهب كل منا إلى بيته، أو أن أمضى مع لويسا فى سيارتى أو بالتاكسى حتى بوابة بيتها، وما أن أتركها، حتى أمضى فى جولة وحدى فى الشوارع شبه الخالية والمرشوشة بالماء دائمًا، مفكرًا بها بالطبع وبالمستقبل، حتى أصل إلى بيتى. لكن ما أن نتزوج، ونخرج

من السينما، فالخطوات تمضى موحدة إلى المكان نفسه (ترن بصورة غير متناسقة لأنها أربعة اقدام تتجول معًا)، لكن ليس لأننى لم أقرر مرافقتها أو لأننى غير معتاد ذلك، ويبدو لى منطقيًا ومن التهذيب أن نعمله، بل ليس لأن الخطوات الآن تتمايل على الرصيف المبلل، أو تتحرر، أو تغير فكرتها، أو بإمكانها الندم لذلك الاختيار: لأنه الآن لا مجال للشك بأننا نمضى إلى البيت نفسه، شئنا هذه الليلة أم أبينا، أو أن لا تكون الليلة التى أرغب بها.

فى رحلة شهر العسل، عندما بدأ هذا التغيير بالعمل (ليس بالضبط ما أردت قوله بأنه بدأ، لأنه تغيير عنيف لم يدع فرصة لتهيدة)، انتبهت إلى أنه من الصعب جدًا أن أفكر بها، وبشكل تام من المستحيل التفكير بالمستقبل، والذى هو إحدى المتع الكبيرة المعقولة لأى شخص، ما لم يكن الإنقاذ اليومى من قبل الجميع: التفكير بكسل، الخطأ مع التفكير المقترح بما يجب أن يأتى أو ما يمكن أن يأتى، التساؤل دون أدنى نصيب بالصحة ولا بالفائدة مما يمكن أن يكون معنا فى اليوم نفسه أو خلال خمسة أعوام، أو مما لا يمكن إدراك وقوعه. ذلك أننى فى رحلة شهر العسل كنت ضائعًا وليس أمامى أى مستقبل، وهو ما يهمنى، ذلك أن الحاضر لا يمكننى تمويهه أو استيعابه. هذا التغيير على ما يبدو، يجبرنا على ألا نتبع ما عشناه آنذاك، بل وأكثر من ذلك، وهو ما يحدث عادة، بأن التغيير تم رؤيته مسبقًا ومُعلن عنه بقوة مشتركة، استعراضه الرئيسى المرئى هو تحضير مصطنع لشىء مشترك. بيت لا وجود له لواحد ولا للآخر، وإنما يجب افتتاحه من قبل الاثنين، وبشكل مصطنع.

فى هذه العادة أو الممارسة، المتسعة جدًا حسب ما أعرف، تكمن التجربة فى الواقع. إذ على المتعاقدين، الاثنين المتعاقدين أولئك يجبر أحدهما الآخر على إلغاء متبادل أو تصفية كلية. إلغاء ما كانه الواحد منهما، ما أحبه كل واحد أو ما لمحه حتما من إطلالة، ذلك أنه لا وجود لحب مفاجئ، أحيانًا هناك سوابق وأغلب الأحيان لا وجود لها لا بعد ولا قبل. لا يقدر على إعطائك شيئًا. تصفية الواحد للآخر، بذلك عرف ولأجله يتم التعامل والرغبة به، لأنه يعد للافتراق عن مواضعه المعهودة، أو ما بقى منها بشكل رمزى. وهكذا بطريقة ما عندما يكون لكل واحد من الاثنين عادة التواجد وحيدا أو أن ينعزل فى مكان ما وحيدا، أو الاستيقاظ وحيدًا وأن يكون معتادًا النوم وحده، سيجدان نفسيهما متحدين فجأة فى النوم وفى اليقظة، وفى خطواتهما المشتركة بوجهتها الواحدة فى الشوارع شبه الفارغة، أو الصعود معًا فى المصعد، فلا مجال بعد الآن أن يكون أحدهما فى زيارة الآخر ولا الآخر بصفته مضيفًا، ولا أن يمضى الواحد منهما للقاء الآخر، ولا الآخر ينزل ليمضى للقاء ذاك الذى ينتظره فى سيارته أو فى مقعده بالتاكسى، بل إنهما بلا اختيار، بغرف ومصعد ومدخل لا ينتمى لأحدهما ولكنه الآن للاثنين، بمخدات مشتركة يجدان نفسيهما مجبرين على أن تحتضن أحلامهما، وبطريقة ما، مثلما يحدث مع المريض، ينتهيان بأن يريا العالم من عندها.

مثلما ذكرت، فهذا التنغيص الأول الذى سيطر علىّ تمامًا منذ المرحلة الأولى لرحلة شهر العسل، فى ميامى، تلك المدينة المقززة رغم سواحلها الجميلة بالنسبة لعريسين حديثى العهد، أمضينا الرحلة أيضًا فى نيو أورليانز وفى مكسيكو، بل وأكثر من هذا فى

هافانا، منذ عام واحد تقريبًا، منذ أن عدنا من هذه الرحلة وافتتحنا بيتنا بطريقة مصطنعة، ازداد هذا الشعور واستوطننى تمامًا، ربما استوطن كلينا. لكن التنغيص الثانى ظهر بقوة ونحن فى نهاية الرحلة، هو هذا، كان ذلك فى هافانا، وهى المدينة التى أتيت منها بشكل وآخر، أو تحديدًا بربع جزء، ذلك أن جدتى لأمى ولدت هناك، ومن هناك هاجرت إلى مدريد عندما كانت لا تزال طفلة، وهى أم تريسا وخوانا آغيليرا. كان ذلك فى الفندق الذى أقمنا فيه لثلاث ليال (لأننا لا نملك أموالا كثيرة، لذا كانت إقامتنا فى كل مدينة قصيرة الأمد)، وذات مساء شعرت لويسا بالتعب فجأة بينما كنا نتنزه، وعكة سيئة جدًا قطعت علينا مشوارنا واضطرتنا إلى العودة إلى غرفتنا فورا لتستطيع أن تستلقى. شعرت برجفة برد والقليل من الغثيان. لم تستطع تحمل الوقوف على قدميها، كما يقال حرفيًا. دون شك شعرت بوعكة مما أكلته، ولكن آنذاك لم نخمن بدقة، وللوهلة الأولى فكرت بألا تكون قد حملت معها من المكسيك واحدًا من تلك الأمراض المعدية التى تهاجم الغربيين بسهولة، مرض خطير مثل الأميبيا.

الإحساس بمصيبة مضمرة الذى رافقنى منذ حفلة العرس يمضى معى بصيغ متنوعة، وواحدة منها كانت هذه (الأقل صمتًا، لأنها لم تكن مضمرة)، التهديد بالمرض أو الموت المفاجئ للتى تمضى لمرافقتى فى حياتى والمستقبل المحدد والمستقبل المجرد، على الرغم من أننى كنت متيقنًا من أن هذا الأخير قد انطمر تمامًا وأن حياتى قد قيست بشكل مسبق؛ ربما حياة الاثنين، المرتبطين.

لم نشأ الاتصال بطبيب فورًا، لكى نرى إن كانت ستجتازها، وهكذا وضعتها فى السرير (سرير الفندق والزوجية)، وتركتها تنام،

كما لو كان ذلك سوف يعالجها. بدت غافية، التزمتُ أنا الصمت لكى أتركها تنعم بالهدوء، وأفضل طريقة أن أظل صامتًا دون أن أضجر أو أهم بعمل ضجة أو أن أحادثها، كان من الأفضل أن أطل من الشرفة وأتطلع إلى الخارج، أراقب كيف يتجول أهل هافانا، أبصر طريقة مشيهم، وملابسهم وأن أستمع لأصواتهم البعيدة، دمدماتهم. لكن أن أنظر إلى الخارج بفكر متجه إلى الداخل، إلى جهة الظهر، إلى السرير الذى تضطجع عليه لويسا بشكل منحرف، متقاطعة بهيئة أنه لا شىء فى الخارج قادر على أن يثير انتباهى. كنت أنظر إلى الخارج مثل من يصل إلى مكان حفلة ويعلم أن الوحيدة التى تهمه قد بقيت فى البيت برفقة زوجها. وهذا الشخص الوحيد الآن، ترقد فى السرير، مريضة، يسهر زوجها على راحتها وفى الخلف من ظهرى.

دون شك، ما أن مضت بضع دقائق على التحديق دون أن أرى أحدًا، رأيت إحداهن. انتبهت إليها لأنها، على عكس الأخريات، خلال كل تلك الدقائق لم تأت بحركة ولم تمض إلى وجهة أخرى، كما أنها لم تختف ولو للحظة عن دائرة نظرى، وإنما ظلت واقفة فى مكانها، امرأة فى الثلاثينيات على الأغلب، ترتدى بلوزة صفراء بفتحة عنق مدورة وتنورة بيضاء وحذاء بكعب، أبيض أيضًا، وتعلق على كتفها حقيبة سوداء كبيرة، مثل تلك التى كانت تحملها المدريديات فى طفولتى، حقائب كبيرة معلقة بالذراع وغير محمولة على الكتف، مثلما عليه هو الحال الآن. كانت تنتظر أحدًا، كان موقفها يوحى بانتظار خاطئ، لأنها بين لحظة وأخرى تتمشى خطوتين أو ثلاثًا إلى جانب وآخر، وفى نهاية الخطو ركزت الكعبين فى الأرضية بخفة وسرعة، إشارة لحالة فقدان صبر. لم تلتجئ إلى

حائط مثلما اعتاد من ينتظر أحدًا حتى لا يتعثر بالذين ينتظرون ويمضون كذلك؛ كانت تحافظ على وقفتها فى منتصف الطريق، دون أن تتحرك أكثر من خطواتها المعدودة تلك والتى تعيدها دائمًا إلى مكانها المعتاد، لهذا كانت فى معضلة تحاشى مرور السابلة، أحدهم قال لها شيئًا، فأجابته بعصبية وتهديد بحقيبتها البارزة.

بين حين وآخر كانت تنظر إلى الخلف مرتكزة على قدم وباليد تسوى تنورتها الضيقة كما لو كانت تخشى أية حركة تشوه تكويرة عجيزتها، أو ربما لتسوى لباسها المتمرد عبر قماشه الذى يغطى خلفيتها. لم تنظر فى ساعتها، لم تكن تحمل ساعة، ربما كانت تعتمد على ساعة الفندق، التى تكون فوق رأسى، ولكنها غير مرئية لى، بنظرات تقتنصها سريعة دون أن أحذرها. من الممكن ألا تكون للفندق ساعة تطل على الشارع، ولم تعلم أبدًا كم الوقت. بدت لى خلاسية، لكننى لم أستطع التأكد من ذلك من مكانى.

أطبق الليل فجأة، دون أى تحذير مرتقب كما هى العادة فى المناطق المدارية، وعلى الرغم من أن عدد المارة لم ينقص فى الحال، فإن فقدان الضوء جعلنى أراها أكثر انفرادًا، أكثر انعزالاً وأكثر تقيدًا لانتظار بلا طائل. موعدها لم يحن بعد. بذراعين متقاطعتين، ساندة مرفقيها بيديها، كما لو أن كل ثانية تمر يثقل حمل هاتين الذراعين، أو حتمًا كانت الحقيبة التى تضاعف من الحمل. لها قدمان متينتان، معتادتان الانتظار، مثبتتان على الرصيف بكعبين رفيعين وطويلين جدًا كأنهما صنعا برقة الإبرة، لكن القدمين قويتان وجذابتان بحيث تغطيان الكعبين، وكأنهما كانا مثبتين بالرصيف ـ مثل سكين يخترق خشبًا مبللاً ـ وكل مرة يعودان للثبات بنفس النقطة بعد كل تغير صغير إلى اليمين أو اليسار. الكعبان يبرزانها.

سمعت لغطا خفيفا، أم كان تأوهًا، يأتى من السرير الذى خلف ظهرى، من سرير لويسا المريضة، زوجتى التى اقترنت بها حديثًا والتى تهمنى جدًا كأنها مهمتى الوحيدة. لكننى لم أدر رأسى لأنه كان تأوهًا مصدره حلم، لأن الواحد يستطيع التمييز حالاً بين صوت النائم المعتاد مشاركته النوم.

عبرت فى هذه اللحظة المرأة بنظرها حتى الطابق الثالث من الفندق حيث أطل أنا، واعتقدت أنها تطلعت فى للمرة الأولى. تفحصتنى كما لو كانت قصيرة النظر أو تستخدم عدسات لاصقة متسخة وحدقت متحيرة، مثبتة نظرها علىّ، فركت عينيها قليلاً وغمزتهما لتنظر بدقة، ومن جديد تفركهما وتغمزهما. حينذاك رفعت ذراعها، الذراع المتحررة من الحقيبة، رفعتها بحركة لم تكن بتحية ولا تقارب، أريد القول تقارب إلى شخص غريب، وإنما حركة تأكيد ومعرفة، متوجة بتلاعب أصابع قاسية: كانت بتلك الإشارة من الذراع وتلاعب الأصابع السريعة كأنها شاءت أن تقبض على، وأكثر من أن تقبض على أن تحملنى إليها. صرخت بشىء لم أستطع سماعه بسبب بعد المسافة، وكنت متأكدًا من أنها صرخت به من أجلى.

من حركة الشفاه استطعت أن أحرز الكلمة الأولى فقط، وتلك الكلمة هى: هيه! نطقت بها بتأكيد، مثلما عليه بقية الجملة التى لم أنتبه لها. أثناء ما كانت تتكلم مضت متحركة لتقترب منى، كان عليها أن تعبر الشارع وتمشى مسافة طويلة مزدحمة لتصل عند الطرف الآخر حيث يقع الفندق، مبتعدًا قليلاً ومحافظًا على عزلته من ضجيج الشارع. ما أن تحركت بضع خطوات أكثر مما كانت تكررها خلال انتظارها، لمحتها تمشى بصعوبة وبطء، كما لو أنها

غير معتادة على الحذاء ذى الكعبين الرفيعين، أو أنهما لم يصنعا لقدميها المتينتين، أو من ثقل الحقيبة، أو أنها كانت مصابة بالغثيان. مشت قليلاً مثلما مشت لويسا عندما شعرت بأنها ليست بحالة جيدة حتى دخولها الغرفة وسقوطها على الفراش، بحيث جعلتنى أنزع عنها نصف ملابسها، وأدسها فى الفراش (كنت قد غطيتها جيدًا على الرغم من الحر). لكن من خلال تلك المشية المزعجة لها من الممكن أن تحرز أيضًا نوعًا من الرشاقة، ما يخطر على البال تلك اللحظة: عندما تمشى الخلاسية حافية ستكون رشيقة، بحيث تلتف حولها التنورة وتشد عضلاتها بشكل متناغم.

غرفتى كانت معتمة، لا أحد أضاءها عندما حل الليل، لويسا النائمة خائرة القوى، وأنا لم أبتعد عن النافذة، مراقبًا أهل هافانا وفيما بعد تلك المرأة التى تستمر فى الاقتراب بخطوات منزعجة وتستمر بصراخها الذى أسمعه الآن:

ـ هيه! لكن ماذا تفعل هناك؟

أفزعنى عندما فهمت ما نطقت به، لكن ليس كثيرًا لأنها قالته لى بطريقة مليئة بالثقة، غاضبة، كما لو جاءت من أحد يصفى حسابه مع شخص قريب جدًا منه أو أحدًا يحبه، ويغضب منه بشكل مستمر. لم تكن حركة منها لأنها شعرت بأنها مراقبة من شخص مجهول من نافذة فندق يقطنه الأجانب وجاءت لتعاتبنى على مراقبتها فى انتظارها المضجر، بل إنها قد تعرفت على حالاً ما أن وقع نظرها على، وتعرفت على ذلك الشخص الذى ظل يتابعها لوقت غير محدد، دون شك حتى قبل أن أشخصها من بين الجميع.

كانت لا تزال بعيدة بمسافة. قطعت الشارع واجتازته من بين السيارات القليلة دون أن تأبه بإشارات المرور، ووصلت عند طرف الميدان، حيث توقفت، ربما لتريح قدميها وكعبيها المتحملين أو لتسوى تنورتها مرة أخرى، لكن الآن بحماس مشبوب كما لو وجدت فى التنورة من تستطيع محاسبته أو القصاص منه. ظلت تنظر إلىّ وتفرك عينيها كأنها تعانى من حول، لأن عينيها تحولتا قليلاً إلى يسارى. ربما توقفت وأبقت نظرها بعيدًا لتحول غضبها، وأنها لم تكن مستعدة لإتمام الموعد ما أن رأتنى لمرة، كما لو أنها لم تكن تعانى ولم تشعر بضيق قبل دقيقتين. آنذاك قالت جملاً أخرى، مرافقة بحركة من ذراعها وأصابعها المتحركة، إشارة تعلق، كما لو أنها تقول معها: "أنت، تعال هنا"، أو "أنت لى". لكنها نطقت مرة واحدة مرتجفة، مدعية، منزعجة، مثل صوت مقدم برامج تليفزيونى أو سياسى يلقى خطابًا أو أستاذ فى قاعة دراسية (لكنها بدت جاهلة):

- لكن ماذا تفعل هنا؟ ألم ترنى أنتظرك منذ أكثر من ساعة؟ لماذا لم تقل لى إنك صعدت؟

أعتقد أنها قالته بهذه الطريقة، بهذا الترتيب الهش للكلمات وسوء استخدام الاسم الأول تبعًا لما كنت قلته، أو أن يقوله أى شخص من بلدى، على ما أظن. على الرغم من قلقى فإننى كنت أخشى أن تستيقظ لويسا الراقدة خلف ظهرى على صراخ تلك الخلاسية، استطعت أن أركز بصورة أفضل على ملامح وجهها، الذى كان شاحبًا، ربما كان لها فقط الربع من جد زنجى والذى يرى بوضوح فى شفتيها الممتلئتين وأنف أفطس قليلاً وأشد احمرارًا، لا

يختلف كثيرًا عن أنف لويسا فى فراشها، حيث أمضت أيامًا متفرقة تتشمس عند شاطئ البحر فى رحلة زواج حديث العهد. العينان الرامشتان للمرأة بدتا لى أكثر انكشافا، رماديتين أو خضراوين أو على الأقل بلون البرقوق، لكنى فكرت، بأنها ربما تضع عدسات لاصقة ملونة، وهو ما يسبب لها رؤية ضعيفة بالتأكيد. كانت أرنبة أنفها محتدمة، محتقنة بسبب الغضب (لها وجه مندفع بكل قوة)، وتحرك فمها بإفراط (الآن بدأت قراءة تعابير فمها دون صعوبة وهو ما افتقدته من قبل)، وباعوجاج شبيه بالذى لنساء بلدى، أعنى، ما ينم عن احتقار راسخ.

اقتربت ناحيتى أكثر، وكل مرة أكثر غيظًا لعدم تلقيها إجابة، دائمًا ما تكرر حركة الذراع نفسها، كما لو أنها لا تعرف غير تكرار التعبير نفسه، ذراع طويلة عارية تحدث ضربة جافة فى الهواء، والأصابع تتلاعب فى الوقت ذاته كما لو تود الوصول إلى ومن ثم القبض علىّ كمخلب: "أنت لى" أو "سأقتلك".

ـ هل أنت أحمق أم ماذا جرى لك؟ وفوق هذا تبدو أخرس! ولكن لم لا تجيبنى؟

كانت قريبة جدًا وقد تقدمت عشرًا أو اثنتى عشرة خطوة بما يكفى ليس لسماع صوتها الهستيرى وحسب، بل أن يخترق فضاء الغرفة، وما يكفى كما اعتقدت، أن ترانى بوضوح مهما كانت ضعيفة البصر. لكن بدا عليها أنها موقنة من أننى هو الشخص الذى انتظرت لقاءه المهم، والذى جعلها تغضب لتأخره، وما جعلها تخرج عن طورها هو أننى كنت أراقبها بصمت من الشرفة. لكننى لا أعرف أحدًا فى هافانا، بل وأكثر من هذا، إنها المرة الأولى

لوجودى فى هافانا برحلة زواج حديثة العهد برفقة زوجتى لويسا. انتبهت لنفسى ولمحت لويسا جالسة فى فراشها، بعينين محملقتين بى لكن دون أن تتعرف فيهما علىّ، فضلاً عن أن تعرف أين تكون الآن. عينان محمرتان من حمى جملتها تستيقظ مذعورة ودون إشارة تنبيه للحظة استيقاظها من النوم. كانت جالسة فى الفراش وحمالة صدرها نُزعت من مكانها بينما كانت نائمة، أو بسبب حركتها الفجائية التى انتهت بإتمام جلوسها: حركة مائلة، كاشفة عن عضد وتقريبًا أحد النهدين، كان عليها أن تندفع، كانت مستلبة بسبب من جسد منسى بوضع غير مريح ومن أثر النوم.

ـ ماذا حدث؟ قالت بخوف

ـ لا شىء ـ قلت أنا ـ عودى إلى النوم.

لكننى لم أتجرأ على الاقتراب منها ومداعبة شعرها لتهدأ حقيقة وتعود إلى ثباتها، مثلما فعلت فى مواقف مماثلة من قبل، لأننى فى الواقع لم أتجرأ فى تلك اللحظة على ترك موقعى عند الشرفة، ولم أكن مستعدًا أن أفقد رؤيتى لتلك المرأة التى كانت موقنة بأنها تواعدت معى، ولا أن أتهرب لوقت أكثر عن المحاورة المفاجئة التى عارضتنى من الشارع. كان من المؤسف أن يتحدث كلانا اللغة نفسها، ونفهمها بالقدر نفسه أيضًا، لأن الذى لم يكن حوارًا بعد قد تركز على الانفعال وحسب، ربما لأنه لم يكن كذلك، أى لم يكن حوارًا.

ـ سأقتلك يا ابن القحبة! أقسم لك بأننى سأقتص منك حالاً!

صرخت امرأة الشارع.

صرخت من موقعها مُقّعية على الرصيف، دون أن تراني، لأنني في اللحظة التي عدت فيها لنطق تلك الكلمات الأربع مع لويسا، كان قد طفر حذاء الخلاسية وسقطت أرضًا، دون أن تتأذى ولكن اتسخت تنورتها البيضاء. صرخت بهذا: "سأقتلك"، وحاولت النهوض كبركان، الحقيبة معلقة دائمًا على كتفها، ولم تسقط منها، كما لم تنزعها عن كتفها بالرغم من الخدوش، حاولت أن تعدل تنورتها أو تنظفها بيدها، لها قدم عارية ومرفوعة في الهواء، كما لو لم تقتنع بعد بطريقة ما لتضعها على الأرض أو أن توسخها الشتلات أيضًا، ولم تفكر حتى باتكائها على أطراف أصابعها، وهي القدم نفسها التي يستطيع أن يراها الرجل الذي عثرت عليه، أن يراها عن قرب، من فوق، أو أن يداعبها في وقت متأخر.

شعرت بالذنب تجاهها، لانتظارها وسقوطها أرضًا ولصمتي، وشعرت بالذنب تجاه لويسا، زوجتي التي اقترنت بها حديثًا، والتي تحتاجني لأول مرة منذ حفل الزفاف، حتى لو كانت حاجتها لثانية واحدة، أن أجفف لها العرق المتصبب من جبينها وكتفيها، وأن أعدل لها حمالة صدرها أو أن أنزعها عنها بدلاً من أن أتركها تلقي بها إلى الأرض، وأن أعيدها إلى نومها بكلمات مثلما كنت أفعل. هذه الثانية لم أكن مستعدًا أن أمنحها لها، كان مستحيلاً، لاحظت الهيئتين اللتين قيدتاني وأخرستاني، واحدة في الخارج وأخرى في الداخل، واحدة أمام نظري والأخرى خلف ظهري، كان من المستحيل، لأنني كنت مقيدًا إلى الاثنتين، هنا لابد من أن خطأ ما قد وقع، لذلك لا يمكنني أن أشعر بالذنب تجاه زوجتي للاشيء، حتمًا لتأخري بالوقت المناسب من أن أساعدها وأن أهدئها، وأقل منه تجاه امرأة مجهولة مهانة، حتى لو كان بكل ما تعتقده بأنها

تعرفنى وأنى قد أهنتها. كانت ممتحنة بموازنة نفسها لأجل أن تعود للبس الحذاء دون أن تطأ الأرض بقدمها الحافية. كانت تنورتها ضيقة قليلاً من أجل أن تقوم بالعملية على وجه أفضل، قدماها العظميتان طويلتان، وبالرغم من أنها كانت تحاول أن تصرخ، فإنها غمغمت بكلمات، لأننا غير مستعدين أن نولى الآخرين اهتمامنا ونحن نصلح من هيئاتنا. لم يكن لها من سبيل غير أن تطأ بقدمها، وأن تتسخ لبرهة. عادت لرفعها كما لو أن الأرض معدية أو حارقة، ومسحت التراب عنها مثلما تمسح لويسا جسدها من رمل الشواطئ لحظات قبل أن تغادر، وأحيانا بسبب هبوط الليل؛ أدخلت أصابع القدم فى الحذاء ومن ثم ظاهر القدم بدفعة إبهام اليد (اليد الحرة من الحقيبة) وسحبت سير الحذاء البارز وشدته على قدمها (سير حمالة صدر لويسا ما زال على الأرض مع فارق أننى لم أعد أراها الآن).

عادت قدماها القويتان للسير بثقة، ضاربة على الرصيف كما لو كانت زجاجات فارغة. مضت ثلاث خطوات دون أن تنظر من جديد، وعندما مضت أكثر، وعندما فتحت فمها لتسبنى أو تهددنى، وأن تبدأ إشارة يدها الضاغطة للمرة الألف ربما، بأظافر اللبؤة تلك التى تخدش بما تعنيه: "لن تهرب منى،" أو "أنت لى"، أو "معى إلى جهنم"، تأجل كل ذلك فى الهواء، تجمدت يدها العارية بارتفاعها الممدود، كما ذراعى عداء. لمحت إبطها حديث الحلاقة، كانت قد ملسته من أجل موعدها. نظرتْ مرة أخرى إلى يسارى وعادت لتنظر لى، نظرت من جديد إلى يسارى وعادت لتنظر لى.

ـ ولكن ماذا يحدث هنا؟

عادت لويسا لتسأل من فراشها. صوتها خائف، يشرح رعبًا ممتزجًا، رعبا داخليًا وآخر خارجيًا، كانت خائفة مما يجرى لجسدها، بعيدة عن دارها، وما لا تعرف عنه شيئًا ويجرى فى الخارج، هناك عند الشرفة وفى الشارع، أو ما يجرى لى أنا وليس لها، الزوجان يعتادان حلاً بأن ما يجرى لأحدهما إنما يحدث للاثنين معًا. مع الليل، كانت الغرفة معتمة تمامًا، كانت لا بد أن تشعر بانطفاء نور عينيها لأنها لم تتجرأ على إضاءة المصباح الذى إلى جانبها على المنضدة. كنا فى جزيرة.

امرأة الشارع بقيت بفم مفتوح دون أن تقول شيئًا، وأعادت يدها إلى خدها، اليد التى انزلقت من الأعلى إلى الأسفل محبطة، متخبطة وتشعر بالخزى. الآن لم يعد لديها سوء فهم.

- لتعذرنى - قالت لى بعد مرور بضع ثوان - لقد اشتبهت بحضرتك.

فى لحظة كانت قد فهمت بأنها قد صرفت كل دخانها - بل والأسوأ من كل هذا- أن عليها أن تنتظر أكثر، ربما فى مكان وقوفها الأول، وليس تحت الشرفة، عليها أن تعود إلى نقطة اختيارها الأصلية، إلى الجانب الآخر من الشارع هناك حيث الميدان، لكى تثبت بخفة وضغينة كعب حذائها الرفيع بعد كل خطوتين أو ثلاث، بعد ثلاث ضربات فأس وضغطة مهماز، أو مهماز بعد ضربات الفأس. فجأة أصبحت امرأة متجردة من أسلحتها، مطيعة وقد فقدت كل غضبها وطاقتها، وأعتقد أنه لم يعد يهمها سوء الفهم الذى أصابها ولا طالعها السيئ- على الأقل هناك مجهول أمام عينيها الخضراوين أخيرًا - بل إن ما ينتابها الآن هو أن خطرًا

يتهدد موعدها. كانت تحدق بى بنظرتها الرمادية الذاهلة، بقليل من الاعتذار والقليل من الاختلاف أيضًا. الاعتذار أعتقد أنه مجد، لأنه ثمن المرارة التى ظفرت بها. عليها أن تمضى وتنتظر من جديد، بعد أن استنفدت الانتظار كله.

ـ انتبهى لنفسك ـ قلت لها

ـ مع من تتحدث؟

سألتنى لويسا، والتى خرجت من ذهولها دون مساعدة منى، ولكن لم تخرج بعد من ظلمتها (الصوت كان أقل غطيطًا وسؤالها كان محددًا؛ ربما لم أشرح لها بعد أننا فى وقت الليل).

لكننى حتى الآن لم أجبها ولم أصل حتى السرير لتهدئتها وترتيب وضعها تحت الشراشف، لأنه فى هذه اللحظة انفتحت درفتا الشرفة التى إلى يسارى بصخب، ولمحتُ ذراعى رجل تطلان مستندتين على الحاجز الحديدى، أو تقبضان عليه كما لو كان حاجزًا متحركًا، وبعد حين نادى:

ـ مريم!

الخلاسية غير واثقة ومرتبكة، عادت للنظر إلى أعلى، والآن دون أدنى شك نَاحية اليسار، بدون أدنى شك ناحية الشرفة التى انفتحت بغتة، ناحية الذراعين القويتين لرجل بقميص ذى أكمام طويلة، أكمام مشمرة، بيضاء، لذراعين مشعرتين، أكثر أو أقل من ذراعى. أنا أصبحت غير موجود، اختفيت، كنت مشمر الذراعين أيضًا، رفعت الأكمام إلى أعلى بعد أن استندت لفترة على حاجز الشرفة، منذ فترة، لكنى الآن اختفيت، ولنقل مرة أخرى، كنت بالنسبة لها لا أحد.

يلبس الرجل فى بنصر يده اليمنى خاتمًا مثل الذى ألبسه، مع فارق أنى ألبسه فى اليد اليسرى، منذ حوالى أسبوعين، وقت قصير، مما يجعلنى غير معتاد عليه بعد. كذلك الساعة، سوداء وبحجم كبير، يحملها الرجل فى ساعد الذراع نفسه، بينما أحملها فى ساعد الذراع الأخرى، على عكسه. هو رجل أعسر. الخلاسية لم تحمل لا ساعة ولا خواتم. فكرت أن هيئة ذلك الشخص الذى لم يكن مرئيًا خلال كل تلك الدقائق، على عكس حالتى، إذ كنت مرئيًا جدًا، بارزًا ومتكئًا على الحاجز غير المتحرك. الآن على العكس من ذلك، أصبحت مُلْغًى بضربة واحدة. أصبحت لا مرئيًا بينما دخل مكانى ذلك الرجل الذى لا أراه، مثلما عليه حالة لويسا التى لا أراها، مستمرة بوجودها فى الخلف من ظهرى. ربما كان ذلك الشخص يتقدم ويتأخر مرة، ودائمًا دون أن يفتح درفَتَى الشرفة كليًا، حسب ما رأيته أو ما خمنته من تعابير عينى امرأة الشارع بلون البرقوق، تعابير امرأة قصيرة النظر لا تضر. كانت له فرصة اللعب بفائدة أن يضعها موضع نظره، أن يختبئ، لكن لا شىء من هذا، وهى لديها حق بكل شىء، موعدها كان من الممكن أن يتم بصعودها إلى الفندق دون أن تعانى مشقة الاحتمال، بدلاً من أن تراها تنتظر أمام الفندق على مسافة قصيرة منه، وأن يتمعن بها طويلاً بمشاويرها القصيرة والمؤلمة من جانب لآخر، وبعد حين تعثرها لبرهة وسقوطها أرضًا، ومن ثم ارتداؤها حذاءها، كما كانت لى أنا أيضًا رؤيتها.

ما كان غامضًا هو رد فعل مريم الذى لم يكن له علاقة إطلاقًا بالذى وجَّهته لى عندما اشتبهت بى على أننى الآخر، الآخر الذى هو ذلك الرجل بذراعين قويتين مشعرتين وطويلتين، يحمل ساعة

وخاتمًا بطريقة تتم عن كونه أعسر. عندما لمحته بكل تأكيد، عندما رأت مَنْ انتظرته طويلاً وسماعها لندائه، لم تفتعل أية إشارة ولم تصرخ بشيء. لم تشتمه ولم تهدده ولم تقل له ولو "قادمة من أجلك" أو "سأقتلك"، بذراعها تلك، العارية بأصابع متخبطة، ربما كان ذلك، على العكس من حالتى، ربما كان ذلك قريبًا، لقد صاح بها ونطق باسمها.

تغير تعبير المرأة: كان تعبير ارتياح خاطف للحظة - تقريبًا تعبير تقدير دون وجهة - وبأناقة أكبر لخطواتها والذى أظهرته من قبل (كما لو بصورة مفاجئة تمشى حافية ولم تعد ساقاها قويتين جدًا)، ركضت المسافة الفاصلة حتى الفندق، ودخلت من بوابته مع حقيبتها السوداء الكبيرة والتى بدت الآن خفيفة، مختفية تدريجيًا عن مرمى بصرى دون أن تقول لى أية كلمة، متصالحة كليًا مع العالم أثناء خطواتها تلك.

انغلقت الشرفة التى على يسارى، ثم عاد بعد حين لفتحها لأن الدرفتين لم تغلقا جيدًا، كما لو أن الهواء قد دفع بهما، أو أن الرجل فكر لثانية متأخرة بأن يعود لغلق الدرفتين بصورة أفضل (ولم يكن للهواء علاقة بذلك)، ولم يعلم جيدًا كيف سيصنع بهما عندما كانت المرأة قد أصبحت معه الآن فى الأعلى (كانت المرأة قد صعدت درجات السلم). بينما أنا آنذاك، أخيرًا، (كان قد مر وقت قصير عندما شعرت لويسا بأنها لم تزل مستيقظة بعد)، غادرت موقعى عند الشرفة وأوقدت مصباح منضدة الليل، ثم اقتربتُ بكل عناية حتى رأس سريرنا المشترك، بعناية ولكن بتأخير واضح.

هذا التأخير كان بالنسبة لى غير منطقى، وفى لحظتها تألمت لذلك، ليس لأنه ذو عاقبة وخيمة، بل لأننى فكرت بأنه قد يكون،

تمهيدًا لتردد أو لغيرة ما. والآن من الحق أن أقول بأن هذا التأخير قد ولد رأسًا الإنزعاج الأول الذى أتحدث عنه، وهو ما جعلنى وللمرة الأولى منذ عقد قراننا، من الصعب على أن أفكر جديًا بلويسا (ومتى ما كان حضورًا ماديًا مستمرًا، كان أكثر عرضة للإهمال والإبعاد)، أما بروز الانزعاج الثانى وهو ما نوهت عنه أيضًا فلم يكن سببه تأملى الوجيز لتلك الخلاسية أو لإهمالى المقتضب لها، وإنما لما جاء بعد حين، أى بمعنى آخر، ما حدث عندما كنت أهتم بلويسا، وكنت قد جففت لها عرق جبهتها وذراعيها وفككت عنها حمالة صدرها حتى لا تضطر لطرحها، أو أن تتصرف بحرية الاحتفاظ بها أو أن تتركها منفلتة على صدرها أو نزعها بنفسها. فتحت لويسا عينيها قليلاً بتأثير الضوء وطلبت أن تشرب، وحالما شربت شعرت بأنها أفضل، وعندما شعرت بتحسن كانت مستعدة للحديث قليلاً، وعندما تشجعت ولاحظت بأن الشراشف لم تعد لزجة وأنها ممددة بتناسق فى فراش مرتب، والأهم من هذا فهمت فانتبهت إلى فكرة أن الوقت ليل، وسواء شاءت أم لا، فاليوم قد انتهى بالنسبة لها دون قدرة على استئناف شىء، ولم يبق لها أكثر من محاولة ترك نفسها لإهمال المرض والشروع فى النوم حتى اليوم التالى، والتى قد خمنت أن كل شىء سيعود إلى طبيعته بما لا يكون خروجًا عن طبيعة رحلتنا كزوجين. آنذاك عدلت من وضع جسدها وعادت لضمه وتكويره، وهنا تذكرت إهمالى الذى خطر لها بشكل مؤكد بأننى أنا من قال "اهمليه" لشخص مجهول كان فى عرض الشارع، ومن هناك تعالت أصوات وصراخ مسموع حتى وهى فى غمرة أحلامها أو غفوتها، لقد سارعت بإيقاظها وحتمًا تخويفها.

ـ مع منْ كنت تتحدث قبل ذلك؟ سألتنى مرة أخرى.

لم أر منطقًا يدعونى لأن أقول لها الحقيقة، ودون شك كان لدى شعور ألا أقول لها لمجرد القول. فى تلك اللحظات كنت ممسكًا بطرف منشفة مبلل وعلى وشك تجفيف وجهها، ورقبتها، وقفاها (الذى علق عليه شعرها الملتف الطويل، وبعض شعيرات متفرقة غطت الجبهة كما لو كانت تجاعيد رقيقة قادمة من المستقبل لتظليلها بعض الوقت).

ـ مع لا أحد، مع امرأة توهمت أنها تعرفنى، اختلطت عليها نافذتنا مع النافذة المجاورة. لابد أنها قصيرة النظر، فقط عندما أصبحت قريبة رأت أننى لست الرجل الذى تواعدت معه. هناك- وأشرت إلى الجدار الذى يفصلنا عن مريم والرجل. عند الجدار هناك منضدة وفوقها مرآة، وحسب وضعية تحركنا أو انحنائنا، يمكننا أن نراقب بعضنا من الفراش.

ـ ولكن لماذا كانت تصرخ فيك؟ بدت لى أنها كانت تصرخ كثيرًا. أو لا أعرف إن كنت أحلم. أشعر بحرارة كبيرة.

تركت المنشفة على قوائم السرير وداعبتها من خدها لأكثر من مرة، وكذلك ذقنها المستدير. عيناها الكبيرتان تنظران بضبابية. لو كانت تشعر بالحمى، فلابد أنها قد انخفضت.

ـ هذا ما لا أستطيع معرفته، لأنه فى الواقع لم أكن أنا الذى كانت تصرخ عليه، إنما الآخر الذى توهمت أنه أنا. من يعرف ماذا علم أحدهما للآخر.

بينما كنت منشغلاً بالاعتناء بلويسا سمعت (لكن دون أن أدرك، لماذا فى اللحظة التى أعتنى فيها بلويسا كنت أعمل أشياء أخرى

متنقلاً من الغرفة إلى الحمّام ومن الحمّام إلى الغرفة) بوصولها قرب باب الغرفة المجاورة، عرفت ذلك من وقع كعبى الحذاء، وكيف فُتح الباب حتى دون أن تطرق عليه، وبدءًا بالصرير الخفيف (كان سريعًا) وإغلاق الباب من جديد (كان بطيئًا جدًا)، لم أسمع غير همسة لا تحزر، هسيس كلمات لم أحزر معناها على الرغم من ترديدها على لسانى، وحسب الأصوات السابقة، يبدو أن نافذة شرفة غرفتهما قد أُغلقت ولم أغلق بعد نافذتنا.

إضافة لانشغالى بتأخرى غير المستوجب، كان هناك تحسسى المتسارع. شعرت بأننى أرغب فى الإسراع ليس بتطمين لويسا وطرح الشرشف فوقها بلين حتى لا يؤثر على مرضها المتأزم وحسب، بل كنت حريصًا كذلك ألا توجه لى أسئلة أخرى وأن تنام من جديد، لأننى لم أكن أملك الوقت كى أجعلها تشاركنى رغبة الفضول التى تتملكنى، ولم تكن هى بوضع يهتم بشىء خارج عن مدار جسدها، وبينما تبادلنا بعض الكلمات، مضيت إلى الحمّام لترطيب طرف المنشفة وأن أعطيها ما تشرب ومن ثم مداعبة فمها الذى كان يعجبنى جدًا، إلا أن الضجيج الذى أصنعه بهذا وجملنا غير المتتالية المقتضبة منعتنى من الانتباه وأن أصيخ السمع للبحث عن معنى للهمس المستمر، والذى كنت متعجلاً لفك رموزه.

الاستعجال أريده لأننى كنت واعيًا بأن ما لا أسمعه الآن لن أسمعه أبدًا؛ لن تكون له إعادة ، مثلما يستمع أحدنا لشريط أو يتفرج على تسجيل فيديو ومن الممكن أن يتقطع، بينما كل صوت لا يُفهم ولا يُدرك سيضيع منك للأبد. السيئ أن يحدث هذا معنا وليس لدينا نسخة منه، ولكن السيئ الآن، وهو أننى لا أعرف به ولا

أسمعه ولا أراه، ومن ثم لا طريقة بعد ذلك لمعاودة استرجاعه. ففى اليوم الذى لم نجتمع فيه لن يكون أبدًا اجتماعنا، أو ما نقوله عبر الهاتف عندما نحادث بعضنا، فبدون إجابة لن يكون بالإمكان حديثنا، ولن يكون نفس الشىء ولا بالروحية نفسها؛ بل سيكون مختلفًا ولو بشكل طفيف، أو كله مختلفًا بسبب افتقار المداخلة أو إهمالنا للحديث نفسه.

لكن لو كنا معًا ذلك اليوم، ولو كنا فى البيت معًا ورن جرس الهاتف، أو تجرأنا على الحديث طاردين الخشية ومتناسين المخاطرة، الآن وحسب لن يعاد مرة أخرى، وبالتتابع ستصل اللحظة التى فيها كنا معًا وستكون كما لو أننا لم نكن، أو أننا أغلقنا الخط كما لو أننا لم نفعل، وأن نكون تجرأنا على الحديث على أن نصمت.

حتى الأشياء التى لا تُمحى لها زمن معين، مثل تلك التى لا تترك أثرًا أو لم تحدث أصلاً، وأننا نتدخل ونتنبه لها أو أن نسجلها أو نصورها، وأن نمتلئ بالذكريات، بل وأيضًا نحاول أن نستبدل ما حدث بما نملك من أحداث وأرشيف لما جرى، بطريقة ما، وكأن ما جرى فى الحقيقة منذ البداية هو توقعنا أو تسجيلنا أو تصويرنا لها، هذا وحسب؛ والآن بهذا التمام الدقيق للإعادة نكون قد أضعنا الوقت بترتيب الأشياء كما وقعت فعلاً (حتى لو كان الزمن هو وقت الانتباه)، وبينما نلجأ لاستعادته أو إنتاجه من جديد، أو نعمل على منعه من أن يكون ماضيًا، فزمن آخر مختلف سيقع حتمًا، وفيه بلا شك، لن نكون معًا ولن نحمل سماعة الهاتف ولن نجرؤ على أى شىء ولا أن نمنع أية جريمة ولا أى موت ممكن (حتى لو أننا لن

نقترفه أو نتسبب فيه)؛ لأننا سنتركه يمر بجانبنا كما لو لم تكن لنا علاقة به، أو هو نتاج محاولتنا المريضة ألا ينتهى وأن يعود الذى قد مضى. وهكذا فالذى نراه ونسمعه ينتهى إلى وضع مشابه ومتساوٍ مع الذى لن نراه أو نسمعه، إنها مسألة وقت فقط، أو مسألة أن نختفى.

وعلى الرغم من كل شىء لا يمكننا أن ندع حياتنا تمضى وراء الاستماع والمشاهدة والحضور والمعرفة، مع الاقتناع بأن حياتنا غير ممكنة دون وجودنا معًا يومًا ما أو الرد على تلك المكالمة، أو حتى أن نتجرأ أو نقترف جريمة، أو أن نتسبب فى موت أحد وأن نعرف بأنه كان هكذا.

ينتابنى أحيانًا شعور أن لا شىء مما يحدث، يحدث فعلاً، لأن لا شىء يحدث دون تدخل، إذ لا شىء يدوم أو يستمر يمكن تذكره بلا انقطاع، فحتى الأكثر رتابة وروتينية فى الوجود يمضى إلى إلغاء ورفض نفسه فى أى إعادة ممكنة، حتى اللحظة التى يكون فيها اللاشىء شيئًا واللا أحد أحدًا مثلما كانا سابقًا، وأن العجلة الضعيفة للعالم تكون مدفوعة بعدم تذكر ما يُسمع أو يُرى أو يُعرف ما لا يُقال أو ما لا مكان له أو ما هو غير قابل للإدراك أو المماثلة.

إن ما يُمنح هو أصيل مثل الذى لم يُمنح، وما نرفضه أو ندعه يمضى أصيلاً أصالة الذى نتمسك به ونقبل به، ما نجريه أصيل مثل الذى لا نمنحه نسبة نجاح، وبدون شك تمضى بنا الحياة وتمضى ما بين القبول والرفض والانتخاب، بين مد خط يفصل هذه الأشياء الأصلية، ويصنع من تاريخنا تاريخًا واحدًا نتذكره وبإمكاننا أن نسرده. نركز كل ذكائنا وإدراكنا ورغبتنا فى طريقة إدراك ما

سيكون متدرجًا، أو أن يكون متدرجًا حقًا، ولهذا نمتلئ بالإحباط ومناسبات الفشل، بالتأكيدات وإعادة التأكيد ومناسبات منتهزة، بينما ما هو مؤكد أن لا شيء مؤكد، وأن كل شيء يمضي هباء، أو حتمًا أن لا شيء قد حدث أبدًا.

ربما لم تكن هناك ولا كلمة واحدة جرت بين مريم والرجل فى اللحظة التى اعتقدت بأننى قد أضعتها بالانتباه لما تحدثاه. ربما نظرا لبعضهما فقط، أو تعانقا بصمت وهما واقفان، أو انطرحا فى الفراش ليتعريا، أو ربما اقتصرت هى على نزع حذائها، لتبين للرجل قدميها اللتين غسلتهما بعناية تامة قبل أن تخرج من البيت وهما متعبتان الآن ومتوجعتان (ظهرت إحدى القدمين ملطخة بوحل الرصيف). لم يتضاربا ولا تصارعا ولا شيء من هذا المعتاد (ما أريد قوله صراع جسد لجسد)، لأنه عند ذلك يتبعه لهاث شديد وصراخ، أو قبل ذلك أو بعده. ربما، مثلما أفعل أنا (لكننى اعمله من أجل لويسا، كنت أدخل وأخرج)، مضت مريم إلى الحمّام وأغلقت الباب كل تلك الدقائق دون أن تنطق بكلمة، لأجل أن تنظر وتصلح وتعمل على إزالة التعابير المتراكمة على وجهها بسبب الغضب والحقد واليأس ومن ثم الراحة، متسائلة عن أية حالة مناسبة لتواجه بها الرجل الأعسر المشعر الذراعين، الذى تركها عرضة للهزء والسخرية فى الوقت الذى كانت تنتظره بلا طائل، فاشتبهت بى على أننى هو. ربما جعلته ينتظر قليلاً، باب الحمّام مغلق، أو ربما لم تكن تقصد هذا، إنما كانت تبكى بخفوت وصرامة على غطاء المقعد أو على حافة حوض الحمّام، نازعة العدسات اللاصقة ومجففة عينيها المختفيتين بالمنشفة حتى تستطيع السيطرة على تنهيداتها، تغسل وجهها، تتزين وتخرج بحلة جيدة دون أن تثير

الانتباه. كنت متعجلا للاستماع، لهذا كنت بحاجة أن تعود لويسا للنوم، أن تتكور على نفسها وتستمر بالابتعاد مع أحلامها، كنت بحاجة للهدوء كى أستمع عبر جدار المرآة أو من الشرفة الموارية، أو عبرهما بطريقة توجسية.

أنا اتحدث وأفهم وأقرأ أربع لغات بالإضافة إلى لغتى، لهذا، على ما أظن، تخصصت ولو جزئيًا لكى أعمل مترجمًا فى المؤتمرات، والاجتماعات أو اللقاءات، السياسية على الأغلب، وأحيانًا على أعلى مستوى (فى مناسبتين عملت مترجمًا بين زعماء دول؛ حسنا، واحدة من هاتين المناسبتين كان رئيس حكومة فقط). لهذا أفترض أننى (كما لدى لويسا، لأنها تمتهن العمل نفسه، إلا أننا لا نشترك فى معرفة اللغات نفسها، وهى أقل دخولاً فى المهنة أو لا تمتهنها بشكل كاف، لهذا لا ترى عملها بوضوح).

أمتلك الوسيلة لتعلم كل شىء: كل ما يُقال ويصل إلى سمعى، سواء فى العمل أو خارجه، حتى لو كان عن بعد، وحتى لو كان بواحدة من هذه اللغات غير المعدودة والتى أجهلها، وحتى لو كان بصيغة همهمة لا تُميز أو بهمس لا يُفسر، وحتى لو كان على الأغلب لا أفهمه أو أن ما يُحكى قيل من أجل ألا أسمعه، أو أيضًا يُقال تأكيدًا من أجل ألا ألتقطه.

من الممكن أن أشعر بعدم الإصغاء، ولكن ذلك فى حالات محسوبة من الشعور غير المسئول أو عن طريق جهد خارق، لهذا أفرح حقيقة عندما تكون الهمهمات لا تُميز والهمس لا يُفسر، وأن هناك لغات عديدة غريبة عنى وليست بالمفهومة لى، لأننى أستريح عندها. عندما أعرف وأتأكد من أنه لا وجود لطريقة تنفعنى، وأننى

لا أستطيع الفهم ولو برغبة كبيرة ومحاولة مستمرة، عندها أشعر بالهدوء وعدم الفهم وأركن للراحة؛ إذ لا شىء أستطيعه، لا شىء فى يدى، أنا غير نافع، سمعى يستريح، رأسى يستريح، ذاكرتى تستريح وكذلك لسانى.

وعلى العكس، عندما أفهم، لا أستطيع تفادى الترجمة آليًا وذهنيًا إلى لغتى، وأحيانًا مرات عديدة (محظوظ أنها ليست بشكل دائم وأحيانًا دون أن أنتبه) ما ألتقطه بالإسبانية أترجمه أيضًا بفكرى إلى واحدة من اللغات التى أتحدثها وأفهمها. أحيانًا أترجم حتى الإشارات، النظرات والحركات، إنها حالة وطبيعة، بل إن الأشياء بالنسبة لى تقول شيئًا عندما تدخل فى ارتباط مع هذه الحركات، ومع هذه النظرات والإشارات.

عندما لا أستطيع فعل شىء، أستمع للأصوات التى أعرف أنه يمكن الإمساك بها ولها معنى وبلا شك تبدو لى لا تحل شفرتها: الأصوات التى لا تُفرز ولا تتشكل بوحدات. هذه هى اللعنة الكبرى لمترجم بعمله، عندما فى مناسبة معينة (نطق مستحيل، لكنة أجنبية سيئة، تشكيل خاص خطير) لا يُفصل ولا يُنتخب ويفقد استواءه، وكل ما يسمع يبدو أصليًا خليطًا أو ضعفًا كل ما يذاع ولا يقول بشىء، إذًا الأساس هو أنّ تفصل الألفاظ، كما لو كانت أشخاصًا لو شئنا فهمها. لكن أيضًا التعزية الكبرى أن يحدث ذلك عندما لا تكون فى العمل: فقط حينذاك تسترخى من كل شىء ولا تعير انتباهًا ولا تبدى تحفزًا، أن تعثر على المتعة بسماعك أصواتًا (الصخب غير المفهوم للحديث) لا تعرف فقط أنها لا تعنيك، بل أنك غير معنى بترجمتها كذلك، ولا نقلها، ولا حفظها، ولا تفسيرها ولا فهمها. ولا حتى أن تكررها.

لكن فى تلك الغرفة من الفندق، والتى حسب ما أعتقد، كان فى أزمان سابقة يُسمى أشبيلية- بلتمور، أو شُيد حيث يكون قد شُيد هذا قبل أعوام (ربما يكون لا، لا أعلم حقًا، إذ لا أعرف أى شىء يُذكر عن تاريخ كوبا، على الرغم من أننى أمت لهافانا بصلة الربع)، لم يكن همى أن أستريح أو أن أتجاهل الهمهمات فى الغرفة المجاورة، مثلاً كما حصل سابقًا، عندما كنت أستمع على العموم للهمهمات الأخرى لأهل المدينة وهم يمضون فى الشوارع بالقرب من شرفتى. بل كان العكس من ذلك، ودون أن أنتبه وبلا رغبة كنت فى حالة تحفز، وكما هو معتاد قوله، بسمع مركز، ولأجل أن تحرز النجاح بالفهم تحتاج لصمت تام، دون قرقعة كؤوس ولا هسيس شراشف ولا وقع قدمى فى الرواح والمجىء بين الحمّام والغرفة، ولا حتى صنبور الماء المفتوح، ولا بالطبع، صوت لويسا الضعيف، حتى لو لم يكن هناك الكثير الذى تقوله ولم تكن تبحث عن حوار تام معى. لا شىء يمنع من الاستماع أكثر من شيئين معًا، صوتين؛ لا شىء يمنع الفهم من أن يقترن حدثان أو شخصان يتحدثان دون احترام دور كل واحد منهما. لهذا كنت أريد أن تخلد لويسا للنوم، ليس من أجل أن تشفى وحسب، بل لأجل أن أخصص كل ملكتى وخبرتى كترجمان لسماع ما يمكن أن يقوله ذلك الهمس الدائر بين مريم والرجل الأعسر.

أول شىء سمعته أخيرًا وبوضوح كان نبرة غيظ، كما لو أن أحدًا يعيد لأكثر من مرة شيئًا لا يعتقد به ـ أو لا يفهمه أو لا يقبله ـ من استمع له كل تلك المرات.كان غيظًا مكبوتًا، معتادًا، لهذا لم يكن صراخًا، وإنما همسًا، كان ذلك صوت الرجل.

ـ "أقول لك إن زوجتى تحتضر".

ردت مريم على الفور، منتقلة غدوى الغيظ لها، لكننى صححت بسرعة، لابد أنهما يجهزان عدتهما بشكل دائم، على الأقل عندما كانا معًا: جملهما، والجملة الأولى للرجل تشكل مجموعة واحدة التقطتها حالاً ودون جهد ملحوظ.

- "ولكنها لا تموت. تحتضر منذ سنة ولكنها لا تموت. اقتلها أنت مرة واحدة، لابد أن تخرجنى من هنا".

مضت فترة صمت، ولم أعلم هل كان لأنه صمتَ أم لأنه خفض صوته أكثر ليجيب على طلب مريم، الذى لم يبد طلبًا عارضًا.

- "ماذا تريدين، أن أخنقها بالمخدة؟ أنا لا أستطيع أن أفعل أكثر مما أعمله، هذا يكفى. إننى أتركها تموت. أنا لا أعمل شيئًا لمساعدتها. أنا أدفع بها نحو الموت. لا أعطيها أى دواء يوصى به الطبيب، لا أعمل بتوصياته، أعاملها بإهمال، أبين لها اشمئزازى وشكى، أسلبها القليل مما تبقى لها من الحياة. ألا يبدو لك كافيًا؟ ليس لها معنى الآن أية خطوة مزيفة، أو أن أنفصل عنها إذ سنطيل الأشياء عامًا آخر، وعلى العكس من ذلك فإنها قد تموت فى أية لحظة. اليوم نفسه ممكن أن تموت. ألا تدركين أن الهاتف قد يرن الآن لينقل الخبر؟».

توقف الرجل للحظة، وأضاف بصوت مختلف، كما لو يخبرها غير مصدق ونصف ابتسامة بصورة لا إرادية:

- "ربما من الأفضل أن تكون ميتة الآن. لا تكونى غبية. فاصبرى."

للمرأة لكنة كاريبية، أغلب الظن أنها كوبية، ولكن إشارتى الأكبر لذلك (الكوبيون لم يحضروا العديد من المؤتمرات الدولية)

يعود إلى جدتى، لأنها خرجت من كوبا فى الـ ٩٨ مع كل عائلتها وفى عمر صغير لا يتجاوز بضع سنوات، وحسب قولها عندما تتذكر طفولتها، بأن هناك فرقا كبيرا بين لهجات سكان الجزيرة؛ هى مثلاً تستطيع التفريق بين أبناء قرى الشرق وبين أهل هافانا أو أحد من ماتانثاس. الرجل على العكس له لكنتى، لكنة قشتالية إسبانية أو من الأفضل القول لكنة مدريدية، ابن أصيل، لسان صائب مثل ذلك الذى اعتاد مقلدو الأصوات تعلمه فى الأفلام قديمًا أو ما أحافظ عليه أنا شخصيًا. تلك المحادثة كانت عملاً روتينيًا تقريبًا، تتغير وحسب فى التفاصيل، مريم والرجل مارساه لآلاف المرات. لكنه كان جديدًا بالنسبة لى.

- "لست مستعجلة، لقد كنت صبورة لوقت طويل وهى لا تموت. تشمئز منها، ولكنك لا تحدثها عنى، وهذا الهاتف لا يرن أبدًا. كيف يمكننى التأكد من أنها تحتضر حقًا؟ كيف لا يكون كذبًا فى كذب؟ أنا لم أرها أبدًا، لم أر إسبانيا بعد، ولا علم لى إن كنت متزوجًا أم أنك تخدعنى. أحيانًا أعتقد أن زوجتك لا وجود لها أصلاً".

- "وأوراقى.. صورى؟" قال الرجل. كانت لكنته شبيهة بلكنتى ولكن بصوت يختلف جدًا. صوتى خشن وصوته ناعم، كأنه نشاز وسط الضجيج. لا يبدو صوتًا مناسبًا لرجل مشعر، وإنما لمغنٍ من النمط الهش لا يتشجع بالمرة من أجل تغيير النبرة الطبيعية أو المصطنعة لصوته عندما يتحدث.ليس من المستحب قوله، ولكن لصوته نغمة منشار.

- "وما أعرفنى أنا بالصور؟ ربما تكون لشقيقتك، أو امرأة أخرى، عشيقتك، فما أدرانى إن كان لديك امرأة أخرى؟ أما أوراقك

فأنت لا تحدثنى عنها، وأنا لا أثق بك. امرأتك تمضى عامًا كاملاً وهى تحتضر، لتمت لمرة واحدة أو أن تتركنى بسلام."

هذا ما كانا يقولاه أو ما شابه، بالوسيلة التى أتذكر بها وأنقله. بدت لى لويسا نائمة تمامًا، وكنت أجلس عند طرف السرير وقدماى على الأرضية، بظهر مستقيم وبدون أى سند، متحملاً وضعى القلق بدون أى ضجيج (الرصيف، تنفسى، ملابسى). نظرت لنفسى فى مرآة الحائط الفاصل بيننا، أى بمعنى آخر نظرت عندما شئت أن أرى، لأننا عندما نصغى بانتباه لا نرى شيئًا، كما لو أن إجهاد حاسة فى أقصى درجاتها يطرد تقريبًا أى عمل لحاسة أخرى. عندما نظرت رأيت أيضًا شبح لويسا تحت الشراشف، متكومة عند ظهرى، أو من الأفضل أن أقول ما يبرز من هذا الشبح، والوحيد الظاهر بتمددها، يبدو فى الحقل المرئى للمرآة كأنه نصف جسد. لأرى رأسها جيدًا، كان علىّ أن أنحنى أكثر. بعد جملة مريم الأخيرة بدا لى أننى سمعت (لكن ربما كان بحوزتى عناصر تعيننى على التخيل لما لا أراه ولا أسمعه) لقد نهضت منفعلة ودارت لمرتين فى الغرفة الشبيهة دون شك بغرفتنا (كما لو كانت تهم بالمغادرة وتنتظر شيئًا، انقشاع غضبها مثلاً) فوصلنى صوت الاحتكاك بخشب الأرضية، وهذا ما كان لأنها قد نزعت حذاءها فعلاً، فلم يكن صوت قرقعة كعب بل ضغط أمشاط وأصابع القدم، ولا أعرف إن كانت قد خلعت ملابسها، أم أنهما قد تعريا بينما لم أكن أسمع شيئًا، إن كانا قد بدءا مماحكاتهما أم قطعاها وتركاها فى المنتصف ليتحدثا عن القلق الذى حاصرهما بصورة تدريجية. هذان، فكرتُ، لابد أنهما يعتمدان ويعيشان على المظهر الممكن: ينقطعان حتمًا عندما لا يكون موجب للاستمرارية، لأنهما دون شك لا بد أن يغذيا

ويعنيا بأن يكون وجودهما ممكنًا، أى اللحظة التى لا تمضى دونى ودونك، أى بلا كليهما.

ـ "حقيقة تريدين أن أتركك بسلام"؟

لا إجابة، أو لم ينتظرها، لأنه واصل على الفور، بصورة أكثر إصرارًا ولكن مرافقة دائمًا لقرقعة متحفزة، فاستمر صوت المنشار:

ـ "تكلمى، هل هذا الذى تريدينه؟ ألا أتصل بك عندما أعود مرة أخرى؟ أن أمضى شهرين وبعدها ثلاثة واثنين ولا تلتقين بى وترينى ولا تعلمين شيئًا عنى، وعن زوجتى إذا ما ماتت؟"

لابد أن الرجل قد نهض أيضًا (لا أعلم إن كان قد نهض عن السرير أم الكرسى) واقترب منها، واقفة، غير عارية حتمًا، بل حافية القدمين، لأن لا أحد يظل عاريًا منتصف الغرفة لأكثر من ثوان، أو ربما كان يمضى من مكان لآخر ويقف، إلى الحمّام مثلاً أو الثلاجة. ارتفعت الحرارة. الحر يشتد. صوت الرجل يستمر، الآن أكثر هدوءًا وربما لهذا بدون ضجة، ولكن دائمًا بطريقة إلقاء مغن حتى وهو فى طريقه للمشاجرة؛ صوت حاد بنغمة عادية، تحديدًا صوت مهتز مثل صوت كنائسى أو منشد زورق.

ـ "أنا أملك الوحيد يا مريم. لنا أكثر من عام ولا أحد يمضى بلا أمل. هل تعتقدين أنك ستجدين وسيلة أكثر سهولة؟ بالطبع لا، لا وجود لأحد فى هذه المستعمرة، لا أحد يستطيع الدخول حيث كنت أنا"

ـ "أنت ابن عاهرة جييرمو" قالت هى.

ـ "فكرى ما تشائين، أنت أعرف بذلك"

الاثنان أجابا بحدة، ربما رافقت مريم كلامها بإشارة موحية من ذراعها المنتصبة. ومن جديد خيم الصمت، صمت أو وقفة ضرورية لأجل أن ينتبه ذلك الذى استخدم السباب بحديثه ويتفادى تفجير الموقف لكن دون أن يحسن كلامه ولا يطلب الاعتذار، لأن الملاسنة كانت متبادلة وفى انتظار أن تنقشع وحدها، مثل نزاع شبيه بالذى يحدث بين شقيقين فى صغرهما. أو أن يتراكم، لكن يظل منه شىء إلى المساء. لابد أن مريم أخذت تفكر. عليها أن تفكر بما تعرفه فى الخفاء وما فكرت به لأكثر من مرة، وهو نفسه الذى فكرت به أنا، على الرغم من عدم معرفتى لشىء ولا أنوى حكيه مسبقًا. فكرت أن الرجل جييرمو عنده حق، لأنه يحمل المقلاة بيده. فكرت أنه لم يبق أمام مريم سوى الانتظار وأن تتعامل مع كل وسيلة بعناية، حتى لو كانت انتهازية، وأن تعمل على الظهور قليلاً حتى لا تشترط أو تأمر بموت عنيف لتلك المرأة الموجودة فى إسبانيا، مريضة ولا علم لها بما يجرى فى هافانا كلما سافر زوجها الدبلوماسى أو الصناعى أو ربما تاجر انتقل لأعمال لديه أو مهام. فكرت أن لمريم الحق أيضًا بشكوكها وتذمرها، وربما كان كل ذلك نوعا من الخداع وأنه لا توجد زوجة مفترضة هناك فى إسبانيا، وحتى لو له زوجة فهى بأتم صحة وتجهل تمامًا بأن خلاسية مجهولة فى قارة أخرى تتمنى بل وترغب فى موتها، ومن أجل موتها يتم الصلاة بل وأسوأ من ذلك، فى هذه البقعة النائية من العالم، يتم التقديم لموتها عبر الأفكار والكلمات ويشدد عليه.

لم أعلم فى أى جانب أكون، لأن أحدنا عندما يحضر نقاشًا (على الرغم من أنه لا يرى ويسمع فقط: عندما يحضر أحد نقاشًا ويبدأ فى التعرف على المسألة) لا يمكن أن يظل بلا رأى، شعور

بالتقارب أو الابتعاد، التمتع والانحياز لأحد المتدخلين أو لثالث يتم النقاش بشأنه، لعنة ما يسمع ويرى. من طرفى فلا علم لى به لأنه من الاستحالة معرفة الحقيقة، لهذا ودون شك، لم تبد لى الأشياء منتهية فى لحظة الوصول لرأى بشأن الأشياء أو الأشخاص.

ربما كان الرجل قد أضجر مريم بوعوده الزائفة والتى تصبح غير محتملة كل مرة أكثر، ولكن من المحتمل ألا يكون هذا، بل العكس، وهى أنها لا ترى فى جييرمو أكثر من وسيلة خروج من العزلة والفاقة فى كوبا، وسيلة لشكل أفضل، لأجل أن تتزوج أو أن تتزوج به نفسه، وحتى لا تستمر بنفس الوضع واحتلال مكان شخص آخر، العالم يتحرك بأكمله عادة، فقط لأجل أن تترك المكان ذاته واحتلالك لمكان شخص آخر، فقط لأجل هذا لابد من نسيان نفسك ودفن ما له صلة ماضية بك، لأننا جميعنا نتعب بصورة مترددة مما نكون وما كنا عليه.

أتساءل كم من الوقت مضى على زواج جييرمو. أنا متزوج منذ أسبوعين فقط، وأبعد شىء أرغبه هو أن تموت لويسا، بل العكس، كان ذلك التهديد الناتج عن مرضها العارض هو ما جعلنى أشعر بالانزعاج. ما كنت أسمعه من الجانب الآخر للجدار لم ينجح فى تهدئتى، أو أن يطرد انزعاجاتى، والتى بصيغة مختلفة كما قلت سابقًا ذلك الانزعاج الذى يخيط بى منذ حفل زفافنا. تلك المحادثة التى أتجسس عليها أخذت تهذب إحساسى بالنكبة، وللحظة نظرت قصداً إلى المرآة الأمامية المضاءة بصورة سيئة، فالضوء الوحيد المنار ظل بعيداً عنها بفضل اعتراضه من أكمام قميصى المشمرة، هيئتى مستقرة فى الظل، رجل شاب ينظر بتركيز وحدة، على أمل

معرفة ما كان عليه سابقًا، لكنه يبدو فى منتصف العمر تقريبًا إذا ما نظرتُ بيقين أو لنقل بتفاؤل، لأنقب فى داخلى أبعد ولو قليلاً فى الوقت.

إلى الجانب الآخر، أبعد من المرآة المعتمة، هناك رجل آخر برفقة امرأة توهمت بى أننى هو، وهى فى الشارع، وربما على ما يبدو بأنه يرتبط معى بتشابه معين، ربما يكون أقل شبابًا، لهذا السبب أو لغيره فقد مضى وقت طويل وهو متزوج، الوقت الكافى، فكرتُ، ما يجعله راغبًا فى موت زوجته، أن يدفعها نحو الموت كما قال. ذلك الرجل، عندما رغب فى إتمام رحلة الزفاف، كان يشعر بنفس الإحساس الذى ينتاب من يسعى لافتتاح مرحلة وواقع جديد مثلما أنا عليه اليوم، كان قد أضاع خطط مستقبل بعينه ليحيا فكرة مستقبل مجرد، حتى اللحظة التى يحتاج فيها البحث عن أمل ما فى جزيرة كوبا، حيث اعتاد زيارتها بسبب عمله. كانت مريم بالنسبة له الأمل، شخصًا يلجأ للهروب إليه، شخصًا ينشغل به ويخشى عليه أو حتى يخاف منه (لن أنسى إشارة التهديد، الإشارة المخلبية، عندما كانت توجهها إلى: "أنت لى"، "قادمة من أجلك"، "تعال هنا"، "أنت مدين لى"، "أنا سأقتلك").

نظرت فى المرآة وانشددت قليلاً حتى يظل وجهى مضاء بشكل جيد بمصباح منضدة الليل، وحتى لا تبدو ملامحى مظللة، مضببة بلا أى أثر ماض وكأنها تابعة لجثة؛ أنا منشغل بذلك داخل حيز ضوء المرآة رأس لويسا المنار بشكل واضح بسبب قربه من المصباح، ورأيت وقتها وحسب بأن عينيها مفتوحتان، وتلاعب ببنصرها شفتيها، تداعبهما، تعبير معتاد عن الشخص المهموم بالاستماع، أو

عندها على الأقل وهى تهم بذلك. عندما شعرت بأننى كنت أراقبها، أغلقت عينيها فورًا وسكن بنصرها، كما لو كانت تريد بهذا أن تدعنى أعتقد بأنها نائمة، كما لو أنها لم تشأ منحنا مناسبة العودة للحديث الآن ولا لاحقًا عما سمعناه ـ إننى أكتشفه الآن ـ على لسان ابن بلدنا جييرمو والخلاسية البيضاء مريم.

أحسست أن الانزعاج الذى شعرت به أنا لا بد أنه انزعاج أكبر لها، انزعاج مضاعف (امرأة فى طريقها لتكون زوجة، زوجة فى طريقها لتكون ميتة)، حتى اللحظة التى يفضل كل واحد منا الاستماع بطريقته، وحيدا، ليس مشاركة، وكل واحد يحتفظ به لنفسه، لا تفسير لتلك الأفكار والمشاعر التى وضعتنا فيها المحادثة الخفية ووضعها الذى كانت عليه ومن ثم ما كنا نجهله الواحد عن الآخر، والذى هو الشىء نفسه ربما. هذا ما جعلنى أشك رأسًا، وربما بالضد فى ما كان ظاهرًا (كنت رأيتها مستريحة جدًا خلال حفل الزفاف، كانت تعبر عن غبطتها بلا كابح، كانت مستمتعة بالرحلة كثيرًا، وقد شعرت بالغضب أن تفقد مساء سياحة وتجوال فى هافانا بسبب وضعها المتردى)، لقد شعرت بنفسها مهددة أيضًا وغير واثقة بسبب ضياع مستقبلها، أو حتى المساس به.

لم يكن بيننا أى تهديد، على كثرة ما نقوله وما قلناه وناقشناه (عندما كان يتحتم علينا) لم يكن يمضى وحده أو خلف الصمت، بل إنه يمضى ليخلق ثقله، يمضى ليؤثر بما يليه، بما سيعترضنا (وعلينا أن نمضى نصف حياتنا متحدين) بطريقة تحتم على تشكيل طبيعتى أكثر مما هى مشكلة (أفكارى منذ العرس وبعد ذلك)، وهنا رأيت أن لويسا قد أغمضت عينيها لأنها لم تكن تريد أن أجعلها

شريكة لتخميناتى حول جييرمو ومريم والمرأة الإسبانية المريضة، ولا هى لمشاركتها ما جال فى فكرها. لم تكن حالة عدم ثقة أو نقص بالرفقة أو عاطفة إخفاء معين. كان ببساطة التأكيد على أنه لا وجود لما يُقال. وحقيقة أن ما لا يُقال أو يُعبر عنه فحسب هو ما لا نترجمه أبدًا.

بينما كنت أفكر بكل هذا (لكنها كانت لحظات سريعة جدًا)، ونظرت خلال ثوان (لكنها كانت متطاولة، لا أعرف إن تجاوزت الدقائق) لرأس لويسا عبر المرآة، وخمنت بأنها مصرّة على إبقاء عينيها مطبقتين عن فتحهما وجعلهما متأملتين، مما أفقدنى الانتباه للوقت أو الاهتمام الآنى (نظرت، ولم أسمع بعدما نظرت)، ربما استمر جييرمو ومريم صامتين، أو جعلا من هذه الوقفة نوعًا من تفاهم بلا كلمات، أو قد خفضا كثيرًا من صوتيهما الذى لم يعد همسًا خفيفًا، بل حفيفًا مهذبًا لا يُحزر من جانبى عند الجدار الآخر.

عدت للإنصات، وللحظات لم أستمع لشىء، لا يُسمع شىء البتة، حتى تساءلت إن كانا فى تلك اللحظة الحاسمة قد خرجا من الغرفة دون أن أخمن، ربما قررا الهدنة لينزلا ويأكلا شيئًا، من الممكن أن يكون موعدهما أساسًا كان لهذا الشأن وليس لتراه فى الأعلى. لم أستطع البعد عن التفكير بأن تفاهمهما بلا كلمات، كى أفسره، لابد أن يكون تفاهمًا جنسيًا، لأنه عندما تكون هناك اتهامات متبادلة، فالجنس أحيانًا يكون الحل الأكثر براعة، وربما يكونان واقفين أو فى منتصف الغرفة دون أن يخلعا ملابسهما، أو شكلاً شبيهًا بالذى كانت فيه، عندما صرخت فيه ولم أسمع غير

آخرها "أنت ابن عاهرة، جيبرمو"، قالتها وهى حافية. قدماها القويتان، فكرت، تستطيعان تحمل الوقوف طويلاً، أية وضعية كانت، دون أن ترتخيا أو تميلا ولا تبحثان عن مسند، تمامًا مثلما كانت تنتظر فى الشارع بقدمين مثبتتين كنصلين، الآن لا تهتم كثيرًا بطيات تنورتها المتمردة ولا حتى أنها ترتديها، فالتنورة فى هذه اللحظة مهملة وملقاة على الكرسى مثل الحقيبة.

لا علم لى بشىء، إذ لا يُسمع شىء ولا حتى تنفسهما، لهذا باحتراس تام، ولكنه فى الواقع لم يكن احتراسًا لأننى أعلم أن لويسا كانت مستيقظة وتتظاهر بالنوم، نهضت من على حافة الفراش ومنه حتى الشرفة. خيم الليل الآن، وأهل هافانا يتناولون عشاءهم فى هذه الساعة، الشوارع التى ألمحها من الفندق خالية تقريبًا، على الأقل أن مريم لم تعد تنتظر حتى الآن ومنسية من قبل الجميع.

القمر نابض والجو لا يوحى بنسمة هواء. نحن الآن فى جزيرة، فى أقصى جزء من العالم والذى أنتمى له بالربع؛ أما المكان الذى ضمنا جميعًا وعشنا فيه معًا، مدريد، حفل زفافنا، أصبح بعيدًا جدًا، كما لو أن هذا البعد المكانى الذى وحدنا، يساهم بانفصالنا أيضًا ولو قليلاً فى رحلة زفافنا هذه، أو ربما كان بسبب تباعدنا عن بعضنا لأننا لا نشترك بما يمكن أن نسميه سرًا وإن لم يكن، وبدون شك يتحول تدريجيًا إلى سر لأننا لا نتشارك به. القمر نابض وعلى حالته. ربما عن بعد يستطيع الواحد أن يتمنى ويتعجل الموت لشخص قريب منه، فكرت. ربما أن تعمله عن بعد، التخطيط له عن مسافة، يجعله شبيهًا بلعبة وخيال، وكل الخيالات مقبولة.

وهى ليست بأفعال من الممكن تجاوزها لأن لا عودة إلى الوراء بعدها، إذ يبقى الإخفاء فقط.

فجأة، من الشرفة، عبر الشرفة الآن وليس عبر الجدار، عبر شرفتهما التى بقيت مواربة، بينما شرفتنا لا تزال مفتوحة وأنا متكئ على سياجها، عدت لسماع صوت مريم بوضوح، ولكن هذه المرة لم تكن تتحدث وإنما تدندن، والذى أنشدته كان هذا:

- " أمى يا أمى، ين ين ين ... أكلتنى الحية، ين ين ين."

انقطعت الدندنة ما أن بدأت، وبدون تحول (ولا تغير أيضًا) قالت لجييرمو:

- "عليك أن تقتلها."

- "حسنًا، حسنًا، سأفعل، ولكن استمرى بمداعبتى". أجابها هو.

لكن هذا لم يخرجنى عن طورى ولم يقلقنى (لا أعلم إن كان كذلك مع لويسا)، لأنها قالته كأى أم فى حالة ضيق دون أن تفكر فيه، مجيبة على ابن لحوح يصر على أن الأمر محال. بل أكثر من هذا، عرفت عن طريق هذه الإجابة، بأن زوجة جييرمو الموجودة فى إسبانيا لن يلحقها ضرر من جانبه، وأن مريم ستكون الوحيدة المتضررة فى مثل ذلك الموقف أو الحكاية. علمت آنذاك وحسب بأن جييرمو يكذب (كاذب فى شىء ما)، وأفترض أن لويسا أيضًا، معتادة - مثلى - الترجمة ونقل الاضطراب وتمييز صراحة المتكلم، وأنها قد تيقنت وشعرت بالارتياح كذلك من أجل تلك المرأة المريضة، وليس من أجل مريم.

مريم فى تلك اللحظات لم تنتبه لتلفيقات جييرمو، أو أنها اطمأنت لترتاح لحظة، وأنه لن يعود ليخدعها أو ببساطة تامة التشبث بقدر حياتها للحظات فقط، لهذا عاودت الدندنة قليلاً، وأنا أعلم بغيرى بما تردد. مضى وقت أطول مما فكرت، لا يمكن أن يكون كذلك، لا يمكن أن يكون قد مر الوقت حتى يمكنهما المطارحة فى الفراش، مطارحة صامتة ومرتبة ولا تزال إلى الآن فى فورتها. ولكن لابد أن يكون هذا، لأن الاثنين كانا هادئين ومنطلقين، حتى أن مريم كانت ذاهلة، تغنى ذاهلة، تتخلل مقاطعاتها نفسها وكأنها فى الواقع تدندن دون أن تميز ما تفعله، بينما تمسح بمنديل أو تداعب من يرقد بجوارها (طفل ما تردد عليه دندنتها).

دندنتها كانت هكذا:

- "كذب كله يا عمتى، ين ين ين ... إذ إننا نلعب، ين ين ين ... بثمن أرضى، ين ين ين ".

هذه الكلمات أخرجتنى عن طورى، أكثر من كلمات الدندنة الأولى كما لو أنها عبرها تم التأكيد (أحيانًا نسمع بشكل مناسب ولكننا لا نضمن ما نسمعه) إذ شعرتُ برجفة باردة مثل تلك التى انتابت لويسا فى مرضها. أضافت مريم بنغمة حيادية إن لم يكن مغشيًا عليها، هذه المرة أيضًا دون تغير:

- "إن لم تقتلها سأقتل نفسى. ستكون فى عهدتك امرأة ميتة، إما هى أو أنا".

لم يجبها جييرمو هذه المرة، لكن تهيجى ورجفة البرد التى انتابتنى جعلتانى منشدًا ليس لكلمات مريم، بل لأغنيتها، لأننى أعرف هذه الأغنية منذ سنوات قبل هذه اللحظة عندما كانت

تدندن بها جدتى فى صغرى، أو من الأفضل أن أقول، إنها لم تكن تغنى لى، لأنها تحديدًا لم تكن أغنية للأطفال، بل فى الواقع شكلت حكاية أو قصة، ولم تكن للأطفال كذلك، إنما كانت تغنيها لى لأجل أن تخيفنى، ذلك الخوف غير المعهود والمطير للنوم. وهى على ذلك، أحيانًا، عندما تكون ضجرة فى كرسيها سواء فى بيتها أو بيتنا، تطوح بمروحتها وتراقب كيف يمضى المساء بينما هى فى انتظار مجىء أمى لتأخذنى أو لتقوم محلها برعايتى، كانت تدندن بأغنياتها دون أن تنتبه لذلك، كى تتسلى دون هدف من التسلية نفسها، كانت تدندن دون أن تلاحظ ما تفعله، بنفس الضجر وعدم الحماس الذى تمر به مريم وهى تدندن من خلف نافذة موصدة، وباللكنة ذاتها.

كانت تلك الدندنة غير الواعية والتى بلا وجهة معينة، غناء الخادمات نفسه وهن يمسحن الأرضية أو ينشرن الملابس بملاقط على الحبال، أو يمضين الوقت بتشغيل مكنسة الغبار أو تحريك ريش التنظيف فى أيام مرضى عندما لا أذهب إلى المدرسة، وأظل أراقب العالم من طرف مخدتى مستمعًا لهن بترويحاتهن الصباحية، المختلف تمامًا عن أوقات أخرى؛ نفس التهويمات بلا معنى التى تتم عن أمى عندما تمشط شعرها، أو عندما تغرز دبابيس الشعر أمام المرآة، أو تجمع كعكة الشعر، أو تعلق الحلق الطويل كى تمضى إلى قداس يوم الأحد، هذه الترنيمة الطفولية التى تخرج من بين الأسنان (كملاقط أو دبابيس بين الأسنان) والتى لا تُقال من أجل أن تُسمع، ولا تعبر عن شىء، ولا هى قابلة للترجمة، لكن أحدًا ما، الطفل الملتجئ إلى مخدته أو المتكئ على حافة باب غرفة ليست غرفته، يستمع ويتعلم ولا ينسى، حتى لو كانت هذه الترنيمة، بلا

إرادة ولا وجهة، تمضى بكل ثقلها ولا تصمت ولا تذوب بعد كل ما قيل، ذلك عندما يتبعها صمت الحياة الناضجة، أو ربما الأفضل أن نقول حياة الرجل.

هذه الترنيمة التى لا تعتقنى والطافية فى كل لحظة، ربما كانت تُغنى فى كل بيوت مدريد أثناء طفولتى، كل الصباحات على امتداد الأعوام الطوال، كما لو كانت رسالة بلا معنى تطوف المدينة بأكملها، تتعاشق بها وتضمخها كحجاب شفيف ورنان يعدى من يتغطى به، من الفسحة حتى الأبواب، أمام الشرفات وفى الممرات، فى المطابخ وفى غرف النوم، عند السلالم وأسطح البيوت، بمرايل الطبخ، المناديل والأحذية وبقمصان نوم أو بملابس ثمينة. كانت تغنيها كل نساء ذلك الوقت الذى لم يكن بعيدًا عن الآن، الخادمات مع إيقاظة الصباح والأمهات أو السيدات بعدهن بوقت متأخر، عندما يهيئن أنفسهن للتسوق أو لشأن طارئ، كلهن سواء متحدات بهذه الترنيمة وهذه الدندنة المرافقة أغلب الأحيان بصفير الشباب الذين لم يكونوا فى المدرسة وقتها، وكانوا حتى ذلك الحين يشاركون بما يحيطهم من عالم أنثوى: صبية المحلات بدراجاتهم المحملة ببضائع وصناديق ثقيلة لتوزيعها، الأطفال المرضى فى أسرتهم الممتلئة بالورق والملصقات والقصص، الأطفال العمال والأطفال المتعلكون يصفرون بالتتابع بفعل الغيرة.

هذه الترنيمة كانت تغنى بكل مناسبة يوميًا، بأصوات خلابة وأصوات حزينة، خارقة للعادة، ساقطة، أصوات سمراء وأصوات احتفالية وأصوات نشاز وأصوات شقراء، تحت طائلة الحالة المعنوية وفى أى ظرف دون أن تتأثر أبدًا بما يحدث فى البيوت ولا أن تكون

عرضة لنقد أحد: مثلما تدندن بها شابة بينما تنظر لكعكة مثلجة وهى تذوب فى بيت أجدادى، عندما لم يكونا بعد لأننى لم أكن قد ولدت بعد ولا أملك الفرصة لذلك؛ ومثلما يصفر بها فتى فى اليوم نفسه وفى البيت ذاته حالما يقترب من الحمّام الذى تختبئ فيه ربما امرأة كانت قد صفرت وهى مرتعبة ومبتلة بالدمع والماء قبل ذلك بقليل.

وهى الترنيمة التى تدندن بها الجدات والأرامل أيضًا والعوانس فى الأماسى بصوت مشروخ وحاد، جالسات فى مقاعدهن أو على الأرائك أو الكراسى وهن يراقبن ويتأملن أحفادهن، أو ينظرن بحسرة إلى صور أشخاص رحلوا أو لم يعرفوا التوقف فى وقته، متأوهات ويروحن عن أنفسهن بالمروحات، يروحن عن حياة كاملة حتى لو كانت فى الخريف أو الشتاء منها، يتأوهن ويترنمن ويتأملن كيف قد مضى الزمن الماضى.

وفى الليل، بشكل متقطع ومشتت، من الممكن أن يسمع النشيد فى حجرات النسوة المحظوظات، اللواتى حتى الآن لسن بجدات ولا أرامل ولسن بعوانس، ربما أكثر بقاء أو أكثر حلاوة أو أكثر انشراحًا، افتتاحية النعاس والتعبير عن التعب، وهو نفسه الذى سمحت لى مريم بسماعه من غرفتها فى فندق يشبه الفندق الذى أقيم فيه، فى ليل حار جدًا فى هافانا، خلال رحلة زفافنا أنا ولويسا، وبينما لويسا لا تغنى ولا تقول شيئًا، إنما تشد بوجهها على المخدة.

كانت جدتى تترنم بكل أغانى طفولتها، أغان كوبية وأغانى الخادمات الزنجيات اللواتى اعتنين بها حتى العاشرة من عمرها،

العمر الذى خرجت به من هافانا منتقلة إلى البلد الذى كانت هى وأبواها وإخوتها يعتقدون أنهم ينتمون إليه ولا يعرفونه سوى بالاسم، البلد البعيد هناك عبر البحر الأطلنطى. أغنيات أو قصص (الآن لا أتذكر أو لا أميز بينها) بشخصيات حيوانية بأسماء غريبة، البقرة بروم - بروم أو القرد تشيرين شين، حكايات حزينة أو إفريقية، لأن البقرة بروم- بروم، كما أتذكر، كانت محبوبة من العائلة، بقرة حلوب وصديقة، بقرة مثل أية قهرمانة أو مثل أية جدة، وذات يوم بلا شك، محاصرين بالجوع أو بالرغبة السيئة قرر أفراد العائلة أن يذبحوها ويطبخوها ويأكلوها، لهذا بشكل طبيعى، فالبقرة المسكينة بروم - بروم لم تسامح هؤلاء الأفراد القريبين جدًا، وفى اللحظة التى يتذوق أحدهم لقمة من لحمها المقطع والمعتق (كانت هناك تعبيرات من الألفاظ عن آكلى لحوم البشر)، هناك فى المكان نفسه، فى صالة الطعام، بدأ يتحرك من داخل معدتهم صوت يحفر ولا يكل أبدًا، ويكرر بطريقة لا هوادة فيها تحيله جدتى إلى ابتسامة مستشرية: "بقرة بروم - بروم، بقرة بروم بروم"، وهكذا بشكل دائم من داخل معدتهم. أما فى قصة القرد تشيرين شين، التى أعتقد بأننى نسيت تفاصيلها بمرور الأيام وبعواقب الحياة الكبيرة، لكننى أظن أن حظه لم يكن أفضل من غيره، وأنتهى لحمه مطهيًا فى مقلاة رجل أبيض فقدَ معرفته.

ذلك النشيد الذى ترنمت به مريم فى الغرفة المجاورة لم يكن له معنى عند لويسا، لذلك بناء على معرفتنا واعتقادنا بأن ما جرى وما كانت تنطق به عبر النافذة والآن عبر الجدار، هو شىء مختلف بالمرة عن سابقه. لأن جدتى اعتادت قص تلك الحكاية المختصرة والناقصة التى سمعتها عن خادماتها الزنجيات علىّ، وبرموزها

الإباحية الواضحة والتى لم أتخيلها بالطبع حتى اللحظة تلك وأنا أستمع لمريم، أو من الأفضل القول، حتى سماعى الترنيمة المأتمية الممتزجة بالقليل من الحس الكوميدى، الذى شكل جزءًا من الحكاية والتى كانت تقصها علىّ جدتى لإدخالى فى حالة رعب متلاش ومصبوغ بغلالة ضبابية (كانت تعلمنى الرعب والضحك من الرعب).

الحكاية تذكر أن شابة رائعة الحسن وفقيرة جدًا طلبها للزواج رجل أجنبى غنى جدًا ومحترم وصاحب جاه كبير، رجل أجنبى أقام فى هافانا، ذو أبهة ومشاريع طموحة. أم الفتاة، أرملة ومعتمدة تمامًا على ابنتها أو الأفضل على أحوال المتقدمين لخطبتها، وافقت بارتياح وقدمت ابنتها لذلك الأجنبى الذائع الصيت دون أن تشك ولو للحظة. لكن فى ليلة الزفاف، ومن شرفة حجرة المتزوجين حديثًا، الحجرة المطوقة بابها بالحرس، سمعت الأم ترنيمات ابنتها، مرة بعد أخرى طوال الليلة الطويلة، رغبتها بالنجدة: "أمى يا أمى، ين.. ين.. ين ... أفعى تبتلعنى، ين.. ين.. ين". النجدة المحتملة للأم ظلت بعيدة بسبب طمعها ولإجابة زوج ابنتها المتكررة، حيث كان يترنم مرة وأخرى من خلال باب الحجرة طوال الليل الطويل: "كذب كله يا عمتى، ين.. ين.. ين.. لأننا نلعب، ين.. ين.. ين، مراهنين على أرضى، ين.. ين.. ين". فى الصباح التالى، عندما قررت الأم الدخول إلى حجرة العروسين حاملة صينية الإفطار، ولترى وجهى العروسين، عثرت فى فراشهما على أفعى دموية منتفخة، بينما لم تجد أثرًا للرائعة المدهشة ابنتها، ذات الحظ السيئ.

أتذكر أن جدتى كانت تضحك وهى تحكى هذه الحكاية المميتة، التى ربما أضفت لها أنا تفاصيل مرعبة من خيالى الناضج الآن (لا

أتذكر أنها قد نوهت بشىء له علاقة بدماء ولا طول الليلة)؛ كانت تضحك قليلاً بابتسامة طفل وتحرك مروحتها (ربما كانت ابتسامة طفلة ذات عشرة أعوام، الابتسامة الكوبية المحتفظة بها حتى ذلك الوقت)، تشذب عن الحكاية أهميتها ولاعتقادها بأنه لا أهمية لكل ذلك لطفل فى العاشرة أو أقل، ولربما كان الخوف الذى تشيعه تلك الحكاية كان خوفًا أنثويًا، رعب بنات وأمهات وزوجات وعمات وجدات وخادمات، الرعب المنتمى لعالم ترنيماتهن الخالص طوال اليوم ونهاية الليل، فى مدريد أو فى هافانا أو فى أية بقعة أخرى، ترنيمة حيث يشارك الأطفال أيضًا وينسونه فيما بعد طالما يتركون الطفولة خلفهم. أنا نسيت كل ذلك، لكن ليس بالكامل، لأن الواحد منا ينساه حقًا عندما لا يستمر بتذكره وبعدما يُجبر على تذكره. لقد نسيت تلك الترنيمة خلال كل تلك الأعوام، لكن صوت مريم المشوش أو المهزوم لم يلح ولم يجهد نفسه من أجل أن تستعيد ذاكرتى الترنيمة خلال رحلة عرسنا أنا وزوجتى لويسا، حيث تنام فى الفراش مريضة، وتلك الليلة بقمرها الأخطبوطى، كانت تراقب العالم من طرف مخدتها، أو ربما كانت غير مستعدة لرؤيته.

عدت إلى جانبها وداعبت شعرها وجبينها، متعرقين مرة أخرى، وجهها متجه نحو الدولاب، وربما مطبوع بتجاعيد مزيفة من الشعر، جلست إلى يمينها ودخنت سيجارة، جذوة السيجارة تتوهج عبر المرآة، لم أشأ النظر لنفسى. كان لها تنفس شخص مستيقظ، فهمست بأذنها:

ـ غدًا تصبحين بخير يا حبيبتى. نامى الآن.

دخنت للحظة وأنا فوق الشرشف، دون أن أسمع شيئًا من الغرفة الملاصقة لغرفتنا: غناء مريم كان الآن تهويمة النعاس والتعب. المناخ لا يُطاق، لم أتناول طعام العشاء بعد، لست نعسانًا، غير متعب، لم أدندن بأغنية ولم أطفئ المصباح بعد. لويسا مستيقظة ولكن لا تكلمنى، ولا حتى أجابتنى عن جملتى بأنها ستكون بخير، كما لو أنها قد غضبت منى بسبب ما قاله جييرمو، فكرت، أو ما قالته مريم، ولا تريد أن تعلنه، الأفضل الانتظار حتى يغشانا النعاس الذي لا يقرب جهتنا. بدا لى أن جييرمو قد أغلق نافذة الشرفة، لكننى لم أنظر لشرفتنا ولم أتحرك لأطل منها وأتأكد. نفضت رماد السيجارة بتهديف خاطئ وبنفضة قوية فسقط عقب السيجارة فوق الشرشف، وقبل أن أحمله بأصابعى لأرمى به فى المنفضة ليستهلك نفسه وينطفئ، رأيت كيف بدأ يحفر ثقبًا متوهجًا فى الشرشف. أعتقد أننى تركته يكبر بلا حد، لأننى كنت أراقبه لبضع ثوان كيف تكبر دائرته، ولطخة سوداء ومتوهجة فى الآن نفسه تأكل الشرشف.

تعرفت على لويسا قبل عام واحد تقريبًا من امتهانى لعملى، كان تعارفًا هزليًا واحتفاليًا بشكل ما. مثلما قلت، كلانا تخصص فى أن يكون مترجمًا أو ترجمانًا(*) (من أجل كسب المال)، لعلى أنا أكثر منها مواظبة فى هذه المسألة، لا أريد بهذا أن أقول بأننى أكثر تهافتًا، لأنها قبل ذلك كانت على العكس فى حرصها على ذلك، أو على الأقل هذا ما بدا فى فرصة تعارفنا الأولى، أو ما حكمت منه بأنها أكثر إخلاصًا.

كان من حسن حظنا أننا لم نقتصر بعملنا على تقديم جهدنا فى حلقات أو غرف التنظيمات الدولية. على الرغم من أن هذا يمنح ارتياحا قل نظيره لأنه فى واقع الحال يكون العمل فى نصف عام فقط (شهرين فى لندن أو جنيف أو روما أو نيويورك أو فيينا أو أيضًا فى بروكسل، ثم شهرين من الراحة فى البيت، لنعود مرة

(*) يستخدم الكاتب معنيين لحالة واحدة، لا فرق بينهما فى لغتنا العربية. ولأهميتها فى النص ننبه لها، إذ استخدمنا بدورنا للتفريق بينهما التالى: «ترجمان» لكلمة إشارة interpreter وهى إشارة لمترجم النصوص و«مترجم» لكلمةtraductor للمترجم الفورى بين اثنين أو أكثر من واحد، كما فى المؤتمرات.

أخرى مرتين أو أقل إلى المدن نفسها أو إلى بروكسل نفسها)، إن مهنة المترجم أو ما يسمى محرر النصوص والخطب من أكثر المهن إضجارًا، سواء فى محتواها المتطابق وفى عمقها المحدود. وهى دون استثناء لدى جميعهم، برلمانيين، محامين، وزراء، رؤساء حكومات، ممثلى الشعب، سفراء، خبراء ومندوبين عامين لمختلف شعوب العالم، بسبب المصير المشترك لخطبهم غير المتغيرة، نداءاتهم، احتجاجاتهم، خطبهم الفارغة وتقاريرهم.

من لم يمتهن هذا العمل سيظن أنه عمل ممتع أو على الأقل مهم ومتنوع، بل وأكثر من ذلك، سيعتقد أنه موجود وسط حقل قرارات العالم وأنه أول من يطلع على التقرير الكامل السرى، تقرير عن كل مظاهر حياة شعوب العالم المختلفة، معلومات سياسية ومدنية، عن الزراعة، والتسلح، والثروة الحيوانية والكنسية، الحالة العامة واللغوية، العسكرية والأولمبية، البوليسية والسياحية، الكيميائية والدعائية، الإباحية والتليفزيونية والذكورية، الرياضية والمصرفية وعالم العجلات، الهيدروليكية والجيوسياسية والبيئية والتراثية.

هذا صحيح، فعلى مدى حياتى المهنية ترجمت خطبًا ونصوصًا بحظ وافر لأشخاص فى شئون معتبرة جدًا (فى بداية عملى خرجت عن فمى آخر كلمات المطران مكاريوس، لأجل ذكر مثال لا على سبيل الحصر)، وكنت على مقدرة لإعادة قولها بلغتى، أو بلغة أخرى من التى أفهم وأتحدث، جمل طوال عن مواضيع مدهشة مثل طرق الرى فى سومطرة أو عن الشعوب المنسية فى ساوزيلاند أو يوركين (قبل ذلك كانت تسمى بوركينا فاسو، عاصمة أوغادوغو)،

والتى تمضى بشكل سيئ كما فى مناطق أخرى؛ أعدت صياغة حجج معقدة حول التعايش أو الإهانة بتعليم الأطفال جنسيًا بلهجة أهل البندقية؛ حول فائدة الاستمرار فى تمويل صناعة الأسلحة القاتلة والمكلفة فى مصنع آرمسكور فى جنوب أفريقيا، وهى التى نظريًا لا يستطيعون تصديرها؛ حول إمكانية تشييد نسخة من الكرملين فى بروندى أو مالاوى، على ما أعتقد (عواصمها بوجومبورا وزومبا)؛ حول الحاجة لاقتطاع مملكة لباتته الكلية عن شبه جزيرتنا (بضمنها مدينة مورثية) لتحويلها إلى جزيرة كى نتجنب الأمطار المدارية والفيضانات على مدى السنين، والتى تهدد الخزينة؛ حول المرمر الردىء فى بارما، حول توسع مرض الإيدز فى جزر تريستان ديكونا، حول الإنجازات الكروية فى الإمارات العربية، حول انخفاض معنويات القوات البحرية البلغارية وحول المنع الغريب لدفن الموتى، جثثهم الشائطة المتكومة فى العراء، والذى حدث قبل أعوام فى لوندندرى والذى انتهى أن يقبل من قبل قاض تابع للعمدة.

كل هذا وأكثر كنت قد ترجمته ونقلته إلى لغات أخرى وأعدته بطريقة كهنوتية تبعًا لما قاله آخرون، خبراء وعلماء ولامعون وعلامة من كل الطرق ومن أكثر البلدان بعدًا، أناس متفردون، أناس غرائبيون، أناس مؤمنون وأناس متحفظون، أصحاب نوبل وأساتذة فى أوكسفورد وهارفارد بعثوا بتقارير حول معضلات خطيرة طلبتها منهم حكوماتهم أو ممثلو الحكومات والناطقون باسم هؤلاء المندوبين أو معاونيهم.

الواقع أن الشىء الوحيد الناشط فى هذه المؤسسات هو الترجمة، بل أكثر من ذلك، إن بها حمى حقيقية منتقلة، ناشطة

نوعًا ما، هادئة حينًا آخر، وهو أن أى كلمة ينطقونها (فى جلسة أو مؤتمر) أو أى خاطر ينم عنهم، أيًا كانت أهميته، وهو موجه فى البدء إلى من يكون هدفًا له (حتى لو كان سريًا) سيترجم حالاً إلى لغات مختلفة. نحن المترجمون أو الوسطاء نترجم وننقل بصورة متتابعة، دون إجحاف ولا حتى فرصة للراحة خلال ساعات عملنا الدورية، حتى أنه فى أكثر الحالات لا يعرف لمن يترجم ذلك، ولا من أجل من يتم النقل، أكثر الحالات تكون من أجل الأرشفة فى حالة النصوص، ولأجل أربعة قطط(*) لا يفهمون بالطبع اللغة الثانية التى نترجم عنها، هذا فى حالة الخطب. أية حماقة تند عن أحمق ترسل مباشرة إلى واحدة من هذه التنظيمات مترجمة بلحظتها إلى ست لغات رسمية: الإنكليزية، الفرنسية، الإسبانية، الروسية، الصينية والعربية. كل شىء بالفرنسى وكله بالعربى، كل شىء بالصينى وكله بالروسى، كل همسة عن أية لحظة طارئة، وكل ما ينطقه أى أحمق. ربما لا يُستفاد بشىء منها، ولكن كلها تترجم.

الأكثر من ذلك أنهم طلبوا منى فى إحدى المناسبات أن أترجم فواتير، بينما الشىء الوحيد الذى كان يُفعل بها هو دفعها. هذه الفواتير، وأنا متأكد من ذلك، ستحفظ حتى وقت طويل فى أرشيف خاص، بالفرنسية والصينية، بالإسبانية والعربية، بالإنكليزية والروسية، بأقل الاحتمالات. إحدى المرات طلبونى من الصالة بشكل عاجل لكى أترجم خطابًا (غير مكتوب) سيلقيه أحد الحكام، وحسب ما أتذكر قرأت عنه أربع مقالات صحفية منذ يومين

(*) مثل شعبى إسبانى يطلق تعبيرًا عن قلة المطلعين على هذه الموضوعات وتعبيرًا عن عدم أهمية هذا العمل.

تشير إلى موته فى بلده الأصلى إثر عملية انقلاب انتهت بنجاح بإسقاطه.

أشد التوترات تحدث فى هذه الملتقيات الدولية ليس لها صلة بالمناقشات الحادة بين ممثلى دول على هامش إعلان حرب، إنما وتسبب ما لا وجود لمن يترجم أو أن يحدث نقص فى المترجمين لأسباب صحية أو عصبية، والذى كثيرًا ما يحدث باستمرار. على المترجم أن يعمل بأعصاب باردة، على الأقل لصعوبة قنص وترجمة ما يحلق من أقوال (صعوبة بالغة)، وللضغط الذى يجبرنا عليه الحكام والخبراء، لأنهم يفقدون أعصابهم أغلب الأحيان بصورة هوجاء دون أن يدركوا بأن ما قالوه قد انتقل مترجمًا إلى واحدة من اللغات الست الخارقة. يراقبوننا بصورة دائمة، تمامًا مثل مسئولينا لحظتها (كلهم موظفون حكوميون) كى يتأكدوا من تواجدنا فى محلاتنا لترجمة كل شىء، دون إغفال كلمة واحدة، إلى اللغات الأخرى التى لا يعرفها أحدهم.

الحماسة الحقيقية الوحيدة لدى ممثلى الدول هى أن يكونوا مُتَرجمين إلى لغات أخرى، ليس لأن خطبهم وتقاريرهم كانت صائبة أو قوبلت بالتصفيق، ولا لأن نتائجها أخذت بعين الاعتبار أو طُبقت، وهو ما لا يحدث عادة (لا قبول ولا تصفيق ولا الأخذ بعين الاعتبار ولا أى تأثير).

فى اجتماع لدول الكومنولث أقيم فى أديمبرج، وهو عادة ما يحضره ممثلون ناطقون بالإنكليزية، اعتبر المندوب الأسترالى، وهو شخص يدعى فلاكسمان، خلو الكابينات من المترجمين إهانة لا تغتفر، وأن أيًا من زملائه لا يحمل على أذنيه سماعة ليستمع له عن

طريقها، بل عن طريق سلك مستقيم من الميكروفون حتى مقاعدهم المريحة - إهانة له كذلك. أصر على أن تترجم كلماته، وعندما ذكروا أنه لا حاجة لذلك، استمر عابسًا، مستاءً وبدأ بتشغيل لهجته الأسترالية السيئة حتى اللحظة التى لم يعد يفهمه أعضاء الدول الأخرى، بل ومن أبناء بلده، وابتدأوا الاحتجاج بأنهم ضحايا لحملهم على الاستماع عن طريق سماعة على آذانهم لأن أحدًا يقول ما لا يُفهم. وليتأكدوا من أن حملهم السماعات لن يخرج عن نطاق التقليد (دون أقل صوت، واضح أو غامض)، خفتت احتجاجاتهم، مما أتاح لـ فلاكسمان الانتقال شخصيًا إلى واحدة من هذه الكابينات وأن يترجم نفسه بنفسه. كان طبيعيًا أن تتجول ما بين الممرات، لكن على وجه السرعة أحضروا مترجمًا أستراليًا ليحتل الكابينة، وبدأ النطق بالإنكليزية الطبيعية ناقلاً ما يقوله ابن بلده ، كان لاريكن (Larrikin) حقيقيا من أجل أن نطلق عليه نعتًا معينًا كما نحته بنفسه، كان يخترق الصالة بلكنته العصية، لكنة حوّارى وموانئ ملبورن أو آدليدا أو سيدنى. هذا الشخص، فلاكسمان، مندوب بلده، عندما لمح بأن مترجمًا يحتل الكابينة خفف من لهجته وهدأ فى الحال وعاد لطبيعته دون أن ينتبه زملاؤه له، لأنه كان قد قرر الاستماع لخطبته بصورة غير مباشرة عن طريق سماعات ترن فيها كلماته بغرابة شديدة ولكن بأهمية أكبر. حدث بهذه الصورة، مثل اعتياد حمى الترجمة التى تجرى وتسيطر على المحافل الدولية، ترجمة من الإنكليزية إلى الإنكليزية، وعلى ما يبدو ليس بالكامل، لأن المندوب الأسترالى المتمرد بدأ لغطه بسرعة ملحوظة لكى يجرب قدرة المترجم الأسترالى المستجد على نقل كلامه بالسرعة القصوى دون أن ينسى شيئًا.

شىء غريب أن فى داخل كل مشارك فى المؤتمرات ثقة بأن يستمع لما يأتى عبر السماعات، أى عن طريق المترجم، من أن يستمع مباشرة للذى يتحدث، حتى لو يفهم أحدهم لغة الآخر التى يتوجه بها إليه. وهو أمر مدهش لأنه فى الواقع لا أحد يستطيع معرفة إذا ما كان المترجم من كابينته المعزولة ينقل بصورة صائبة أو خاطئة، ولا داعى للقول بأنه فى كثير من المناسبات، لا أحد منهم قد شك بما يتم ترجمته، سواء بلا معرفة، جهل، عدم انتباه، فكرة سيئة أو لمجرد تجشؤ المترجم. هذا هو التوبيخ الذى يناله المترجم من قبل الترجمان (أعنى ناقل النصوص): فبينما فواتير وتفاهات أولئك تتحول فى غرفهم المعتمة إلى نصوص لا تفهم وأخطاؤها من الممكن ضبطها، قد يتم توجيه اللوم لهم أو من الممكن أن يغرموا بسببها، أما الكلمات التى نطلقها دون تبصر من الكبائن عبر الهواء، فلا يسيطر عليها أحد.

يكره المترجم الترجمان والترجمان يكره المترجم (كما أن مترجم النصوص يكره المترجم الفورى، والفورى معروف بكرهه لمترجم النصوص)، وأنا لأننى مارست الاثنين (اليوم أنا مترجم فقط، وهذا ما له منافع عديدة، رغم أنه منهك ويضر الذهن) أعرف تمامًا الشعور الناتج عنهما. المترجمون يشعرون بأنهم أنصاف آلهة أو مشهورون لأنهم على مرأى من الحكام والمندوبين والمسئولين، وبأن هؤلاء جميعًا يعتمدون عليهم، أو من الأفضل القول يعتمدون على حضورهم ومؤهلهم. على أية حال لا يمكن القبول أبدًا بأنهم متوزعون فى أقطاب العالم، ذلك أن عليهم الظهور بمظهر لائق ومكتمل دائمًا، فليس من المستغرب رؤيتهم عبر الزجاج

وهم يطلون شفاههم بالأحمر، وهم يمتشطون، وهم يحكمون ربطات عنقهم، وهم يقلعون شعرات بملقاط، وهم يخلصون بدلاتهم مما يعلق بها من خيوط، وهم يشذبون سوالفهم أيضًا (كل ذلك وهم يمسكون مرآة بيدهم دائمًا). كل هذا يخلق انزعاجًا وحقدًا لدى مترجمى النصوص، المختفين فى مكاتبهم المشتركة، قذرون، وهذا أكيد، لكن بحس مسئولية يجعلهم جادين بشكل تام ومنافسين لأولئك المترجمين فى كبائنهم الفردية النظيفة، تلك الكبائن بزجاجها الشفاف، المعزولة عن كل صوت والمعطرة حسب المناسبة (وما أوفرها).

الكل يقلل من عمل الآخر والكل يبغض الآخر، ولكننا متساوون بأننا لا نعلم شيئًا عن تلك الشئون الآسرة التى يمر بها الآخرون والتى ذكرت بعض أمثلتها. لقد أعدت صياغة هذه الخطب أو النصوص التى تحدثت عنها سابقًا، ولكنى بالكاد أتذكر كلمة واحدة مما قالوا؛ ليس لأن الوقت قد مضى وللذاكرة قدرتها المحدودة على حفظ المعلومات، بل لأنه فى لحظة الترجمة نفسها لا أتذكر شيئًا، أى أننى لا يدخلنى شىء مما كانوا يقولونه بالتتابع، أو ما يمكن الاعتقاد بانطباعه، على الشاشة. هى أو هو يتحدثان وأنا أقول ما قالاه أو أكرره، لكن بصورة آلية لا شأن لها بالنباهة، أو على الأكثر بتنازع معها: فقط عندما لا يفهم أحد بالمرة ما يسمعه فمن الممكن أن يعود لقوله بقليل أو كثير من الصحة (على الأغلب إذا كان ما يستقبله يطرحه بدون توقف)، والشىء نفسه يحدث مع كتابات من هذا النوع، كتابات غير ثقافية، والتى لا تحتمل تصحيحًا ولا تأملاً ولا إعادة.

وهكذا فكل هذه المعلومات القيمة التى يعتقد أحد ما بأننا نمتلكها - نحن المترجمين وناقلى النصوص - فى المنظمات الدولية، فإننا فى الواقع نفقدها كليًا، من البداية حتى الختام ومن فوق إلى تحت، لا نعرف كلمة مما يُلفق ويُصنع ويُطبخ فى العالم، بلا أدنى فكرة. وعلى الرغم من أننا أحيانًا فى أوقات استراحتنا، نظل نستمع لأصحاب السمو ولا نترجم لهم، فمصطلحاتهم الدالة التى يستخدمونها جميعا تبدو غير مفهومة لكل أولئك الذين يحيون بعقل سليم، إلى درجة أنه لو نجحنا فى قنص بعض الجمل فى مناسبة لا يمكن تفسيرها، فإننا فى الواقع سنجهد آنذاك لتناسيها والتخلص منها فى وقت قصير، ذلك أن الاحتفاظ بهذه الرطانة البربرية فى الرأس لبعض الوقت وتحويلها إلى لغة أخرى أو رطانة ثانية سيكون بمثابة عاصفة طافحة ومؤذية جدًا على توازننا المضطرب.

أتساءل فى أحيان كثيرة فيما لو يعرف أحد شيئًا عما يدور فى هذه التجمعات، خاصة فى الاجتماعات تامة السرية. هنا أعترف بأن المسئولين يتفاهمون بينهم جيدًا عبر رطانتهم المتوحشة، حيث يصيغ المترجمون حسب أهوائهم محتوى خطبهم، دون أى فرصة لمراقبة حقيقية، ولا لوقت عملى لتصحيح معين أو تكذيب لمعلومة. الطريقة الوحيدة لمراقبتنا ستكون بتنصيب مترجم ثان مستعد لشحذ مسامعه ونقل ما يستمع عبر السماعة، مترجمًا ما نقوله إلى اللغة الأولى وعرضه على شاشة، ليتأكد فعليًا بأن ما ننقله هو ما يُقال فى الصالة فى تلك اللحظات. ولكن على أية حال سنكون بحاجة لمترجم ثالث مدجج بأجهزته هو كذلك، والذى بدوره سيكون مُراقبًا ومُترجمًا لما يقوله الثانى، وربما سنحتاج لرابع

لمراقبة الثالث، وهكذا، فما أخشاه حتى لا نهاية، مترجمون يراقبون آخرين والآخرون يراقبون المترجمين، الحضور يراقبون المندوبين ومدونون يراقبون المشغلين، المترجمون يراقبون الحكام والمراقبون يراقبون المترجمين. كل واحد يراقب الآخر ولن يكون هناك من يستمع ولا من ينقل شيئًا، وعلى زمن طويل، سيتم إلغاء الجلسات والمؤتمرات والندوات والإغلاق بصورة دائمة للمنظمات الدولية.

لهذا من الأفضل المخاطرة واحتواء ما يحدث (وهى عادة خطيرة) من سوء فهم (المتواصلة أحيانًا) لا راد له مما يحدث بسبب تردد المترجمين، هذا مع العلم أنه ليس من المعتاد أن نطلق مزحًا مقصودة (لأننا نجازف حينها بمكانتنا)، على الرغم من أننا لا نقاوم زلة تمرير أخبار زائفة بين حين وآخر. لذا لم يبق سواء لدى مندوبى الدول أو لرؤساء عملنا من أن يثقوا بنا، ومثلهم أصحاب معالى دول مختلفة عندما يطلبون خدماتنا خارج المؤتمرات، فى تلك اللقاءات التى يطلقون عليها "قمم"، أو فى الزيارات الرسمية التى يقومون بها فى أراض صديقة، أو عدوة أو حيادية.

حسنا، ولكن فى الواقع أنه فى اللقاءات ذات المستوى العالى، والتى ينتظر منها اتفاقيات تجارية، محاضر عدم اعتداء، التحشيد ضد دولة ثالثة، إعلانات حرب أو نزاعات مسلحة، تجرى أحيانًا مراقبة كبيرة على المترجم بواسطة شخص ثان، بالطبع لا يقوم بترجمة ثانية (لأنها ستكون لخبطة)، لكنه سيستمع بانتباه مراقبًا لما يقوله الأول، مؤكدًا بدوره إن كان ما يترجمه دقيقًا أم لا. وهكذا كان عندما تعرفت بـ لويسا، والتى كانت لسبب ما أكثر جدية، مخلصة ومتوافقة مع عملها أكثر منى، وكانوا أن اختاروها مترجمة مراقبة

لى (مترجمون أمنيون، كنا نسميهم، أو مترجم ـ شبكة، والتى كنا نختصرها إلى مجرد لقب قبيح هو "هذا الشبكة" أو "هذه الشبكة") لتصويب أو عدم إجازة ما أقوله أثناء لقاءات شخصية ذات مستوى عالٍ جرت فى بلدنا منذ سنتين بين ممثلين عن حكومتنا وآخرين من بريطانيا العظمى.

هذه التدقيقات لم يكن لها معنى، لأنه فى الواقع متى ما كانت اللقاءات بين أصحاب مستويات عليا، كان الحوار بينهما لا أهمية حقيقية له، وسيكون أى خطأ من جانبنا فى الترجمة أثره ضئيلاً لا يكاد يذكر. أفترض أنهم يمنحون هذه التحفظات أهمية لحفظ ماء الوجه، ولكى يرى هؤلاء الأفراد المتظاهرون بالوقار فى صور الصحافة ولقطات التليفزيون يجلسون بصورة غير مريحة فى كراسيهم بين الزعيمين، الذين بدورهم اعتادوا الجلوس على العكس من المترجمين فى مقاعد أو أرائك سينمائية واسعة، بينما المترجمان جالسان فى كرسييهما القاسيين ممسكان فى أيديهما بورق لتدوين ملاحظات، مما يشيع مظهرًا باردًا عن اللقاء بين المشاهدين ومتمعنى الصور.

فى مثل هذه الزيارات من الشائع أن يرافق أصحاب المعالى حشد هائل من التقنيين والخبراء والعلماء والمختصين (الذين هم بلا شك من يكتب الخطب التى يلقيها الرؤساء ونحن بدورنا نترجمها)، وهم لا مرئيون للصحافة، بينما بلا شك سيلتقون خلف الكواليس بزملائهم الضيوف، من خبراء ومختصى الدولة الأخرى. هم من يعرف بالوقائع، من يناقش ويقرر ومن يحرر الاتفاقيات الثنائية ويقرر نقاط التعاون، هم من يتشاجرون سرًا أو علنًا،

يفضون النزاعات ويمارسون الضغوط الثنائية، ويستغلون أقصى طاقاتهم لكسب أكبر فائدة لبلدانهم (من المعتاد أن يتكلموا لغات ويقتصروا على القليل من الخدمة لدرجة أننا لسنا بذوى فائدة عندهم).

أما أصحاب المقامات العالية، فعلى العكس منهم، ليس لديهم أدنى معرفة بالذى يدور حولهم، أو يدركون ما يدور عندما ينتهى كل شىء. ببساطة يبدون باسمين فى الصور وفى تسلم المهام، يحتفلون بعشاء فوق العادة أو حفل راقص ويوقعون على الوثائق التى يمررها لهم معاونوهم بعد انتهاء الزيارة. ما يناوبون على قوله بينهم، على الأغلب، لا أهمية له، والمخجل فى الأمر أنهم عادة ليس لديهم ما يقولونه. وهذا ما نعرف به نحن المترجمين حق المعرفة، إذ نكون شهودًا دائمين على هذه اللقاءات الخاصة لثلاثة أسباب: أصحاب المقامات الرفيعة عامة لا يعرفون لغة أخرى، غيابنا عنهم سيجعلهم يشعرون بأن ما يطرحونه من ثرثرات لم يمر بالشكل المطلوب، وإذا ما حصل نزاع ما سنكون سبب هذا الخلل.

فى تلك المناسبة كان المسئول الإسبانى رجلاً بينما المسئول البريطانى امرأة، وسيكون من المستحسن عندئذ أن يكون المترجم ذكرًا بينما المراقب الثانى أو "الشبكة" أنثى، لخلق فضاء متجانس ومتوازن جنسيًا. جلست فى المنتصف بين الاثنين متحملاً عذاب الكرسى، وجلست لويسا على كرسيها المميت على يسارى، يعنى بينى وبين المسئول المرأة، ولكنها كانت فى وضع متروك، كأية شخصية مراقبة ومهددة بينما تتجسس علىّ من خلف ظهرى حيث لا أراها بصورة جيدة من زاوية عينى اليسرى (أرى بصورة تامة

ساقيها الطويلتين المتقاطعتين، وحذاءيها الجديدين ماركة برادا، الحق أن الماركة كانت الأكثر قربًا منى). لا أنكر أننى دققت بها كثيرًا (وهذا يحدث بلا إرادة) عند دخولى إلى الصالة الخاصة (ذوق شىء) عندما تم تقديمى لهما وقبل أن أجلس، بينما المصورون يلتقطون الصور وصاحبا المقام الرفيع يتظاهران بأنهما يتحدثان لبعضهما البعض أمام كاميرات التليفزيون: يتظاهران، لأن مسئولنا الكبير لا يعرف ولا كلمة إنكليزية واحدة (حسنًا، لقد تجرأ بقول Good Luck فى لحظة المغادرة)، ولا المسئولة البريطانية الكبيرة تعرف من الإسبانية شيئًا (لكنها قالت لى"Bueno dias" وهى تمد لى يدها ببرود). بشكل أن أحدهم يردد بالإسبانية أشياء مبهمة أمام مصورين وكاميرات لا تسجل حوارًا، دون أن يترك النظر لزائره بينما تعلو وجهه ابتسامة عريضة، كما لو أنه يهيئ لسماع جيد (لكن بالنسبة لى كانت كلمات مبهمة: أتذكر أنه كان يردد "واحد، اثنان، ثلاثة وأربعة، ما أحلى ما سنمضيه بعد برهة) والأخرى تلف على لسانها بلا معنى محدد، مغطية عليها بابتسامتها cheese,cheese (*) تردد، كما ينصح عادة فى العالم الأنجلوساكسونى أن تقول وأنت تصور، ومن ثم أشياء شبيهة بمحاكاة لأصوات طبيعة غير قابلة للترجمة مثل:

"Tweedletweedle, biddlebiddle, twit and fiddle, tweedle twang ").

أنا من جانبى، أعترف أننى ابتسمت كثيرًا لـ لويسا بغير إرادتى خلال فترة التقديم مما لم يكن له ضرورة بالمرة (أعادت لى نصف

(*) معناها جبن جبن، وهى عادة متبعة مع التصوير لإثارة انتباه الشخص أو لكى يبدو متهيئًا للصورة. فى العادة الإسبانية القول عند التصوير كلمة: بطاطا.

ابتسامات محددة، لأنها فى البدء والختام كانت هناك لمراقبتى)، وعندما انتهت المقدمات وجلسنا، لم يكن هناك بد من استمرارى بالنظر لها وتبسمى، وذلك للوضع المزرى لكرسيينا القاتلين واللذين نوهت بهما سابقًا. لقول الحق، أن تدخلنا تأخر لحظات قبل أن نشرع بعملنا، وذلك بعد أن غادرنا الصحافيون بإشارة متفق عليها لانصرافهم ("هذا يكفى" قالها مسئولنا الكبير رافعًا يده، يد الإصبع المزين بخاتم)، وأحد الحجاب أو الحرس أغلق الباب من خلفهم، وبقينا أربعتنا وحدنا مهيئين للمحاورة الرفيعة، أنا برزمة الورق ولويسا برزمة ورقها على ركبتيها، ولكن حدث صمت مطبق غير مريح مما لم نحسب له حسابًا.

كانت مهمتى حساسة وآذاني متنبهة للكلمات الأولى التى تمنحنى نبرة الترجمة فى الحال. نظرت إلى مسئولنا وراقبت مسئولتهم وعدت للنظر لمسئولنا. أما هى فكانت تتمعن فى أظافرها بتعبير غائم وكذلك أصابعها الدهنية بمسافة مناسبة. أما هو فقد حشر كفه فى جيوب جاكيتته وبنطلونه، ولكن ليس بحركة من يبحث عن شىء ولا يستطيع أن يعثر عليه، إنما من يقصد فعل ذلك من أجل كسب أطول وقت ممكن (مثلاً البطاقة التى يطلبها مفتش القطار من شخص لا يحملها). كان لدى شعور من يجلس على كرسى طبيب الأسنان، وللحظة خشيت أن يمضى مسئولنا للحصول على مجلات ويوزعها علينا. تشجعت وأدرت رأسى ناحية لويسا بحركة حاجبين متسائلين وأعادت لى جوابها بإشارة من يدها (إشارة غير مهذبة) تطلب منى الصبر. أخيرًا سحب صاحب المقام الرفيع الإسبانى من جيبه الذى خشخش عشر مرات، مستخرجًا علبة من الحديد (شيئًا ما غريبًا) وسأل زميلته:

ـ هل يزعجك أن أدخن ؟

وشرعت أترجم ما قاله.

Do you mind if I smoke, Madam?

ـ كلا، إذا ما طرحت الدخان إلى أعلى، أيها السيد. أجابت المسئولة البريطانية دون أن تترك النظر لأظافرها، ساحبة تنورتها إلى أسفل، وأنا ترجمت ما انتهت لقوله.

صاحب المقام الرفيع أشعل سيجارًا (له حجم وشكل سيجارة، لكن له لون أشقر غامق، لهذا أقول إنه سيجار)، سحب نفسين وطرح الدخان إلى أعلى السقف، والذى حسب ما أرى، سقف ملطخ بالبقع. عاد الصمت ليتوج الجلسة، ولوقت قصير نهض من كرسيه، اقترب من منضدة صغيرة تضم زجاجات قليلة، أعد كأس ويسكى بالثلج (استغربت أن لم يخدمهم قبل ذلك أى نادل أو مدير صالة)، وسألها:

ـ حضرتك لا تشربين، أليس كذلك؟

ترجمت ما قاله، مضيفًا من جديد كلمة "سيدة" إلى نهاية السؤال.

ـ ليس فى هذا الوقت، أرجو ألا يزعجك عدم مشاركتى لك الشراب، أيها السيد.

وأنزلت السيدة البريطانية تنورتها قليلاً، التنورة المطوطة أصلاً.

لقد بدأت أنزعج من التوقفات الطويلة والحوار القصير ذاك أو الأفضل أن أقول تبادل جمل منفصلة. فى مناسبة سابقة وقد

عملت مترجمًا بين رؤساء، كان لدى الشعور بأنه لا غنى لهم عن معرفتى باللغات التى أتحدثها. ليس لأنهم قالوا أشياء كبيرة (كانت بين إسبانى وإيطالى)، لكننى كنت أمام اختبارات لغوية ومضامين غامضة لم يكن من السهل ترجمتها من قبل أى أحد آخر، بينما العكس مما يجرى الآن: كل ما قيل يتناوله فهم أى طفل.

عاد مسئولنا للجلوس حاملاً كأس الويسكى بيد والسيجار بيده الأخرى، شرب وتنفس بارتياح، ترك الكأس ونظر لساعته، مسد الأطراف المكرمشة فى جاكيتته جراء ثقل جسده نفسه، وعاد للتفتيش من جديد فى جيوب جاكيتته، وطرح دخانًا أكثر، ابتسم الآن بلا رغبة (ابتسمت السيدة البريطانية بدورها برغبة أقل، وشحطت جبهتها بأظافرها الطويلة التى كانت تنظر لها فى البداية، تشرب الهواء للحظات بغبار الماكياج)، حينذاك فهمت بأنه بإمكانه أن يمضى الثلاثين أو الخمس وأربعين دقيقة المتوقعة فى غرفة المدعى العام أو المحقق، مختصرًا الوقت بالانتظار ليعود المنظم أو الحاجب ليفتح الباب، مثلما عليه المراقب الجامعى وهو يعلن بحماس: "لقد أزفت الساعة" أو أن تصيح الممرضة ببشاعة: "التالى".

أدرت رأسى من جديد ناحية لويسا، هذه المرة لأقول لها شيئًا مغرضًا (أعتقد أننى كنت أريد أن أقول لها "يا لهذا الدور" من بين أسنانى)، لكننى وجدتها تبتسم، ترفع سبابتها حتى شفتيها وتمنحهما ضربات خفيفة، مشيرة لى أن أصمت. علمت أننى لن أنسى أبدًا هاتين الشفتين المبتسمتين المشطورتين بسبابة لم تستطع إلغاء الابتسامة. أعتقد أنه كان آنذاك (أو بعده) عندما فكرت أنه

من المفيد التعامل مع تلك الفتاة الأكثر شبابًا منى، والتى ترتدى حذاءً متميزًا جدًا. أعتقد أنه كان بسبب تشكيلة الشفتين أيضًا والسبابة (الشفتين المنفلقتين والسبابة التى تطوقهما، الشفتين المنحنيتين والسبابة الصارمة التى تقطعهما) هو ما منحنى الشجاعة ألا أكون منضبطًا بترجمة السؤال التالى، الذى أطلق أخيرًا، بعد أن أخرج من جيبه سلسلة مفاتيح مليئة بالمفاتيح شرع باللعب بها بطريقة غير لائقة، السؤال الذى مرره صاحب مقامنا الرفيع:

ـ هل ترغبين أن أطلب لك شايًا؟

أما أنا فلم أترجم ما قال، أعنى ما ترجمته بالإنكليزية على لسانه لم يكن سؤاله المهذب (عمليًا كان كذلك وإن جاء متأخرًا، ولكن يجب الإقرار بذلك)، بل كان شيئًا آخر:

ـ أخبرينى، هل هناك من يحبك فى بلدك؟

لمحت رعب لويسا من خلفى، بل أكثر من ذلك، لمحتها تنزل فى الحال ساقًا عن الأخرى (الساقان الطويلتان اللتان على مستوى نظرى، مثلما كان عليه الحذاءان الجديدان والغاليان ماركة برادا، والتى صرفت عليهما المال الكثير أو أن تكون قد استعارتهما من صديقة)، وخلال ثوان معدودة لكن بطيئة (شعرت برقبتى مخترقة بالرعب) انتظرت تدخلها والإشهار بى، تصحيحها للموقف، أو على الأقل أن تقوم بالدور بنفسها حالاً، وظيفتها كـ "شبكة"، ولهذا هى هنا. لكن هذه الثوانى مضت (ثانية، اثنتان، ثلاث حتى أربع) ولم تقل شيئًا، ربما (فكرت حينها) بأن السيدة الإنجليزية لم يظهر عليها بأنها أهينت وأجابت دون إبطاء، بل وأكثر من ذلك، بنغمة حازمة:

ـ فى أحيان كثيرة أسأل نفسى عن ذلك- أجابت وللمرة الأولى قاطعت ساقيها دون احتراس لتنورتها، وهى تترك عرضة للنظر ركبتين بيضاوين ومربعتين ـ يصوتون للواحد منا، أليس كذلك، ولأكثر من مرة. تصل منتخبًا من قبلهم ولأكثر من مرة. دون شك، وهذا شىء غريب، الواحد منا لا يملك ذلك الإحساس بأنهم يريدونه من أجل هذا.

ترجمت ما قالته تمامًا، وإن كان فى النص الإنجليزى تختفى صيغة "نفسى" من الجملة الأولى، ولكن كل شىء أصبح بنظر مسئولنا رد فعل بريطانى غامض، وإن شاء التفكير فقد مضى لإرضاء رغبتها بهذا النوع من الحديث، لأنه رفع نظره إلى السيدة بمفاجأة عابرة وبلطف فائض، فأجابها بينما أصابعه تلعب تصادمًا بالمفاتيح بطريقة فرحة:

ـ هذا صحيح. الأصوات لا تمنحنا أى أمان، حتى وإن توصلنا لأعلى مرتبة بالانتفاع منها. تمعنى لما أريد أن أقوله لك، أعتقد بأن أى دكتاتور أو رئيس لم يصوت له أو ينتخب ديمقراطيًا، فإنه محبوب جدًا فى بلده. وهم أيضًا مكروهون بالطبع، لكنهم كل يوم محبوبون أكثر من شعوبهم، وهو حب فى تزايد مطرد.

اعتبرت تعليقه الأخير ".. فى تزايد مطرد" نوعًا من المبالغة إن لم يكن خاطئًا، لذا ترجمت كل ما قاله بشكل تام، ما عدا جملته الأخيرة (أغفلت عنها وفى الأخير حذفتها)، وانتظرت من جديد تصرف لويسا. عادت لمقاطعة ساقيها بسرعة (ساقيها الذهبيتين الممتلئتين)، لكن تلك كانت إشارة تحذيرها لمهمتى. ربما، هذا ما فكرت به، ولكننى مع ذلك كنت باستشعار نظرتها الثاقبة فى رقبتى،

نظرتها الذاهلة أو ربما نظرتها الساخطة. لم أستطع إدارة رأسى لرؤيتها، كان سيبدو فعلاً قبيحًا.

السيدة بدت متشجعة:

- آه هذا ما أعتقده أيضًا - قالت - الناس تحب على الأغلب لأنها مجبرة على ذلك. هذا يحدث فى العلاقات الشخصية أيضًا، أليس كذلك؟ كم من الأزواج ليسوا أزواجًا لأن واحدًا منهم، واحدًا فقط، أصر على أن يكونا معًا وأجبر الآخر على حبه؟

- أجبر أم أقنع - سأل مسئولنا الرفيع المستوى، ورأيته ملتذًا بإشارته هذه، لذا مضيت فى ترجمة ما عبر عنه حرفيًا. كان يرج مفاتيحه التى لا تُعد محدثًا ضجيجًا لا يطاق، رجل عصبى، لم يدعنى أسمع بصورة جيدة، المترجم يحتاج إلى الهدوء حتى يكمل عمله.

نظرت السيدة إلى أظافرها الطويلة والمعتنى بها، الآن بدلال واضح أكثر منه باعتداد وعدم تأكد مثلما كانت عليه قبل ذلك، متظاهرة بالاستغراب. سحبت تنورتها بلا جدوى، لأن ساقيها ما زالتا متقاطعتين حتى الآن.

- أليس هو الشىء ذاته، ألا تعتقد ذلك؟ فقط هناك اختلاف فى الترتيب التاريخى، من هو الأول؟ من يأتى قبل الآخر؟، لماذا يتحول الأول إلى الآخر والآخر إلى الأول بصورة دائمة؟ كل ذلك له علاقة بـ faits accomplis كما يقول الفرنسيون. إذا ما نظمت بلدًا ليحب رئيسه، سينتهى بالتصديق بحبه له، وأحيانًا بشكل أكثر سهولة من مسألة الأمر. أما نحن فلا نستطيع أن نأمرهم، هذه هى المعضلة.

شككت أيضًا بتعليقها الأخير هذا، بأنه غير مقبول لسمع مسئولنا الديمقراطى، ولبضع ثوان من التشاغل والنظر إلى هاتين الساقين اللتين تراقباننى، قررت حذف "هذه هى المعضلة". الساقان لم تتحركا، وفى الحال اتضح لى أن تصويبى الديمقراطى لم يكن فى محله، لأن الإسبانى أجاب بضربة مفاتيح ضاجة على المنضدة المنخفضة:

ـ هذه هى المعضلة، هذه هى مشكلتنا أننا لا نستطيع أمرهم إطلاقًا. لتنظرى حضرتك، أنا لا أستطيع أن أفعل ما فعله ديكتاتورنا، فرانكو، آمر الناس بالتجمع فى ساحة الشرق (هنا كنت مجبرًا على ترجمتها "فى ساحة كبرى"، لأننى حسبت أن ترجمتى لكلمة "الشرق" ستوقع السيدة الإنجليزية فى الارتباك) لأجل أن يبايعوننا رئيسًا، أعنى أننا جزء من حكومة فقط، أليس هذا صحيحًا؟ هو يعملها دون تفكير بالعاقبة، لأى سبب معين، وكان يقول بأن الناس ستمضى مجبرة. هذا صحيح، ولكنهم يملأون الساحة أيضًا، هناك صور ووثائق لا تخدع، فى معظمها لا يحضرون مجبرين، خاصة فى الأعوام الأخيرة، عندما لم تعد الأمور شديدة المحاسبة أو كان وقعها فقط على موظفى الدولة بشكل غرامة أو طرد. أناس كثيرون كانوا مقتنعين بحبهم له، لماذا؟ لأنهم أجبروا على ذلك وخلال عقود طويلة. الحب هو التعود.

ـ آه يا عزيزى ـ صاحت رفيعة المقام ـ لا تعرف كم أفهمك، لا تعرف كم سأدفع أنا من أجل تجمع بهذا الشكل. هذه المظاهرة لشعب موحد كما لو يحضر حفلاً يقام وحسب فى بلدى لشىء واحد للأسف الشديد، من أجل الاحتجاج. كم هو محبط أن

تسمعهم يشتمونك دون أن ينصتوا لك ولا أن يقرءوا القوانين، يتعرضون للحكومة بأكملها، كما قلت حضرتك، بلافتاتهم التهجمية، شيء محبط تمامًا.

ـ مع شعارات. يصنعون شعارات ـ احتد رئيسنا الأعلى. لهذا لم أترجم ما قاله لأنه لم يبد لى مهمًا ولم أتحصل على وقت لذلك؛ لأن السيدة الإنجليزية استمرت بتألمها دون أن تعير كلامه انتباهًا:

ـ هذا لأنهم لا يستطيعون مطالبتنا بشيء؟ أتساءل: ألم نفعل شيئًا صائبًا فى مدة رئاستنا؟ أنا يطالبنى فقط أعضاء حزبى، وبالطبع لا أستطيع أن أثق فى صراحتهم عن كل شيء. نتعاضد فقط فى الحروب، ولا أعلم إن كنت تعرف، فقط عندما نضع البلد فى حالة حرب، حينذاك..

توقفت السيدة البريطانية مفكرة، بكلمات عاطلة على الشفتين، كما لو كانت تتذكر هتافات الماضى التى لن تعود. عدّلت ساقيها من جديد بقوة وانتباه وشدت طرف التنورة بحزم، والتى بما يشبه معجزة استطاعت أن تحصل منها ما يقرب إصبعين. ابتدأت منزعجًا من دوران المحاورة على هذه الصورة بسبب منى. يا للسماء، فكرت (كنت أرغب بتوصيله لـ لويسا)، هؤلاء الزعماء الديمقراطيون يملكون حنينًا دكتاتوريًا، فأى حصول بالنسبة لهم أو أى إجماع سيكون دائمًا تحقيقًا شاحبًا عن الرغبة القمعية الحميمة فيهم، رغبة الإجماع الكلى وأن يكون العالم كله باتفاق معهم، ومتى ما اقترب هذا التحقق الجزئى إلى كلية مستحيلة، شعورهم بالنشوة سيكون عاليًا، وإن لم يكن كافيًا؛ تمجيد التناقض، لكن فى الواقع سيكون بالنسبة لهم مثل لعنة وكلام ممل. ترجمت ما يجب ترجمته

من قول السيدة عدا ما ذكرته فى النهاية عن الحرب (لم أرغب أن تطرأ أفكار أخرى لمسئولنا)، وبدلاً منها وضعت على لسانها الرجاء التالى:

ـ عذرًا، هل من الممكن أن تترك هذه المفاتيح؟ الضوضاء فى الآونة الأخيرة تؤثر بى كثيرًا، سأكون ممتنة لك.

ساقا لويسا بقيتا على حالهما، وفى اللحظة التى قدم مسئولنا اعتذاره خجلاً بعض الشىء، ثم معيدًا حامل مفاتيحه الثقيل إلى جيب سترته (لابد أن تكون مثقبة من الثقل!)، تجرأت على خيانته مجددًا، وقلت على لسانه:

ـ آه بالطبع، لو عملنا شيئًا جيدًا لن يخرج واحد منهم فى تظاهرة لنتأكد أن ما فعلناه قد أعجبه فعلاً.

أما أنا، وعلى العكس، قررت أن أجر الحديث إلى منطقة شخصية جدًا وكذلك أكثر أهمية، وجعلته يسأل بإنجليزية عادية:

ـ لو أستطيع أن أسألك إن لم تكن جرأة منى، حضرتك، فى حياتك العاطفية، هل أجبرت أحدهم على حبك؟

أدركت فورًا أن السؤال كان جريئًا أكثر من المعتاد، خصوصًا مع امرأة إنجليزية، وكنت متيقنًا من أن لويسا لن تترك الأشياء معلقة كسابقاتها وستشغل شبكتها هذه المرة، بل ستشهر بى وتطردنى من الغرفة، سينطلق صراخها فى السماء كما يجب؛ إلى هذا الحد سيكون مصير هذه المهزلة المزيفة، وأن هذا ليس لعبًا. رأيت مصير مهنتى فى الهاوية. راقبت بانتباه وخشية ساقيها اللامعتين الطليقتين من حصار تنورتها، كما أن هذه المرة سيكون لها الفرصة

والوقت الكافى للتدخل، لأن السيدة الإنجليزية قد توقفت وقتًا كافيًا لتفكر بما طرح عليها من تساؤل. راقبت مسئولنا بفمه المفتوح وتعبير الاستحسان على محياه (حبر قلم الشفاه يجتاح بوضوح فجوات أسنانه)، وهو أمام هذا الصمت الجديد الذى لم يعلم له سببًا ولا يفهم مغزاه، أخرج سيجارًا آخر وأوقده بعقب سيجاره السابق، محدثًا (هذا ما أعتقده) تأثيرًا نشازًا. لكن ساقى لويسا المقدستين لم تتحركا، أستمرا بتقاطعهما ولو بتوازن هذه المرة: رأيت وحسب أنها قد غرقت بكرسيها المهين أكثر، كما لو أنها تحبس تنفسها، خائفة من الإجابة المحتملة التى لا علاج لها لو خرجت طائشة؛ أو ربما، فكرت، بأنها مهتمة أيضًا بمعرفة ذلك ما دام السؤال قد قيل وانتهى. لم تش بى، لم تكذبنى، لم تتدخل بعملى، وظلت صامتة، وفكرت بأنها ما دامت قد سمحت لى بهذا فإنها ستسمح لى بكل شىء طوال حياتى القادمة، أو فى نصف حياتى التى لم أعشها بعد.

ـ همممم. همممم. أكثر من مرة. أكثر من مرة، صدقنى. ـ قالت السيدة الإنجليزية أخيرًا، كان هناك تردد سببه النشوة فى صوتها الخشن، نشوة ضاغطة كان من العسير السيطرة عليها بهذا الوضع، صوت قاهر يتلعثم فجأة- فى الحقيقة أتساءل إن كان أحبنى أحدهم مرة دون أن أجبره على ذلك، من ضمنهم الأبناء، حسنا، الأولاد أكثر إجبارًا من غيرهم. هذا ما حدث لى دائمًا، لكننى دائمًا ما تساءلت إن كان هناك فى العالم من لم يحدث له الشىء نفسه. انظر، أنا لا أصدق هذه الحكايات التى تحكى فى التليفزيون عن أشخاص يلتقون ويحبون بعضهم دون أى تعقيد،

أشخاص أحرار ومتفرغون لذلك، لا أحد منهم له شكوكه أو ندمه المسبق. أنا لا أعتقد بهذا أبدًا، إطلاقًا، ولا بين أكثرهم شبابًا. أية علاقة بين شخصين عبارة عن تراكم مشاكل، نزاعات خانقة وإهانات دائمة. كل العالم يجبر كل العالم، ليس من أجل عمل ما لا يرغب به، إنما ما لا يعرف إذا كان يريده حقًا، لأنه لا أحد يعرف ما لا يريد تقريبًا، بل وأكثر من ذلك ما يريده، ولا وجود لصيغة لمعرفة الحالة الأخيرة هذه. إذا لم يجبر أحدنا علىْ شيء سيتوقف العالم، سيبدو كل شيء طافيًا بخديعة تامة ومستمرة، بصورة تامة. الناس ترغب فى النوم فحسب، الإحباطات المسبقة تقيدنا، تصور ما يأتى بعد هذه الأفعال غير المحققة إلى الآن، سيكون مرعبًا، لهذا فإن وجودنا نحن الزعماء لا غنى عنه، نتخذ القرارات لآخرين لن يتخذوها بأنفسهم أبدًا، مشلولون بشكوكهم ولنقص فى إرادتهم. نحن نسمع خوفهم. " النُوَّم والموتى، ليسوا سوى صور"، قالها كاتبنا شكسبير، وأنا أَحيانًا أفكر فى أن جميع الناس ليسوا سوى هذا، مثل صُور، نُوَّم الآن وموتى فى المستقبل. لهذا يصوتون لنا ويدفعون لنا، لأجل أن نوقظهم، لأجل أن نذكرهم بأن ساعتهم التى ستصل لم تحن بعد، ودون شك سنعمل من أجلهم حتى ذلك الحين. لكن بالطبع يجب علينا أن نعمله بشكل يعتقدون فيه بأنهم يختارونه بأنفسهم، مثلما عليه الأزواج وهم يرتبطون معتقدين بأنهم قد اختاروا ذلك عن وعى. ليس لأن أحدهم قد أجبره الآخر، أو معتقدًا بذلك إذا كان يفضل هذا التعبير؛ لأنه بدون شك كلاهما كان كذلك بلحظة أو بأخرى طوال الفترة حتى ارتباطهما. ألا تراه هكذا؟ وبعد ذلك البقاء معًا خلال وقت محدد أو حتى الموت. أحيانًا يجبره طارئ خارجى، أو أن يكون أحدهما قد خرج من حياة الآخر،

سيجبرهما الماضى، أو الضجر، حكاياتهما المشتركة، مشوارهما التعس، أو حتى أشياء يجهلونها أو لا تكون بمتناولهما، جزء من ميراثنا الذى نحمله كلنا ونجهله، ولا أحد يعلم متى يبتدئ هذا المسير..

بينما كنت ماضيًا فى ترجمة الانطباع المطول للمسئولة رفيعة المستوى (اقتطعت بترجمتى الـ"هممم.. هممم" وابتدأت بـ "أتساءل إن كان أحدهم.." لأجعل الحوار بينهما أكثر تماسكًا)، كانت السيدة تتكلم وتتوقف لتنظر إلى الأرض بابتسامة متواضعة غائبة، ربما خجلة قليلاً، اليدان مستندتان على فخذيها، تفترشاهما، مثلما تترك عادة النساء بأعمار معينة، النساء الكسولات، وهن يراقبن مرور المساء، على الرغم من أنها لم تكن واحدة منهن طالما كان الوقت صباحًا. وبينما أترجم ذلك الخطاب بطريقة حرفية نوعًا ما، تساءلت من أين أتى استشهادها بمقطع شكسبير هذا (The sleep-ing, and the dead, are but as pictures) النُوم والموتى ليسوا سوى صور كما ذكرت، وشككت فيما لو كانت الترجمة "متناومين" أو "رسوم" فى اللحظة التى سمعتها تنطق من بينها شفتيها المحمرتين، وتساءلت كذلك بأن منطقها المسهب بشكل مطول لأجل أن يفهمه زعيمنا كاملاً ولا يضيع منه حرفًا، ولكى يخلق عنه إجابة محترمة، شعرت برأس لويسا يقترب منى بشكل كبير، عند رقبتى، كما لو مطت رقبتها أو انحنت قليلاً لتسمع كلتا الترجمتين بصورة أفضل غير عابئة بالمسافة، هذا هو، المسافة القصيرة التى تفصلها عنى، الآن، بحركتها إلى الأمام (مقدمة الوجه: الأنف، العينان والفم؛ الذقن، الجبهة والوجنتين) تقلصت المسافة، إلى درجة شعرت بها

وبتنفسها البطيء يخترق أذني اليسرى، نفسها الرائق المتوثب أو المتعجل مضى ممسدًا أذني، طبلة الأذن، كما لو كان همسًا يتحول لرسالة أو مغزى، كما لو كان التنفس فقط وفعل الهمس قابلين للانتقال، وربما الاهتزاز الرقيق للصدر الذى لم يمسنى ولكنى لاحظت قربه الشديد، مرتفع تقريبًا ومجهول. إنه صدر شخص آخر يدعمنا، نشعر فحسب بأننا مدعومون عندما يكون خلفنا أحد ما، كلمتها نفسها تؤكد هذا، بالخلف، بالإنجليزية أيضًا "to back" ذلك الأحد الذى بالكاد نراه ويحمى لنا الظهر بصدر على وشك أن يصدمنا وينتهى بالتصادم بنا دائمًا، أحيانًا هذا الشخص يمد يده حتى الكتف ويهدئنا وليمسك بنا أيضًا. هكذا ينام أو يعتقد بأنه ينام الأغلبية من المتزوجين والمرتبطين، كل واحد يعود للوجهة نفسها عندما يتوادعان، بطريقة أن أحدهما يمنح ظهره للآخر الليلة بطولها، وحالما يفزع أحدهما بسبب كابوس أو عصيان النوم عليه، لإصابته بالحمى أو اعتقاده بأنه وحيد ومهمل فى الظلام، فما عليه سوى أن يستدير وسيرى حينها أمامه الوجه الذى يحميه، وسيدعه يقبله فى مواضع اللثم (الأنف، العينان والفم؛ الذقن، الجبهة والخدين، وهى كل الوجه)، أو ربما، نصف نائم، سيمد اليد حتى الكتف لتهدئته، أو لمسكه، أو ربما ليتشبث بها.

أعرف الآن بأن الاستشهاد بشكسبير جاء من ماكبث، وقد خرج من فم زوجته، لوقت قصير من عودة ماكبث بعد قتله الملك دونكان بينما كان نائمًا. جملة من ضمن مشاهد متتالية، أو لنقل جملاً منفصلة، أضافتها ليدى ماكبث لأجل تخفيف الوطء عما فعله زوجها أو ما انتهى من عمله والذى لا مهرب منه، وبين أشياء أخرى قالت له ألا يجهد نفسه بالتفكير أبعد من ذلك "so brain-sickly of things" عبارة صعبة الترجمة، لأن كلمة "Brain" معناها "ذهن" وكلمة "sickly" تعنى "واهن" أو "مريض"، على الرغم من أنه هنا بمثابة ظرف؛ وهكذا حرفيًا تقول له ألا يجهد نفسه بالتفكير بالأشياء بذهن مريض أو بوهن فى الذهن، لا أعرف كيفية ترديدها جيدًا بلغتى، كنت محظوظًا أنها لم تكن الكلمات التى ذكرتها السيدة الإنجليزية فى تلك المناسبة.

الآن أنا على علم بأن الاستشهاد يأتى من ماكبث، الذى لم أستطع تجنب (أو ربما تذكر) بأنه فى الخلف منا يغوينا، كذلك يهمس فى أسماعنا حتى دون أن نراه، اللسان سلاحه وآلته، اللسان مثل قطرة مطر تسقط من أفريز السطح بعد العاصفة، دائمًا فى

نفس نقطة التربة التى تمضى متداخلة معها حتى تخترقها وتخرق فيها ثقبًا، بل ومجرى، ليس مثل قطرة الصنبور التى تختفى فى المجارى دون أن تترك أثرًا فى الحوض، ولا هى قطرة دم تتلاشى فى التو بأى شىء فى اليد، قطعة قماش، شاش، أو منشفة وأغلب الأحيان بالماء، أو باليد، نفس اليد وحسب النازفة دمها إذا ما ظلت نشطة بعد، وليست تلك اليد المجروحة نفسها، اليد تنطوى على المعدة أو الصدر لسد الثقب.

اللسان فى الأذن هو أيضًا مثل القبلة تقنع أكثر ذاك الشخص الذى يعبر عن رغبة بتقبيله، أحيانًا لا تكون العينان، لا الأصابع ولا الشفاه التى تنتصر أمام المقاومة، إنما اللسان وحسب الذى يقتحم ويجرد، الذى يهمس ويقبل، الذى يجبر تقريبًا. الاستماع أخطر الأفعال، للعلم، أى تكون على المحك وتكون فى الموقف، يمتلئ السمع بأجفان من المحتمل أن تغلق على ما نطق بشكل نهائى، لا تستطيع الاحتفاظ بما يُظن أنه سيسمع، لأنه فى النهاية إدراك متأخر.

ليس ليدى ماكبث وحدها من كانت تحرض ماكبث، بل كل ما جمعته لحظة القتل، منذ اللحظة التالية للقتل، كانت قد سمعت من شفتى زوجها: "I have done the deed" حال عودته "لقد قمت بالفعل" أو " اقترفت الفعل"، على الرغم من أن كلمة "deed" تُفهم اليوم بمثابة "مأثرة". هى تسمع اعتراف هذا الفعل أو الحدث أو المأثرة، وما يجعل منها شريكة حقيقية ليس تحريضها له، ولا تجهيزها للمنصة من قبل ولا مشاركتها فيما بعد، ولا مشاهدتها الجثة الطازجة ومكان الجريمة لتشير إلى الخدم كمذنبين، بل بسبب معرفتها بالحدث وبإتمامه لفعله. لهذا أرادت التنبيه

لأهميته، ربما ليس لتهدئة ماكبث الخائف بيديه الملطختين بالدم ، للتقليل أو إرباك صنيعه، ما فعلته هى نفسها: "النوم والموتى ليسوا سوى صور"؛ "ستضعف قواك النبيلة إذا فكرت بالأشياء بذهن واهن"؛ "ليس عليك أن تفكر بتلك الأفعال بهذه الطريقة: لأنها ستجعلنا مجانين"؛ "لا تقع صريع أفكارك". هذه الجملة الأخيرة قالتها بعد أن خرج مصممًا على فعلته، وعاد ليلطخ وجوه الخدم بدماء الميت ("إذا ما انتصر..") ليلصق التهمة بهم: "يداى من لونك"، تعلنها لـ ماكبث؛ "لكن يخجلنى حملى لقلب ناصع البياض"، كما لو تحاول نقل العدوى له بسبب من إهماله، على العكس من لو أنها تتلطخ بدم دونكان المُراق، ما لم ترد هى بـ "البياض" قصدها "ناصع الشحوب ومرتعب" أو "متخاذل". هى تعلم، هى مدركة وهذا خطؤها، لكنها لم تقترف الجريمة حتى وإن تأسفت لذلك كثيرًا وتأكيدها لأسفها. تلطيخ اليدين بدم الميت يبدو كلعبة، كما لو أنه تظاهر مريب، اقتران زائف بالقاتل، لأنه لا يمكن القتل لمرتين، وها هو الفعل قد وقع: "I have done the deed" ولا مجال للشك من يكون هذا الـ "أنا": على الرغم من أن ليدى ماكبث قد عادت لزرع الخنجر فى صدر دونكان القتيل، ليس لهذا قد شاركت بقتله أو ارتبطت به، ذاك لأن الفعل قد حدث . "قليل من الماء ينظفنا" (أو ربما "سيحاول تنظيفنا") "من هذا الفعل"، تقولها لـ ماكبث والذى بالنسبة لها حقيقة نوعًا ما، حقيقة بالحرف الواحد. تتشابه به، وتحاول أن يتشابه بها أيضًا، لقلبها الناصع البياض: ليس سدى مشاركتها ذنبه فى هذه اللحظة بينما تتجنب أن يشاركها براءتها التى لا علاجَ لها، جبنها. الإغواء ليس سوى كلمات، كلمات متنقلة بلا صاحب تنتقل من صوت لآخر ومن لسان لآخر ومن عصر لآخر،

الكلمات نفسها، الكلمات المحرضة للأحداث نفسها منذ أن كان فى العالم أحد لا يعلم عنها شيئًا لو شاء أن يراها مقترفة، الأحداث كلها اعتباطية، الأحداث لا تعتمد على ما فى الكلمات عندما تحين لحظتها فعلاً، لأنها ستحذفها وتبقى معزولة عن لحظة البعد والقبل، تبقى وحيدة وغير قابلة للإعادة، بينما هناك إعادة واستدراك، رجوع واستدراك للكلمات، من الممكن أن تكون مكذوبة ونتراجع عن قولنا، من الممكن أن يكون هناك تشويه ونسيان. فقط يكون مذنبًا من يستمع إليها، وهو ما لا يمكن تفاديه، على الرغم من أن القانون لا يبرئ من تحدث بها أو من يتحدث بها، ولأن هذا فى الواقع يدرك بأنه لم يفعل شيئًا، حتى لو أجبر الآخر على سماعه بلسانه، بصدره حتى الظهر، بتنفس مهتز، بيد على الكتف والهمس السائب الذى يقنعنا.

كانت لويسا البادئة بوضع يدها على كتفى، لكن أعتقد بأننى كنت من بدأ بإجبارها (أجبرتها على حبى)، على الرغم من أن هذه العملية ليست أحادية الجانب ومن المحال أن تكون منتظمة، وتأثيرها يعتمد بشكل أفضل على أن يأخذ البديل المبادرة على جرعات من طرف المُجبَر. أعتقد أننى ابتدأت، ودون شك، حتى عام واحد، حتى زواجنا على أقل تقدير ورحلة زفافنا، كنت أنا من وضع ما وافقت عليه هى كليًا: الاعتياد على أن نرى بعضنا، الخروج للعشاء، الذهاب إلى السينما معًا، مرافقتها حتى باب المنزل، أن نقبّل بعضنا، وتغيير مواعيد عملنا لكى نتصادف معًا لعدة أسابيع فى الخارج، بقاؤنا للنوم فى بيتها لليلة معينة (هذا عارضته، ولكنها اعتادته بعد التقبيل والأحضان المفتوحة)، البحث عن بيت جديد لنا فى وقت تال مناسب بعد زواجنا. أعتقد أننى أنا من اقترح فكرة زواجنا، حتمًا بسبب عمرى الأكبر، أو ربما بسبب أننى لم أجريه سابقًا، طلب الزواج دون ذكره، وهذا الأخير كان لمرة واحدة وبفم مضطرب وأمام آخر فرصة ممكنة. قبلت لويسا بذلك، بالتأكيد دون أن تعلم إن كانت راغبة أم لا، أو ربما (قدرها) تعلم بذلك دون حتى أن تفكر به، أى أن تفعله وحسب.

منذ أن تزوجنا أصبحت رؤيتنا لبعضنا قليلة، كما يُقال بأنه يحدث عادة، ولكن فى وضعنا لم يكن بسبب الاعتياد كحالة عامة وما يرافقه كمحصلة نهائية، وإنما لأسباب خارجية طارئة، عدم توافق مواعيد عملنا: لم تعد لويسا تهتم بالسفر وقضاء ثمانية أسابيع فى الخارج، وأنا على العكس، كنت مضطرًا للعمل، بل وإطالة الإقامة لنستطيع تغطية مصروفات بيتنا الجديد المؤثث حديثًا. خلال عام واحد تقريبًا، عام زواجنا نفسه، حرصنا على أن نرى بعضنا ما أمكننا ذلك، هى فى مدريد عندما أكون فى مدريد، هى فى لندن عندما أكون فى جنيف، بل وأيضًا لمرتين كنا فى الوقت نفسه فى بروكسيل.

خلال عام تقريبًا، وعلى عكس رغبتى، كنت بعيدًا عنها لزمن طويل وهو ما لم أرغب فيه، حتى أننى لم أعتد بعد علىَ تفاصيل حياتى الزوجية، لا مشاركة المخدة نفسها ولا البيت الجديد الذى لم يكن لأحد منا سابقًا، بينما كانت هى فى مدريد بشكل دائم، ترتب البيت وتشكل علاقات حميمة مع عائلتى، بالأخص مع رانز، أبى.

كل مرة أعود فيها من السفر خلال هذه الفترة، أجدنى أمام قطعة أثاث أو ستائر أو لوحة جديدة، إلى درجة أنى بدأت أشعر بأننى غريب وعلىّ منذ الآن الاعتياد على التشكيلة المنزلية الحالية أكثر من السابقة التى كنت قد بدأت بالاعتياد عليها (هذه المرة هناك مرتبة عثمانية حيث لا وجود لبيت عثمانى، مثلاً). لاحظت كذلك بعض التغييرات على لويسا، تغييرات طفيفة تؤثر على أشياء ثانوية والتى بلا شك أنتبه لها أكثر من غيرها، تركها لشعرها يطول مثلاً، حملها لواقيات لكفوفها، كتافيات فى الجاكيتات، خط شفاه مختلف، بل حتى طريقة المشى مغايرة دون أن تستبدل نوعية

أحذيتها. لا شيء يسترعى الانتباه، ولكنه موح بعد ثمانية أسابيع من الغياب تليها ثمانية أخرى. لقول الصدق شعرت بانزعاج لهذه التغيرات، ودون الإلحاح فيها، لأننى لم أكن شاهدًا عليها (ألا أراها بعد زيارتها للكوافير، ألا أطرح رأيى بمسألة الكفوف) مما يجعل تأثيرى المحتمل حولها ضعيفًا وبالتالى عن تفاصيلنا الزوجية، والذى يؤثر بلا شك فى الأشخاص أو يجعلهم مؤرقين، مما يتطلب مراقبة متأنية لنقطة ابتدائها.

كانت لويسا تمضى فى تغيير طبيعى، بدءًا من التفاصيل كما هو حاصل مع النساء دائمًا اللاتى يخضعن لعملية تحول عميقة، لكننى بدأت أشك فيما إذا كنت أنا نفسى، أو أنا المتزوج الآن، من يقود عملية التحول، أو على الأقل من يسيرها. لم يعجبنى أيضًا بيتنا الجديد، إمكانياته متعددة بشكل لا يحصى، يتكرر بين مكان وآخر ذوق لا يمت بصلة لذوق لويسا ولا لذوقى، على الرغم من أننى قد تعودته وورثته من جانب آخر. البيت الجديد تحول بشىء وآخر إلى ما اعتدته فى طفولتى، أى أسترجعه عن طريق رانز، أبى، الذى على ما يبدو أعطى إرشاداته خلال زياراته المتكررة أو لحضوره وحسب خلق هذه الاحتياجات، بسبب غيابى المستمر عن البيت، ولحاسة لويسا المتوافقة مما جعل الأمر يمضى تامًا.

طاولة عملى التى تركتها فارغة سوى تفاصيل هامشية، كانت هذه المرة وكأنها نسخة عما كانت عليه قبل ٢٥ عامًا عندما طلب أبى من أحد النجارين فى مدينة سقوبية صنعها وفق إرشادات دقيقة، المعروف باسم فونفرياس، الذى تعرفت عليه فى الطريق ذات صيف: منضدة عملاقة، كبيرة جدًا قياسًا لعملى، بهيئة حرف U مستطيلة ومحشوة بالأدراج التى لم أملأها ولم أعرف طريقة

لملئها. أما المكتبة التى أردت أن تكون مطلية بالأبيض (هذا مع اعترافى بأننى لم أخبر أحدًا)، فحال عودتى من إحدى السفرات، كانت بلون يميل إلى لون الحناء، ولم يكن هذا كل شىء: أبى رانز، تحمل مشقة تفريغ الصناديق وتنظيم الكتب كما يرغب كما لو كانت كتبه، مقسمة حسب اللغات وليس حسب المادة، وداخل كل ذلك، بنظام تأريخى للمؤلفين حسب عام ولادتهم. أما هدية عرسنا فقد منحنا بعض المال (ما يكفى، كان كريمًا)، لكن فى وقت قصير، وكنت غائبًا، أهدانا لوحتين ثمينتين كانتا فى بيته دائمًا (لوحة صغيرة لـ مارتين ريكو[1] وأخرى أصغر لـ بودين[2])، وهكذا أصبحا فى بيتى، البندقية وتروبييه، لوحتان رائعتان، وأنا دون شك كنت أفضل أن أستمتع بهما فى مكانهما السابق خلال عقود كاملة وليس فى صالة بيتى، لأنه مع البندقية وتروبييه هناك، كانت ستبدو مؤثرة فى ذكرياتى الشابة لصالة بيته.

وصل لبيتنا أيضًا كرسى هزاز دون معرفة منى، قطعة أثاث حميمة لجدتى الكوبية، حماته، عندما كانت تحرص على زيارتنا فى طفولتى، وبما أنها ماتت منذ زمن، فقد أصبح الكرسى ملكًا لأبى، ولكن لم يتقن الهز فى الكرسى وحده لأنه لم يتقن الجلوس الحقيقى فيه أثناء اجتماعات الأصدقاء والعائلة التى كانت تقام دائمًا. ليس كافيًا ليتقن الهز. ليس ليهتز وحده، هذا إذا ما عرف أحدنا كيف يمضى وحده. لم يتقن أبى الاهتزاز أبدًا، بل على

---

(١) مارتين ريكو أى اروتيجا (١٨٣٣ ـ ١٩٠٨) فنان إسبانى.

(٢) يوجين لويس بودين (١٨٢٤ ـ ١٨٩٨) من أوائل الفنانين الفرنسيين الذى عملوا فى الهواء الطلق بتأمل الطبيعة بشكل مباشر.

العكس، كان يرى فى هذا نوعًا من الاستسلام، تأكيدا بأنه قد حاول أو قد حصل على ما تفاداه «دائمًا» أن يصل للشيخوخة. رانز، أبى، يكبرنى بخمس وثلاثين سنة، لكن لم يكن شيخًا أبدًا، ولا الآن يبدو كذلك. يمضى كل حياته مؤجلاً هذه الحال، تاركًا لها المجال فى وقت متقدم أو حتمًا لم يفهمها، لكن قليلاً جدًا ما يفعله ضد تطور المظهر والنظرة (ربما كان أكثر بالضد من الأولى)، لأنه واحد من الناس الذين لا يدل مظهرهم وروحهم على أنهم قد شهدوا مضى السنين، لا تغير ولو طفيفًا، لم ألمح عليه التعب ولا الإجهاد اللذين كانا يحاصران أمى على مدى أعوام نموى، ولا حتى لمعان نظره الضعيف خلف نظارات طبية طارئة قد انهزم أمام عينيها، لم يظهر عليه الاهتمام بحضور الآخرين، لم يهمل مظهره ليوم واحد خلال حياته، دائمًا بمظهر مرتب منذ الصباح وكأنه يمضى لحفل، حتى لو لم يخرج ولا ينتظر زيارة من أحد. دائمًا ما شممت منه رائحة عطر وتبغ ونعناع، أحيانًا مع رشفة كحول ورائحة بشرة، كأنه شخص قد أتى من إحدى المستعمرات.

منذ عام تقريبًا، تزوجنا أنا ولويسا، وقد خلق حضور أبى، صورة عن رجل كبير محتفظ بكماله، روح شابة، هازل، وطائش بشكل زائف. منذ أن وعيت عليه وهو يحمل معطفه على كتفيه، دون أن يرتديه، بمزيج من إحساس بالبرد واعتقاد مؤكد بتفصيل ظاهر يمنح تأكيدًا على أناقة الرجل أو على أقل تقدير لتغليفه. قبل عام كان يحتفظ بكامل شعره، أبيض وكثيفًا وممشطًا بعناية بفرق على اليمين (فرق شعر وكأنه ختم، منذ كنت طفلاً)، دون أن يسمح بتلونه بالاصفرار، رأس قطنى أو جليدى يبرز من بين قمصان مكوية وربطات عنق حية بتشكيلة لونية لطيفة. كل شىء فيه كان لطيفًا،

من شخصيته المولهة حتى طبيعته الباردة بلا احتمال، من نظرته المشعة (كما لو أن كل شىء يمتعه، أو يراه رائقًا) حتى مزحه الدائمة، رجل حازم وساخر. له صفات ليست بالصائبة كليًا، لكنه دائمًا ما يبدو رجلاً وسيمًا، يعجبه استدرار إعجاب النساء، لكن ذلك يكفيه حتى لو يحدث عن بعد. من تعرف عليه قبل عام تقريبًا (لويسا تعرفت عليه قبل ذلك بقليل) سيرى فيه رجلاً غازيًا، كبيرًا وذاويًا، متمردًا على وقوعه، أو ربما العكس، كزير نساء لم ينضب معينه بعد، حياة رجل مجتمع حافلة، إما لإيمان يبحث عنه أو لنقص فرصة حقيقية أو فرصة جسورة، لم يحرق كل ما عنده لمجرد التجريب؛ مثل أى أحد، بنفس الشيخوخة، مضى مؤجلاً بشكل مستمر المراهنة على إمكانياته فى الظهور، ربما لكى لا يجرح أحدًا (لكننا نحن الأبناء نجهل كل شىء عن آبائنا، أو نتأخر بفهمنا لهم).

أكثر شىء يثير فيه الانتباه عيناه المتيقظتان بشكل لا يصدق، المنطفئتان أحيانًا بسبب تركيزه بالذى ينظر ناحيته، كما لو أن ما ينظرون إليه بشكل أهمية كبرى، حذر ليس من أن يروه بل ومن دراسته تفصيليًا، من مراقبته بشكل عميق، من التمرن على الاحتفاظ فى الذاكرة بذلك المشهد الملتقط، ككاميرا لم تثق بتقنيتها للوضع المطلوب فتجهد كثيرًا، لتكون إلى جانبه. هاتان العينان تستميلان من يتأملهما. هاتان العينان بلون صاف دون قطرة زرقة فيهما، لون كستنائى شاحب، لشدة شحوبهما اكتسبتا حدة ولمعانًا، تقريبًا بلون الخمر الأبيض فى طريقه ليكون معتقًا حالما يرشقهما الضوء، فى الظل أو فى الليل تقريبًا بلون الخل، عينان سائلتان،

عينا حيوان كاسر أكثر مما هما عينا قط، عينا حيوان يحتمل هذا الطيف من الألوان. لكن على العكس من هذا، فعيناه ليست لهما السكون والرقة، بل هما عينان متحركتان ويقظتان، محاطتان برموش داكنة تريك سرعة واضطراب حركتهما المستمرة، تنظران بحنو وتصميم دون أن تفقدا ما يجرى فى الغرفة أو فى الشارع، مثل عينى متفرج لوحات خبير لا يحتاج نظرة ثانية ليعرف ما رسم فى عمق اللوحة، بل بواسطة عينيه الكليتين سينتج الشكل فى الحال ما أن يراها.

الملمح الآخر الذى يسترعى الانتباه فى وجه رانز، وهو الملمح الوحيد الذى ورثته عنه، هو فمه، فم مكتنز ومخطوط كما لو أنه أضيف فى اللحظة الأخيرة وأنه ينتمى لشخص آخر، مختلف عن ملامحه الأخرى بشكل كبير، منفصل عنها، فم امرأة بوجه رجل مثلما نعتونى مرات عديدة، فم أنثوى أحمر، ربما جاء عن جدة أخرى أو قريبة، امرأة ما منهمكة بألا يختفى باختفائها وقد نقلته لنا، دون أن تعير لجنسنا انتباهًا. هناك ملمح ثالث، الحاجبان الكثان والمتلاصقان دائمًا، أحدهما للآخر أو كلاهما فى الوقت نفسه، وهو ما جرت عليه عادة متبعة فى الشباب، عن الممثلين الأوائل فى سنوات الثلاثينيات، وبوجودهما بفترة متأخرة عن ذلك العهد فقد ظلا ظاهرين مثل أصل غريب وبلا اختيار، علامة منسية فى نظام مُلغى وسمنا به الزمن، الإلغاء ذاك الذى نعيشه ونمضى فيه. يرفع أبى حاجبيه الكثين، فى البدء كانا شهباوين وبعد ذلك بيضاوين، لأى سبب بل ودون سبب، كما لو أنه بتقويسه لحاجبيه سيكون لتأمله نظرة أكثر حدة.

بهذه الطريقة كان ينظر لى دائمًا، منذ أن كنت طفلاً، وكنت مجبرًا على إطلاق نظرتى نحوه بقامته الطويلة ما لم ينحن أو يكون مستلقيًا أو جالسًا. اليوم قامتانا متعادلتان، لكنه مستمر بالنظر لى بتلك النظرة المتهكمة المظللة بحاجبين مثل مظلتين مفتوحتين والتركيز اللامع لحدقتيه، لطختان سوداوان بسطوع قوس قزح، كأنهما مركزان للهدف نفسه. أو هذا ما كان يعمله حتى وقت قصير. هكذا نظر إلىّ فى يوم زواجى من لويسا، الزوجة الشابة، نظرته لطفل لم أعده، لكنه كان ينظر للطفل الذى عرفه وتعامل معه زمنًا طويلاً ليس بإمكانه أن يغيره الآن ويعتبره شيئًا آخر، بينما هى، الخطيبة، تعرفت عليه وهى كبيرة، أو وهى على وشك الزواج.

أتذكر أنه فى لحظة من وقت حفل الزفاف انفرد بى جانبًا، خارج القاعة التى استأجرناها فى كازينو رائع قديم فى شارع القلعة ١٥، فى غرفة صغيرة مجاورة بعد أن وقع الشهود (شهود مزيفون، أصدقاء شهود، شهود للزينة). استوقفنى بيده الممتدة على كتفى (يد على الكتف) بينما كانوا يخرجون ويعودون من وإلى القاعة، حتى بقينا وحدنا. حينئذ أغلق الباب وجلس على كرسى بينما استندت بذراعى المتقاطعتين على المنضدة، كلانا كان يرتدى ملابس زفاف، هو أكثر وأنا أقل اهتمامًا لأنه كان زواجًا مدنيًا، مدنيًا وحسب. أشعل رانز سيجارًا رفيعًا من تلك التى اعتاد تدخينها أمام الناس دون أن يبتلع الدخان. رفع حاجبيه بشدة، مما جعلهما بارزين بحدة، ابتسم بلطف وركز نظرته فى وجهى الذى كان أكثر تركيزًا من وجهه. وقال لى:

ـ حسنًا، ها قد تزوجت. والآن ماذا؟

كان أول من يطرح سؤالاً كهذا، أو بشكل آخر، من يشكل سؤالاً كنت أفكر فيه منذ الصباح، منذ الحفل بل وقبل ذلك. "والآن ماذا، هيه ماذا ؟".

ـ هذا ما أقوله أنا ـ أجبت أبى ـ والآن ماذا؟

ابتسم رانز وترك غيمة دخان لم يبتلعه تتراقص فى الهواء. دائمًا ما يدخن بهذه الصورة، المزخرفة.

ـ هذه الفتاة تعجبنى ـ قال ـ تعجبنى أكثر من اللواتى تعرفت عليهن طوال أعوام تفتحك الغريبة، لا، لا تحتج. أشعر أنى قريب منها، وهو شىء غريب بالنسبة لفارق السن بيننا، مع ذلك لا أعرف إن كانت قد اهتمت بذلك فقط لأنها ستتزوج بك، أم أنها لا تعرف إن كانت متأكدة من قرارها، مثلما كنت أنت لطيفًا مع أبويها الحمقاوين هذين واللذين أظنك ستغفل عنهما بعد شهور. الزواج يغير كل شىء، حتى أصغر الأشياء، وفى هذه الأوقات أيضًا وإن كنتما لا تعتقدان اليوم بذلك. الذى كان بينكما حتى الآن ليس له أهمية بما سيأتى فى الأعوام اللاحقة، وستشعر به قليلاً ابتداءً من هذا الصباح. فى المحصلة النهائية ستظل مجرد مزح مستهلكة، ظلال، ليس من السهل استعادتها. والأثر العميق، بالطبع. ستحنّان كثيرًا للشهور الماضية هذه فى الوقت الذى ستشكلان فيه اتحادًا ضد الآخرين، ضد أى أحد، التهكمات الطفيفة ما أعنى، وخلال أعوام سيكون الاتحاد الوحيد هو أحدكما ضد الآخر. حسنًا، ليس هناك من خطر، لا تهتم، المشاعر غير المتجنبة فى الحياة مشتركة ومتطاولة، ضيق محتمل والذى على أية حال ليس بمقدرتنا رفضه.

بعد أن أتم قوله رفع حاجبيه بتعبير بريء، البراءة هذه المرة ممتزجة بكبرياء، مصطنعة قصداً.

ـ ما الذى تريد قوله؟

ـ لا شيء على وجه الخصوص، لا شيء.

أردت أن أبقى معك منفردين، لدقائق، لن يشعروا بتغيبنا، بعد الحفل لن يشعروا بأهميتنا، حفلات الزفاف تخص المدعوين، الحفلات ليست للعريسين ولا المنظمين. فكرة رائعة المجيء إلى هنا، أليس كذلك؟ فقط أردت أن أسألك ما سُئِلتُ إياه سابقًا: والآن ماذا؟ وأنت لم تجبنى حتى الآن.

ـ الآن لا شيء. أجبت.

كنت متوترًا من موقفه، وكنت متلهفًا للعودة إلى جانب لويسا وأصدقائى، كما أن رفقة رانز لا تريح خاصة وأننى فى ذلك الوضع كنت بحاجة للشعور بالارتياح.

ـ لا شيء؟ كيف لا شيء؟ لا يمكن البدء بهذا الشكل، شيء لا بد أن يحدث، لقد تأخرت بزواجك وأخيرًا حدث، ربما لأنك لم تدرك ما أنت عليه الآن. إذا كنت خائفًا من جعلى جداً فلا تخش ذلك، لأننى ما زلت فى عمر مناسب لمهمة كهذه.

ـ هل كنت تعنى الذى تقوله عندما سألتنى والآن ماذا؟

لمس رانز شعره الثلجى بزهو واضح، مثلما يفعل عادة دون تخطيط. وصففه بشكل جيد حسب اتجاه يده، أحيانًا يمسده بأطراف الأصابع، كما لو كان تدخله غير المتقن لتصفيفه يحيله إلى شيء معاكس. يحمل معه مشطًا ولكنه لا يستخدمه بحضور آخرين،

حتى لو كان ذلك أمام ابنه، الطفل الذى لم يعد طفلاً بعد بينما أمام عينيه هو ذاك حتى لو استهلك نصف حياته تمامًا.

- لا، إطلاقًا، لست متعجلاً، وليس عليكما الاستعجال بذلك، ليس غرضى التدخل فى ذلك وإن بدا لك. كل ما أردت معرفته هو كيف ستواجه موقفًا كهذا، تحديداً الآن، عندما تصل اللحظة. هذا كل شىء، مجرد فضول.

وأطلق يديه الفارغتين باتجاهى كما لو شاء أن يبين لى أنه لا ينوى أى نزاع.

- لا أعرف، لن أواجهه، سأخبرك عن ذلك فى حينه. هذا منتظر، أعتقد ذلك، لا أتساءل عن ذلك اليوم.

كنت مستنداً على المنضدة، فوقها ما تزال التواقيع غير المجدية للشهود. انحنيت أكثر، فى إشارة أولى على أن المحادثة قد انتهت وأننى سأعود إلى الحفل؛ لكنه لم يشاركنى إشارتى بإطفاء سيجاره أو تهيئة ساقيه. المحادثة بالنسبة له كان عليها أن تستمر أكثر.

- .. انتظر - قال - لا أعتقد أن هناك شيئًا منتظرا. أنا مثلاً لم أنتظر أن تتزوج الآن. فقط قبل عام راهنت على العكس، لقد راهنت ضد كوستاردوى وضد ريلاندز فى لعب القمار، وخسرت بعض المال. ألا ترى أن العالم ملىء بالمفاجآت، والأسرار أيضًا. نعتقد بأننا نعرف من يعيشون بقربنا، لكن الوقت يجلب معه جهلاً أكثر من المعرفة، كل مرة يعرف أحدنا القليل عمن يشاركه الحياة، كل مرة هناك تزايد فى مناطق الظل. على الرغم أيضًا من وجود مناطق ضوء أكثر. أنت ولويسا لديكما أسرار حتمًا.

ظل صامتًا لثوان معدودة، وعندما رأى أننى لم أجب أضاف:

ـ لكن بالطبع لا تستطيع معرفة أكثر مما لديك من أسرار، ولن تكون أسرارًا إذا خرجت عن ذلك.

ـ أسرار؟ عن أى شىء تحدثنى؟ أجبته.

انشرح رانز قليلاً أو هذا ما بدا لى كنهاية لحالة جامعة؛ لكنه فى الحال مسح الخجل المتورد على الوجنتين والذى لا يصيب كبار السن عادة، ومعه محا تعبير الابتسامة أو الألم أو الخوف أو كليهما. نهض، وأصبح كلانا بنفس القامة المتماثلة وعاد لوضع يده الكبيرة على كتفى، لكنه وضعها وأنا فى مواجهته هذه المرة ونظر لى عن قرب.

تحدث بجدية وهدوء، الآن دون ابتسامة، جملته المختصرة قالها دون حضور لابتسامة معلقة بشكل دائم على شفتيه المكتزتين الشبيهتين بشفتى، وما إن نطق بها حتى عادت لتتعلق فى الحال. بعد ذلك أخرج سيجارًا رفيعًا آخر من علبته العتيقة وفتح الباب. دخل صخب الحفل ومن بعيد لمحت لويسا تتحدث مع صديقتين وخطيب سابق لها أكن له الحقد، لكننى نظرت إلى الباب الذى كان مغلقًا قبل لحظات. أشار رانز لى بإشارة من يده، إشارة وداع أو تحذير أو ترويج (كما لو كان يقول "لنرّ" أو "تشجع" أو "انتبه") وخرج من الغرفة، خرج قبلى. رأيته مندمجًا حالما خرج، مطلقًا المزح ورافعًا صوته بقهقهات مدوية مع إحدى السيدات التى لم أتبين من تكون، دون شك لا بد أن تكون مدعوة من طرف لويسا، نصف ضيوف زفافى ودون شك لن أعود لرؤيتهم لاحقًا. أو ربما كانت السيدة مدعوة من طرف أبى، هذا ما أفكر به الآن: دائمًا ما كانت لديه صداقات غريبة، أو معرفتى سيئة بهم.

هذه نصيحة رانز التى أسرنى بها، كانت همسًا:

ـ فقط أقول لك شيئًا واحدًا ـ- قال- عندما تتجمع لديك أسرار خاصة أو أن تكون لديك الآن أسرار، لا تقصها على أحد.

والآن بعد أن عادت البسمة إلى وجهه، أضاف: ـ حظًا طيبًا.

توقيع الشهود بقى فى تلك الغرفة، ولا أعرف إن تعهد بها أحد ولا أين تكون الآن، ربما انتهت إلى سلة المهملات مع العلب الفارغة وبقايا الحفل. طبعًا أنا لم أحملها عن تلك الطاولة التى استندت عليها لوقت ما، مرتديًا ملابس العرس، فى اليوم الذى وجب علىّ أن أرتدى تلك الملابس.

سمعت بالأمس صوت أرغنيو(*) (أورج صغير) يأتى من الشارع بشكل غريب، فلم تعد توجد مثل هذه الآلة فى أيامنا هذه، فقد أصبحت من آثار الماضى، رفعت بصرى كما كنت أفعل فى طفولتى، كان صوته قويا أكثر من اللازم، ويعطلنى عن العمل، كان صوته مزعجا إلى درجة تشتت تركيزى فى أى شىء، ونهضت وألقيت نظرة من النافذة حتى أتمكن من رؤية من الذى يعزف، ولكن لا العازف ولا الآلة كانا فى مجال رؤيتى، كانا أبعد من الناصية، يحجبهما عنى المبنى المواجه الذى يمنع عنى الضوء، كان مبنى منخفضا، لا شك فى أنه يحجبهما عنى بمسافة قليلة، على العكس من ذلك كان يمكن رؤية امرأة متوسطة العمر، بضفيرة غجرية لكنها ترتدى ملابس ليست فولكلورية (ملابس النزول إلى الشارع) تقف فى وضع جانبى بالنسبة لى وتحمل فى يدها طبقا بلاستيكيا

(*) عبارة عن آلة موسيقية تشبه الأورج أو الأرغن الموجود فى الكنائس، ولكن هذه الآلة الصغيرة محمولة على عربة صغيرة يسحبها بعض الغجر فى ميادين مدريد، ويديرون ذراعا "منفلة" فتصدر صوتا لنغمة واحدة متكررة فى الأغلب، تعزف مقطوعة من موسيقى شعبية مدريدية يرقص عليها المدريديون رقصة "الشوتز."

صغيرا، يبدو تقريبا بحجم أطباق الفناجين، لا يمكنها أن تتلقى الكثير من قطع النقود المعدنية دون أن تفرغه فى جيبها أو فى كيس لتتركه فارغا من جديد، لا تفرغه بالكامل بل تترك فيه بعض القطع النقدية، فالنقود تنادى النقود. تنصت لبعض الوقت، أولا موسيقى الشوتيز وبعدها مقطوعة موسيقى أندلسية صعب التعرف عليها، ثم مقطوعة باسودوبلى، حينها خرجت إلى الشرفة لأعرف إن كان يمكننى رؤية الأرغنيو من خلال الأشجار، خرجت وأنا متأكد أنه لا يمكننى مشاهدته، وذلك لأن الشرفة - بارزة مثل كل الشرفات - تقربنى إلى الشارع قليلا، وهى موجودة بالضبط إلى يمين نافذتى، وتقدم لى رؤية أقل لما يجرى فيما بعد الناصية. مختبئا، كنت أنظر إلى يسارى، لم يكن هناك الكثير من المارة، بشكل يجعل السيدة ذات الضفيرة تحرك الطبق البلاستيكى مرات ومرات مصدرة أصواتا ناتجة عن القطع النقدية القليلة، وربما كانت قد وضعتها هى نفسها، النقود تنادى النقود.

عدت إلى مكتبى وحاولت أن أتغاضى عن الضوضاء، لكن لم أستطع، وبالتالى ارتديت الجاكيت وهبطت إلى الشارع على استعداد لإنهاء الموسيقى. عبرت الإسفلت وأخيرا شاهدت الرجل الذى يرتدى قبعة قديمة وبشارب رفيع أبيض محفف جدا، رجل ذو جلد محترق، وتبدو على وجهه تعبيرات رقيقة، بعينين منحنيتين وباسمتين، يبدو عليهما بعض التعب ويدير عجلة الأرغنيو بيده اليمنى فيما يضبط الإيقاع بالدق على الأرض برجله الخلافية، اليسرى، ويرتدى فى قدميه حذاء من السيور الجلدية البيضاء وباقى الحذاء بنى، ويبدو من تحت بنطلون طويل وعريض بعض

الشيء، كان يعزف مقطوعة باسودوبلى على ناصية بيتى، أخرجت ورقة نقدية ومددت يدى بها وقلت له:

ـ أعطيك هذه لو أنك ذهبت بعيدا عن الناصية. أنا أسكن هناك وأعمل فى البيت، ومع هذه الموسيقى لا يستطيع أحد ممارسة عمله، موافق؟

أوسع الرجل ابتسامته ووافق بهزة من رأسه، وبهزة منها أشار على المرأة ذات الضفيرة، رغم أنها لم تكن فى حاجة إلى هذه الإشارة: كانت قد اقتربت بالطبق شبه الفارغ عندما لمحت الورقة النقدية فى يدى، مدت الطبق وتركت أنا فيه الورقة الخضراء، ولم تبق فى مكانها هناك لأكثر من ثانية، وبقى الطبق فارغا من جديد واختفت الورقة فى الجيب، النقود فى مدريد لا تنتقل أبدا من يد ليد.

ـ شكرا ـ قلت ـ لكن اذهبا إلى الناصية الأخرى، هناك.

وافق الرجل مجددا، وعبرت أنا الشارع مرة أخرى إلى بيتى. ما أن وصلت إلى شقتى بالطابق الخامس نظرت من النافذة بشىء من عدم الثقة، لأنه، رغم أن الموسيقى كانت لا تزال مسموعة، كان صداها ضعيفا، بعيدا، ولا يمنعنى من التركيز، رغم ذلك نظرت للتأكد بعينى أنهما تركا ناصيتى، نعم، سيدى، على الفور، قالتها المرأة الغجرية بطاعة، ونفذت.

انتبهت اليوم إلى شيئين: الأول والأقل أهمية أنه ما كان يجب الإلحاح عليهما لمجرد أنهما قبلا النقود والتعامل، ما كان يجب أن أكرر"لكن اذهبا إلى الناصية الأخرى، هه" متسرعا على أساس أننى كنت أشك فى تنفيذ ما تم الاتفاق عليه (الأسوأ كانت تلك الكلمة:

"هه" الجارحة) والآخر كان أسوأ كثيرا، وهو أننى بامتلاك المال حددت حركة هذين الشخصين بالأمس صباحا، أنا لم أكن أريد أن يظلا مكانهما على الناصية (ناصيتى) وأبعدتهما إلى الأخرى التى لم يختاراها، كانا قد اختارا ناصيتى، ربما كانت صدفة وربما لسبب ما. ربما كان لديهما سبب للبقاء فى ناصيتى وليس فى الأخرى، ومع ذلك لم أنزعج من ذلك ولم تكن لدى النية للتحرى عنه، ودون سبب دفعتهما إلى الانتقال إلى الطرف الآخر، إلى حيث لم يقررا الانتقال برغبتهما، أنا لم أجبرهما، هذا صحيح، كانت حركتهما مقايضة أو اتفاقًا، فأنا ينفعنى إنفاق الورقة المالية مقابل العمل فى هدوء (أكسب المزيد من الأوراق المالية بينما أعمل) وبالنسبة لهما لم يكن حيويا أن يبقيا على ناصيتى، لا شك أنهما يفضلان الذهاب إلى الأعلى قليلا والحصول على ورقتى المالية على البقاء دون الحصول عليها ولهذا قبلا الاتفاق وانتقلا. إنه أمر ليس بالخطير، إنه حدث قليل الأهمية، لا قيمة له، وليس فيه انتقاص لأحد، وأكثر من هذا، أن جميع الأطراف كسبت من الاتفاق، ومع ذلك، نعم، أرى أنه من الخطير أن أمتلك أنا إصدار القرار، لأننى أمتلك المال ولن تكون لدى مشكلة فى إنفاقه، وأن أقرر أين يعزف على أرغنه وأين تمد المرأة ذات الضفيرة طبقها.

تتبعت خطواتهما، لقد اشتريت تحركهما فى صباح أمس، كان يمكننى أن أطلب انتقالهما كجميل، أن أعرض عليهما الحال وأن أترك لهما الاختيار، فهما كانا يعملان أيضا. لقد كان واضحا لى أنه من الأفضل لى أن أعرض عليهما المال وأن أشترط عليهما ما يجب عليهما فعله ليأخذا الورقة المالية: "أعطيك هذه لو ذهبت؟" قلت له، لو أنك ذهبت إلى الناصية البعيدة؟ وبعدها أشرح له

الأسباب، ولكن فى الحقيقة كان كل هذا غير مطلوب. ما كان يجب أن أفعل ذلك بعد أن عرضت عليه المال، كانت الورقة المالية كثيرة بالنسبة له ولم تكن بالنسبة لى شيئا مهما، كنت واثقا أنه سيقبلها، والنتيجة كانت ستكون واحدة بدلا من الحديث عن عملى، كما فعلت، كان يمكننى أن أقول له: "لأننى أريد أن تذهب من هنا". ما حدث كان معناه هذا، الحقيقة إننى أبعدته إلى الناصية الأخرى لأننى كنت أرغب فى ذلك. لقد كان الأرغنيو لطيفا، من تلك الآلات الموسيقية التى لم تعد موجودة، أثر من الماضى ومن طفولتى.

كان يجب أن أكون أكثر احتراما، السيئ فى الأمر أنه من المحتمل أن يكون هو شخصيا ليس على ما كنت أعتقد أنا، كان يمكننى أن أطلب منه بلطف أن ينتقل من المكان بعد أن أقدم له شرحا للوضع، وأن أقدم له الورقة المالية بعد ذلك لو أنه أبدى تفهما ورضاء، كانت ساعتها ستكون مكافأة وليس رشوة، "مقابل عدم الإقلاق" وليس "أمرا بالمغادرة"، وإن لم يكن هناك فارق بين الحالتين، فى كلتا الحالتين كانت كلمة نعم موجودة، ولا يهم إن كانت علنا أو غير متضمنة، وإن كانت قبل أم بعد الطلب، وبمعنى ما فإن ما فعلته أنا كان الأكثر وضوحا والأكثر نقاء بلا نفاق وبدون مشاعر كاذبة، لأنه اتفاق مفيد لكلينا، هذا هو كل شىء. ورغم ذلك فقد اشتريته وقررت إجباره على ما يجب أن يفعل، وإلى الناصية التى أبعدته إليها ربما تصدمه شاحنة فقد قائدها سيطرته على عجلة القيادة وصعد إلى الرصيف، وما كانت تصدمه الشاحنة لو أنه ظل فى الناصية الأولى التى اختارها. ربما كان يمكننى سماع المزيد من الشوتز بدلاً من رؤية القبعة المنحنية أو رؤية الشارب غارقا فى

دمائه. وأيضا كان يمكن أن يحدث العكس، وحينها كان يمكن أن يكون قرارى سببا فى الحفاظ على حياته.

لكن كل هذا مجرد تخمينات بينما حياة الآخرين متوقفة على قراراتنا وترددنا، بشكل جبان أو لمجرد التخلص منهم، ومتوقفة على كلماتنا أو تكون ملك أيدينا، وأيضا فى أحيان أخرى عندما نملك نحن المال وهم لا يملكونه.

بالقرب من بيت رانز، أى بالقرب من البيت الذى سكنته خلال طفولتى ومراهقتى، كانت هناك مكتبة للأدوات الكتابية، فى تلك المكتبة عملتْ من وقت مبكر، عندما كانت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها، طفلة تكاد تكون فى عمر مماثل لعمرى، وربما كانت أصغر منى، كانت ابنة صاحب المكتبة، كان محلا قديما ومتواضعا، مكانًا من تلك الأماكن التى ينساها التطور ويتركها جانبا ليمارس انتقالاته الشمولية، يكاد لا يتجدد طوال سنوات، وربما تم تجديده فى السنوات الأخيرة، تم تحسينه بعد وفاة الأب، أجروا تحسينات طفيفة وكسبوا أموالا أفضل.

حينها، بسنواتى الثلاث عشرة أو الأربع عشرة، مؤكد أنهم كانوا يكسبون قليلا، ولهذا السبب كانت تعمل الطفلة، على الأقل فى فترات ما بعد الظهيرة خلال تلك السنوات، كانت تلك الطفلة رائعة، وأنا كنت معجبا بها جدا، أذهب إلى المكتبة يوميا تقريبا لإلقاء نظرة عليها، وبدلا من شراء ما أحتاجه مرة واحدة كنت أشترى فى يوم قلم رصاص وفى التالى محبرة، أو ممحاة، لكفاية حاجتى، وأنفقت الكثير من مصروفى اليومى فى تلك المكتبة، كنت أحاول دائما أن تلبى هى حاجتى من المكتبة، وليس الأب أو الأم

(كنت أترقب لحظة فراغها ولا أفتح فمى حتى تكون هى قادرة على تلبية طلباتى) وأيضا كنت أصفر خلال وجودى فى المكتبة خلال فترة انتظار دورى، كما كان يفعل الأولاد فى مثل عمرى، كنت أتوقف أمامها أكثر من المعتاد وأظل طوال الليل مستمتعا بأى ابتسامة أو نظرة قابلة للتفسير فى عقلى.

كنت أفكر فى المستقبل المجرد، كان كل شىء قابلا للانتظار، فهى ستظل فى مكانها مساء بعد آخر، دائما فى المتناول، ولم يكن هناك سبب يجعل المستقبل محددا ولا يصبح مستقبلا، كان عمرى وقتها شيئا آخر، وأيضا عمر البنت، كبرت ولكنها ظلت خلال عدة سنوات رائعة، والآن خلال ساعات الصباح، عندما بلغت السادسة عشرة كانت تعمل هناك طوال النهار، بينما كنت أنا أدرس بالجامعة توقفت هى عن الدراسة، لم أكن أتبادل معها الحديث أثناء ذهابنا إلى المدرسة وظللت لا أحدثها حتى فيما بعد، أولا لأننى لم أكن أجرؤ، وفيما بعد كان الوقت قد فات، هذا هو السيئ فى المستقبل المجرد أنه يظل على هذا النحو.

ورغم أننى كنت أتطلع إليها، كنت مشغولا بأشياء أخرى ومشغولا بتطورات الحاضر، فلم أكن أذهب إلى المكتبة كثيرا، لم أوجه إليها كلمة مطلقا أكثر من طلب أوراق وأقلام، وملفات وممحاة وشكرها، لم أكن أعرف أفعل ذلك، وبالتالى لم أكن أعرف شخصيتها ولا هواياتها، ولم أكن أعرف إن كان الحوار معها ممتعا ولا إن كانت تملك روحا مرحة، ولا كيف تضحك أو تقبل، كل ما أعرفه أننى كنت أحبها عندما كنت فى الخامسة عشرة كما كنا نقول وقتها الحب وما زلنا نحب ما لم نبدأه، هذا هو، نظل فى

الفكرة التى ستظل إلى الأبد، وإضافة إلى هذا أجرؤ على القول أن طريقتها فى الالتفات والابتسام تستحقان الحب الأبدى (طريقتها حينها) وهذا لم يكن بسبب السنوات الخمس عشرة، بل لأننى أقوله الآن، كانت تدعى ولا تزال نييفيس.

لقد مر الآن خمس عشرة سنة أخرى، وربما أكثر منذ تركت أنا الحياة مع رانز، ولكن أحيانا، عندما كنت أذهب إلى بيته أو أزوره، أو أذهب لمرافقته لتناول الغداء معا فى مطعم لا ترينانيرا أو مطعم آخر أبعد منه، كنت أدخل المكتبة قبل صعودى إلى البيت، ربما بفعل العادة التى لم أفقدها بعد لشراء شىء ما، ودائما، طوال تلك السنوات، كنت أجد تلك الطفلة التى لم تعد طفلة، شاهدتها وهى فى الثالثة والعشرين، وفى سنواتها الخامسة والعشرين وفى عمرها التاسع والعشرين، وعندما بلغت الثالثة والثلاثين أو الرابعة والثلاثين كما هى الآن.

قبل زواجى من لويسا بقليل شاهدتها فى أحد الأيام، كانت امرأة لا تزال شابة، وهو الطبيعى لأننى كنت دائما أعرف عمرها، التقريبى، وكان أقل قليلا من عمرى، كان بالضرورة كذلك وإن لم يكن واضحا، والآن لم تعد جذابة ولا أعرف لماذا لم تعد كذلك، مع أنها لا تزال فى عمر يجب أن تكون فيه كذلك، من المؤكد أن هذا يرجع إلى أنها كانت لسنوات طويلة سجينة صباح مساء فى محل الأدوات المكتبية (رغم أنها لا تكون هناك بالليل ولا أيام الآحاد ولا أيام السبت من منتصف النهار، لكن هذا لا يكفى) تبيع الأدوات الكتابية للأطفال الذين لا يذهبون إليها كما كنت أفعل أنا أو يرونها كحبيبة لهم، بل يرونها كسيدة من زمن طويل.

لم يعد أى طفل معجبا بها وربما لا يُعجب بها أحد، ولا حتى أنا الذى لم أعد طفلا، أو ربما لها زوج من سكان الحى أمضى سنوات سجينا صباح مساء فى محل آخر، يبيع أدوية أو يبدل إطارات سيارات. أجهل ذلك، وربما لا يوجد زوج، كل ما أعرفه أن تلك المرأة لم تعد شابة لأنها أمضت سنوات طويلة ترتدى الملابس بالطريقة نفسها. ترتدى كنزات وبلوزات برقبة مستديرة وتنورات سادة وجوارب بيضاء، أمضت وقتا طويلا تصعد وتهبط سلما بحثا عن شريط آلة كاتبة بأظافرها الملطخة بالحبر، وطلاء أظافرها لا يكاد يبين تحت طبقة القذارة، والنهدين اللذين شاهدتهما يكبران أصبحا أكثر انفراجا. والنظرة الخامدة والتجاعيد المتنامية، والانتفاخات الناتجة عن ندرة النوم تضغط على عينيها اللتين كانتا جذابتين، وربما كان انتفاخهما نتيجة ما مر بها منذ طفولتها.

فى تلك المرة التى كنت فيها هناك وشاهدتها، قبل قليل من التخطيط لحفل الزفاف، قبل أن أصعد لاصطحاب أبى لنذهب سويا للغداء بين الضحكات، فكرت بطريقة تجعلنى أخجل من نفسى ومع ذلك لم أستطع إبعاد الفكرة تماما، أو من الأفضل القول، إننى أستعيدها من وقت لآخر كشىء منسى ألف مرة ومُتذكر مرات مثلها والذى يسبب لنا غصة لنتحاشاه، ولهذا نفضل أن يبقى منسيا ومتذكرا بنسب متساوية أو متعاقبا حتى لا ننساه تماما. فكرت أن تلك الطفلة، نيفيس، كان يمكن أن تكون مختلفة وأفضل لو أننى أحببتها ليس من بعيد فقط، لو أننى بعد مرور فترة المراهقة تحدثت معها وتعاملت معها وأرادت هى أن تُقبلنى.

الآن أعرف أننى لا أعرف أى شىء عنها، لا شك أننى افتقدت إلى الطموح والتطلع، لكنى متأكد على الأقل من شيئين: لو أنها لم

تلبس كما تلبس الآن وتخرج من المكتبة لكان يمكننى أن أتكفل بالباقى. يمكن أن تكون الآن جذابة فهى لا تزال شابة، وإن كان مجازيا، ولكن لمجرد إمكانية أنه كان ممكنا فهذا كاف لشعورى بالغضب، ليس من نفسى فقط لأننى لم أحدثها سوى عن الأقلام فقط، ولكن بسبب إمكانية أن يكون الأمر كذلك مرة أخرى، وأن العمر الظاهر وشكل الإنسان يمكن أن يكون مرتبطا بمن يقترب منه، وبامتلاك المال.

فالمال يدفع إلى بيع المكتبة بلا تردد والحصول على مال أكثر، فالمال يقلل من حجم المال ويشترى ملابس جديدة فى كل فصل، المال يسمح بالانجذاب إلى ابتسامة ونظرة كما يستحقان، ويجعلهما يبقيان على مدى زمن أطول مما هما عليه فى الواقع، وأشخاص آخرون فى وضع نيبفيس لا يبقون هناك، كان يمكنهم الخروج إلى مستقبل مجرد أكثر راحة وأكثر انفتاحا من هذا المغلق، وأنا لا أتحدث هنا عن أناس مفترضين، بل عن تلك الطفلة التى لا تتحدد ملامحها ولا تحفظها ليالى مراهقتى فى الخامسة عشرة.

لهذا فإن تفكيرى الفارغ ليس بالضبط مجرد تطلع مختلف عن حكايات الأمراء والفلاحات، حكايات المعلمين وبائعات الورد، عن الفرسان والوصيفات، وإن كان فى حكايتى شىء من الادعاء، ربما كان بسبب عرسى الوشيك ولأننى شعرت للحظات أننى خائن ومتعال ومنقذ، بدلا من أن أشعر بأن أكون مثلها. لم أفكر فىّ أنا، وإنما فى حياتها المركبة، فى استمراريتها معتقدا أننى قادر للحظة بأنه كان يمكننى أن أغيرها، بل وحتى أن الوقت يسمح بأن أفعل ذلك. بنفس الطريقة أو بما يشبهها حتى أنى بالأمس صباحا غيرت

خط سيرى وعزف الأرغنيو اللطيف من ذكريات طفولتى والمرأة ذات الضفيرة.

أعرف أن طفلة المكتبة شاهدت أشياء أخرى وبلادا أخرى خارج إجازات شهر أغسطس، أعرف أنه كانت لها علاقات مع أشخاص آخرين مغايرين عمن أتعامل معهم وأعرفهم، أعرف أنها لو امتلكت مالا ما كان لها أن تدفن نفسها تحت فضائل وألوان من الكاوتشوك. وما لا أعرفه كيف أننى تجرأت على التفكير فى كل هذا، وكيف أتجرأ اليوم على ألا أتخلى عن هذا التفكير الفارغ وأسمح له أن يعود إلىّ مجددا، كيف آمنت بافتراضية أن الحياة معى كان يمكن أن تكون أفضل لها، أفضل فى مجملها، لا يوجد مجال أبدا، أعتقد، ومن تكونه، فكرت، دون أن نتعارف ما كان لى أن أكون أيضا، وربما كنت أمضيت معها أياما أكثر فى المكتبة.

- هل لديك غيار لهذا القلم؟

هذا ما سألتها عنه، وأخرجت من جيبى قلما ألمانيا كنت اشتريته فى بروكسيل ويعجبنى جدا لأن لونه أسود منطفئ.

- أرنى - قالت هى وفتحت القلم ونظرت إلى الخرطوش الفارغ تقريبا - أعتقد أنه لا، لكن انتظر، سأفتش فى العلب الموجودة فى الأعلى.

أنا كنت أعرف أنها لا تملك تلك الخراطيش، وفكرت أنها كانت تعرف أنها لا تملكها، مع ذلك سحبت سلمها القديم ووضعته إلى جانب المنضدة على يسارى، وبتثاقل، كما لو كانت أكبر من سنها بعشرين سنة، (لكنها قضت كل هذا الزمن صعودا وهبوطا) بدأت تصعد درجات السلم حتى وصلت إلى الدرجة الخامسة، وبدأت

تفتش فى عدة علب كرتونية لم تكن ذات فائدة، شاهدتها من الخلف، بحذائها المنخفض وتنورتها ذات المربعات المدرسية القديمة، عجيزتها عريضة وحمالات صدرها الهابطة تبدو من تحت قميصها، وعنقها الجميل، الشىء الوحيد الذى لم يتغير فيها، كانت تنظر فى العلب فيما تمسك بقلمى مفتوحا فى يدها لتعرف نوع الخرطوش ويمكنها مقارنته به، كانت تمسكه بحرص شديد. لو أننى كنت ساعتها أقف بجانبها لكنت وضعت يدى على كتفها ولدغدغت عنقها، بعاطفة مشبوبة.

من الصعب تخيل أنه يمكننى أن أمضى أيامى هناك، كنت دائما ما أملك النقود وحب الاستطلاع، حب استطلاع ومال، حتى عندما لم أكن أملك كميات كبيرة منه وأعمل لأحصل عليه كما أفعل الآن بالعمل ستة أشهر فى السنة، ومنذ تركت بيت رانز منذ وقت طويل. إن من يعرف أنه يملك المال يملكه فى معظم الأحوال، فالناس تقدمه أولا، كنت أعرف أننى سأحصل على الكثير منه عندما يموت أبى وحينها يمكننى عدم العمل كثيرا إذا لم تكن لدى الرغبة فى ذلك، كنت أملك المال منذ صغرى لأشترى الأقلام، فقد ورثت جزءا منه بعد موت أمى، وجزءا أقل قليلا قبلها، الذى ورثته عن جدى، ولولاهما ما كان يمكننى اكتسابه، فالموتى يصنعون الأثرياء الذين لا يمكنهم أن يكونوا كذلك أبدا، كالأرامل والأبناء، أو ربما يبقون أحيانا فقط فى مكتبة أدوات كتابية كتلك التى تربط الابنة ولا تحل أى مشكلة لها.

عاش رانز دائما حياة رغدة وبالتالى عاش ابنه كذلك، بلا تجاوزات كبيرة، أو بتلك التى توفرها له مهنته أو تتطلبها. حظ أبى

يتجسد فى لوحات فنية وبعض التماثيل، وبشكل خاص اللوحات الفنية والعديد من الرسومات. وهو الآن متقاعد، ولكن خلال سنوات طويلة (سنوات فرانكو وأيضا فيما بعدها) كان واحدا من الخبراء العاملين فى متحف البرادو، لم يكن أبدا مديرا ولا حتى نائب مدير، لم يكن أبدا شخصا مهما، كان يبدو كموظف يمضى معظم أوقات الصباح بمكتبه، دون أن يعرف مثلا ابنه أى فكرة واضحة عن كيفية ممارسته لوظيفته، على الأقل خلال الطفولة. وبعدها بدأت أعرف، أن أبى كان يمضى أياما بمكتبه إلى جوار اللوحات العظيمة وغير العظيمة التى كان يقدرها بشغف، أياما كاملة إلى جوار لوحات فنية رائعة دون أن يتمكن من الاطلاع عليها ولا حتى معرفة كيف يراها الزوار، كان يتفحص ويصف ويبحث ويصدر أحكاما ويهاتف ويبيع ويشترى. لكنه لم يكن هناك دائما، كان هو أيضا يسافر كثيرا لحساب المؤسسات والأشخاص الذين سرعان ما عرفوا فضائله وكانوا يتعاقدون معه ليبدى آراءه ويثمن، كلمة رديئة لكن يستخدمها من يعمل فى هذا المجال، وبمرور الأيام أصبح مستشارا لعدة متاحف أمريكية، من بينها جيتى دى ماليبو والترز دى بالتيمور وجادنر دى بوستون، وكان أيضا مستشارا لبعض المؤسسات وبعض البنوك الفاسدة الموجودة فى أمريكا اللاتينية، ولعدد من هواة جمع اللوحات والتحف بشكل خاص، أناس أثرياء جدا يأتون إلى مدريد ويزورونه فى البيت، وكان هو يسافر إلى لندن وشيكاغو ومونتيفيديو ولاهاى، ليبدى رأيه، يؤيد أو ينصح بعدم الشراء أو البيع ويحصل على نسبة أو عطايا ويعود.

وكان يكدس الأموال على مدى زمنى طويل، ليس فقط نتيجة ما يحصل عليه من نسبة ومرتبات من متحف البرادو (ليس شيئا

مهما) بل بفساده السريع والمتواطئ: فى الحقيقة أنه لم يتورع أبدا من الاعتراف أمامى ببعض ممارساته شبه غير الشرعية، وأكثر من ذلك، كان يتفاخر بهذه الممارسات ويرى فى كل خدعة أنها جديرة بالتصفيق والإعجاب وألا يعاقب عليها القانون، أى، إذا كان يتجاهل الفاعل بل ويتجاهل عملية الخداع نفسها، فالخداع نفسه لم يكن خطيرا فى هذا المجال، لأنه يتمثل ببساطة فى تمثيل مصالح البائع، دون أن يعرف هذا أو يدرى به، دون علم المشترى، وهو عادة من يتعاقد معه كخبير (إضافة إلى أنه يمكنه أن يصبح مشتريا فى يوم ما).

فمتحفا جيتى او والترز وأرت جاليرى اللذان كانا يدفعان الأتعاب لأبى كانت تصلهما المعلومات عن الفنان وحالة اللوحة ومدى صحة بيانات اللوحة الفنية التى يدرسان عملية شرائها. كان أبى يخبرهما فى البداية بمعلومات مؤكدة، لكنه يخفى جانبا من المعلومات التى أخذت فى الحسبان أثناء دراسة عملية الشراء، كان يمكن أن تقلل من الثمن بشكل كبير، على سبيل المثال أن اللوحة ينقصها بضعة سنتيمترات اجتزها شخص ما على مدى القرون للتأكد من حقيقة اللوحة، أو أن بعض الشخوص الثانويين فى خلفية اللوحة تم إصلاح ألوانهم على اللوحة الأصلية، أو الاتفاق مع البائع للتغاضى عن ذكر تلك التفاصيل مقابل مضاعفة نسبته من البائع، وعندما يجد الخبير أنه تم اكتشاف الأمر فيما بعد يمكنه أن يتعلل دائما بأنه مجرد خطأ فى التقدير، فلا يوجد خبير كامل الأوصاف دائما، بل على العكس تماما، فالخبراء دائما ما يخطئون فى تقدير جانب من جوانب اللوحات، حيث يكفى أن يكون تقديرهم صحيحا فى جانب، وهكذا يمكن التغاضى عن بعض الأخطاء.

أبى، ولا أشك فى ذلك، يملك عينا فاحصة والأكثر من هذا يده (لابد من لمس اللوحة، بل وفى كثير من الأحيان لحسها باللسان دون أن يتسبب ذلك فى إحداث رد فعل مشين، لأنها أشياء لا غنى عنها فى عملية التثمين) وفى بلاد مثل إسبانيا كان هذا يجرى تقديره بشكل كبير خلال سنوات عديدة، وتقدير الخبراء يتوقف على مدى قدرتهم على إصدار آراء صحيحة قبل التثمين، والمقتنيات الإسبانية الخاصة (وأيضا العامة وإن كان بشكل أقل) مليئة باللوحات المزيفة، وكثيرا ما يصاب أصحابها بعمليات خداع عندما يقررون بيع مقتنياتهم اليوم فى مزادات علنية حقيقية. بعض أصحاب هذه المقتنيات يصابون بحالات إغماء فى الحال عند علمهم أن لوحة الإلهى الصغير للجريكو(*) كانت زائفة. وكثيرا ما حدث لبعض كبار السادة أن انتحروا عند علمهم بخبر كهذا، كأن يعلم أحدهم أن اللوحة التى اعتنى بها طوال حياته كانت زائفة، وكم من اللآلئ الحقيقية التى سقطت فى مكاتب صالات المزادات، ولهذا لا يجب أن تصاب بالدهشة لرؤية الإصابة بحالات الجنون أو حضور عربات الإسعاف لتولى الأمر.

خلال عقود طويلة كان يقوم أى شخص بعملية التثمين فى إسبانيا، يكفى أن يكون على قدر قليل من الدراية، وكثير من البلادة

(*) الجريكو هو فنان اسمه الحقيقى دومينيكوس ثيوتوكوبولس (Theotokopoulos Doménikos) رسام ونحات ومهندس معمارى من عصر النهضة الإسبانية (١٥٤١ ـ ١٦١٤). الجريكو، اسم شهرته معناه اليونانى إشارة لأصله اليونانى. عاش فى إسبانيا وكان من أكبر فنانى طراز الباروك، اتسمت أعماله بتحوير شكل الأشخاص وامتداد أجسامهم مع استعمال اللون الرمادى. تأثر به كثير من الرسامين الإسبان وبالذات الرسام فلاسكويز.

والاندفاع: بائع عاديات أو بائع كتب قديمة أو ناقد معارض فنية، أو مرشد بمتحف البرادو من أولئك الذين يحملون كتابا فى أيديهم، أو ناشر بوسترات سياحية، وربما عامل لدى المتحف. كل الناس لها الحق فى إبداء الرأى، وكل منهم يصدر أحكاما، وكل الأحكام يمكن الأخذ بها. ولا يختلف أحدهم عن الآخر، ونادرا ما كان يمكن العثور على خبير حقيقى، كما يحدث الآن فى جميع أنحاء العالم، فإن الخبير لا يقدر عمله بثمن. وبشكل خاص هنا وفى تلك الأيام، وأبى كان يعرف، بل ويعرف أكثر من أغلبية هؤلاء الخبراء، يعرف أكثر منهم جميعا.

وأنا كان لدى شك أنه بين كل عمليات التزييف الصغيرة كانت هناك عملية أكثر خطورة، والتى لم يتفاخر بها أبدا. فالخبير بغض النظر عما ذكرنا لديه أكثر من طريقة للإثراء. الأولى شرعية، أن يشترى لنفسه ممن لا يعرف أو فى حاجة عاجلة للبيع (على سبيل المثال خلال أو بعد حرب ما، فى تلك الفترات يتم بيع أعمال مهمة مقابل جواز سفر أو مقابل مواد غذائية).

خلال سنوات وسنوات كان رانز يشترى أيضا لوحات لبيته، وليس فقط لمن يتعاقدون معه: من بائعى عاديات وبائعى كتب قديمة ومن ناشرى بوسترات وحتى من عاملين بالمتاحف، أناس من جميع الأنواع. اشترى روائع فنية مقابل مبالغ تافهة، مستخدما الأموال التى كانت تدفعها له متاحف ماليبو وبوستون وبالتيمور، كان يستثمر فى الفن لنفسه. أو على الأقل لم يكن يستثمر بل ربما كان يفعل ذلك لورثته، لأنه لم يقبل مطلقا بيع أى من ممتلكاته وسيكون أنا من يبيعها. يمتلك أبى جواهر لم تكلفه شيئا ولا يعرف أحد عن بعضها شيئا.

فى كونستهول دى بريمن فى ألمانيا، اختفت لوحة وستة عشر رسما لدوريرو(*) عام ١٩٤٥، وتقول الحكاية إنها اختفت خلال غارات الحلفاء أو أن الروس أخذوها، وربما كان هذا ما حدث، من بين تلك الرسومات رسم منها بعنوان "رأس امرأة بعينين مغمضتين"، وآخر بعنوان "وجه كاترينا كارنارو" وثالث كان معروفا باسم "التيلات الثلاث". أنا لا أؤكد ولا أنفى شيئا، ولكن من بين مقتنيات رانز الفنية هناك ثلاثة أقسم أنها لدوريرو (لكنى لست خبيرا لأقول ذلك، وهو كثيرا ما كان يضحك عندما كنت أسأله عنها، ولا يجيبنى)، وفى واحد من تلك الرسوم يمكن رؤية رأس امرأة بعينين مغمضتين، وفى آخر يحدثنى قلبى أنه لكاترينا كارنارو، وما أراه فى الأخير هى التيلات الثلاث، وإن كنت لا أفهم كثيرا فى أمور الأشجار، وهذا فقط مثال على ذلك، فيجب الأخذ بعين الاعتبار اختلاف الأسعار فى سوق الفن، ولا أعرف قيمة مجموع المقتنيات (وأبى يضحك أيضا عندما أسأله يجيبنى: ستعرف ذلك فى اليوم الذى لا يصبح أمامك طريقة أخرى سوى التحرى عنها، وأسعارها تتغير كل يوم كالذهب تماما)، لكن من المحتمل ألا أحتاج إلى أكثر من واحدة منها أو اثنتين لأترك مهنة الترجمة والسفر إذا لم تكن لدى الرغبة فى هذا.

من أفضل اللوحات التى كان يضعها رانز أمام عينيه بالبيت (ليس بشكل ظاهر تماما) أمام الضيوف والزوار كان يقول لهم دائما، إنها نسخ مزيفة (عدا بعض الاستثناءات القليلة: بودين ومارتين ريكو وبعض الأسماء الأخرى المشابهة) إنها لوحات مزيفة بدقة لكوستاردوى الأب وبعضها لكوستاردوى الابن.

(*) فنان ألمانى (١٤٧١ ـ ١٥٢٨).

والطريقة الأخرى التى جعلت منه ثريا أن يكون خبيرا ولا يقدم خدماته من خلال تفسيراته بل من الفعل نفسه: تقديم استشاراته وتوجيه مزيف لتكون لوحاته أكثر دقة. من المفترض أن الخبير الذى ينصح مزيفا عليه ألا يقدم استشاراته لأحد عن تلك اللوحات المزيفة، خاصة التى تتم تحت إشرافه وتوجيهاته. لكن على العكس من ذلك إنه من المحتمل أن يدفع المزيف له نسبة مما يحصل عليه من أى من تلك اللوحات التى تمت تحت إشرافه لشخص ما أو متحف أو مصرف، بعد أن يقدم موافقته عليها كخبير، كما أنه من المحتمل أيضا أن الخبير الأول يقدم خدماته ويبلغ عن اللوحات المزيفة التى يقوم بها هذا الآخر.

أحد أفضل الأصدقاء لرانز كان كوستاردوى الأب والآن كوستاردوى الابن، كلاهما مُزيف رائع تقريبا لأى لوحة من أى حقبة. وإن كان أفضل تقليد لهما تلك التى يمكن الخلط فيها بين الأصل والمُقلد، كانت لفنانى القرن الثامن عشر الفرنسيين، والتى لم يكن أحد يقدرها طوال سنوات عديدة (وبالتالى لم يكن أحد يهتم بتزييفها) أما الآن فقد فاق التقليد التصورات، وإن كان هذا يرجع جزئيا إلى إعادة التقييم التى قام بها الخبراء فى الفترة الحالية.

وفى بيت رانز هناك لوحتان مقلدتان بشكل رائع لواتو وشاردين(*)، الأولى من تقليد كوستاردوى الأب والثانية من تقليد كوستارودوى الابن الذى كلفه بها منذ ثلاث سنوات، أو هكذا قال،

(*) واتو فنان فرنسى (١٦٨٤ - ١٧١١)، شاردين فنان فرنسى (١٦٩٩ - ١٧٧٩).

واجهت كوستارودوى الأب بعض المشاكل قبل وفاته بفترة قليلة، قبل أكثر من عشر سنوات: فقد ألقى القبض عليه وأفرج عنه بعدها بقليل دون أن تتم محاكمته. مؤكد أن أبى أجرى مكالمات هاتفية من مكتبه بمتحف البرادو لأشخاص معنيين بعد وفاة فرانكو ولم يفقدوا نفوذهم بعد بشكل كامل.

لكن مهما كانت قيمة الأموال الكثيرة التى حصل عليها رانز وزادت بعد تعامله مع متاحف ماليبو وبوسطون وبالتيمور بزيوريخ ومونتيفيديو ولاهاى، ومن خلال استشاراته لبعض الهواة من الأشخاص واستشاراته للبائعين، وربما من خلال نصائحه لكوستاردوى الشيخ وربما تواصلت أيضا مع الفتى، فإن ثروته وتناميها تتكون، كما ذكرت سابقا، فى مجموعته الشخصية من مقتنيات اللوحات وبعض التماثيل، رغم أننى مازلت لا أعرف أو حتى إننى سأعرف لاحقا حجم تلك الثروة وتناميها (أرجو أن يترك عند موته مذكرة تقديرية واضحة كخبير).

لم يقدم أبدا على التخلص من أى شىء، ولا من أى من اللوحات المفترض أنها مقلدة، ولا من اللوحات المؤكد أنها أصلية، وهذا ما يجب الاعتراف به، رغم كل ما ارتكبه من غش، فإنه يجب الاعتراف بموهبته وجدية عشقه للاقتناء، ولو بنظرة طيبة فإن إهداءه لنا لوحة بودين ومارتين ريكو القزمين بمناسبة عرسنا تم رغم أنفه، رغم أنه يمكنه رؤيتهما فى البيت دائما.

عندما كان يعمل فى البرادو يتذكر رعبه عند وقوع أى حادث أو نبأ ضياع أو حدوث تلفيات لأى لوحة مهما كان حجمها صغيرا، تماما مثل حراس وعمال المتحف، الذين كما يقول عنهم لابد من أن

ندفع لهم رواتب مغرية ومحاولة الإبقاء عليهم فى حالة رضاء، لأنهم ليسوا مسئولين فقط عن أمن وحراسة اللوحات، بل عن وجود هذه اللوحات نفسها، فالأميرات الصغيرات(*)، كما كان يقول، موجودة فقط بفضل حرص وانتباه الحراس؛ لأنهم يستطيعون إتلافها فى أى وقت إن أرادوا، لهذا يجب الحرص على أن يشعروا بالفخر والفرح وفى حالة نفسية راضية.

هو، متخذا عدة ذرائع (لم تكن من مهامه ولم تكن مهمة أحد) كان حريصا على معرفة أوضاع حياة الحراس، وإن كانوا هادئين أم مضطربين، وإن كانوا قلقين تحت وطأة الديون أم يستطيعون تحملها، أو أن أزواجهم أو زوجاتهن (فالعاملون من الجنسين) يتعاملون بالبيت بشكل طيب أم لديهم مشاكل أسرية، وإن كان أبناؤهم السبب فى تلك المشاحنات أو يتسببون لهم بالخروج عن طورهم، كان دائما ما يهتم بهم ويسهر على راحتهم ليحافظوا على اللوحات المعروضة بالمتحف، وحمايتها من غضبهم المحتمل أو لحظات جنونية قد تصيبهم نتيجة حنقهم.

كان أبى واعيًا بأن أى رجل أو امرأة يمضى أيام حياته محبوسًا فى قاعة ويشاهد دائما اللوحات نفسها، ساعات وساعات كل صباح وبعض الأمسيات، جالسا على مقعد دون أن يفعل شيئًا آخر سوى مراقبة الزوار ومراقبة اللوحات (ممنوع حتى التسلى بحل الكلمات المتقاطعة) يمكنه أن يصاب أحدهم بنوبة جنون ويشكل خطرا، أو تنمو فى داخله الكراهية القاتلة تجاه تلك اللوحات. لهذا السبب كان يهتم

(*) لوحة الأميرات الصغيرات المعروفة باسم "Las Meninas" رسمها الفنان الإسبانى الشهير فيلاثكيث عام ١٦٥٦.

شخصيا، خلال سنوات طويلة فى مكتبه بمتحف البرادو، بأن يجرى تغيير الحراس لأماكنهم حتى يمكنهم على الأقل رؤية تلك اللوحات خلال ثلاثين يوما فقط، ويمكن بذلك التخفيف من كراهيتهم، أو يجرى تغيير أماكن عملهم قبل أن يحدث ما لا تحمد عقباه.

الشىء الآخر الذى كان واعيا به كان هذا: حتى لو عانى هذا الحارس من حكم وذهب إلى السجن، لو أن هذا الحارس قرر مع نفسه أنه يجب تدمير لوحة الأميرات الصغيرات، فإنه يمكن أن يتم تدميرها كما حدث مع دوريرو دى بريمن التى دمرها قصف طائرات الحلفاء لأنه لم يكن هناك حراس يمنعون الدمار لو لم يكن الحارس نفسه من قرر تدميرها، كان لديه كل الوقت المطلوب وأكثر ليمارس أفعاله الشنيعة ولا يوقفه أحد إلا نفسه، لو حدث لكان أمرا مفزعا، وما كانت هناك طريقة لإقناعه بالتعقل.

فى إحدى المرات خرج أبى من مكتبة ساعة إغلاق المتحف تقريبا، كان معظم الزوار قد خرجوا، ووجد حارسا شيخا كان يدعى ماتيو (يعمل هناك منذ خمس وعشرين سنة) كان يلعب بقداحة غير قابلة للملء، بالقرب من لوحة لرمبرانت، بالضبط على الحافة السفلى اليسرى للوحة "ارتيميسا"(*)، تعود إلى العام ١٦٣٤، اللوحة الوحيدة بمتحف البرادو المؤكد نسبها إلى رمبرانت، تبدو فيها ارتيميسا، بملامح امرأة شبيهة بملامح ساسكيا، تلك المرأة التى كانت كثيرا ما تعمل موديلا للفنان العبقرى، فى مشهد عكسى تبدو فيه راكعة تقريبا وتكاد توليه ظهرها، إنها ملكة هليكارناسو، لحظة

(*) هذه اللوحة للفنان العالمى رمبرانت أنجزها عام ١٦٣٤ ومقاساتها ١٤٢ فى ١٢٧ سم، وتوجد فى متحف البرادو بمدريد.

ذهابها لاحتساء كأس يحتوى موصوليو، زوجها الميت الذى أمرت بصنع تابوت له كان إحدى عجائب العالم القديم السبع (ومنه جرت تسمية الموصوليو "الضريح") أو مثل سوفونيسابا ابنة القرطاجنى اسدروبال، وحتى لا تسقط أسيرة وهى على قيد الحياة بين أيدى اسبيون ورجاله، الذين كانوا يطلبونها بشكل رسمى، طلبت من زوجها الجديد ماسينيسا كأسا من السم كهدية عرس، الكأس طبقا لرواية التاريخ هدية للأمانة التى تعانى خطرا، رغم أن سوفونيسابا لم يكن لها وحدها فقد كانت متزوجة بآخر قبله، كانت متزوجة من سيفاكس زعيم الميسيليانوس، الذى كان قد سرق زوجها الثانى خلال احتلال سيترا، التى هى اليوم القسطنطينة الجزائرية، وهكذا، يصبح من الصعب تأمل اللوحة على أنها مرسومة على شرف موصوليو الذى ستشرب كأس رماده، رغم أنه من خلال التعبير الواضح على ملامح كليهما أنهما سوف يشربان السم، على أى حال يبدو فى الخلفية رأس لامرأة عجوز تراقب الكأس أكثر من مراقبتها للخادمة أو حتى مراقبة ارتيميسا نفسها (لو كانت سوفونيسابا من المحتمل أن العجوز هى من وضعت السم) ويبدو الخلفية ضبابية مليئة بالأسرار ومغطاة بالقذارة، وهيئة سوفونيسابا مضاءة جدا وكبيرة الحجم فتغطى على هيئة العجوز فتبدو هيئة مشكوكا فيها.

فى تلك الفترة لم تكن بمتحف البرادو أجهزة إنذار أوتوماتيكية ضد الحريق، لكن كانت توجد أجهزة إطفاء، أخذ أبى أحد هذه الأجهزة القريبة منه بكثير من الثقة، رغم أنه لم يكن يعرف كيفية استخدامها، وحملها على ظهره (حمل ثقيل جدا) اقترب من ماتيو ببطء، الذى كان قد بدأ فى إحراق جانب الإطار وكان يمرر القداحة

بالقرب من قماش اللوحة من أعلى إلى أسفل ومن طرف إلى آخر كما لو كان يريد إنارتها كلها، الخادمة والعجوز وارتيميسا والكأس، وأيضا طاولة فى المنتصف يوجد عليها لوحات مكتوبة (ربما كانت مطالبتها بالاستلام) وكانت تعتمد عليها سوفونيسابا بيدها اليسرى وكانت أقرب إلى اللفافة.

ـ كيف الحال، ماتيو؟ قال له أبى بهدوء- هل تحاول أن ترى اللوحة بشكل أفضل؟

لم يلتفت إليه ماتيو، فقد كان يعرف صوت رانز جيدا ويعرف أنه فى كل يوم عند خروجه يسير بشكل عفوى خلال القاعات ليتأكد من عدم تعرض أى من منها لأى تلف.

ـ لا، أجاب بنبرة طبيعية جدا وغير عاطفية، أنا أفكر فى إحراقها.

يحكى أبى، أنه كان يمكنه أن يضربه على ذراعه ليدفعه إلى إلقاء القداحة إلى الأرض، لأنه شخص ضعيف، وبعدها كان يمكن أن يبعده بركلة خفيفة، لكن يديه كانتا مشغولتين بجهاز الإطفاء الذى يحمله على ظهره، إضافة إلى احتمالية الخطأ فيزداد غضب الحارس ماتيو فى جعله يتراجع عن تنفيذ ذلك، فكر أنه ربما كان من الأفضل شغله لإبعاد الشعلة إلى أن تنتهى خزانة القداحة، ولكن هذا كان يجب ألا يستمر كثيرا خاصة لو أن القداحة حديثة الشراء، وفكر أيضا فى طلب النجدة بالصراخ، ربما جاء أى شخص لمساعدته، ويمكن السيطرة على ماتيو ولا تنتقل النيران إلى لوحات أخرى، لكنه.فى هذه الحالة تنتهى لوحة رمبرانت الوحيدة، ووداعا سوفونيسابا ووداعا ارتيميسا وحتى موصوليو وماسينيسا وساسكيا وسيفاكس، فعاد إلى سؤاله:

ـ لكن يا رجل، ماتيو، إلى هذا الحد لا تحبها؟

ـ أنا أكره تلك السمينة، أجاب ماتيو، لم يكن يحتمل ماتيو سوفونيسابا، لا أحب تلك السمينة المرتدية اللالئ، أكد كلامه (وبالفعل فقد كانت ارتيميسا سمينة وترتدى لآلئ فى عنقها وعلى جبهتها فى لوحة رمبرانت)، وتبدو الخادمة التى تقدم الكأس أكثر جمالا، ولكن من المستحيل رؤية وجهها بوضوح.

لم يستطع أبى أن يتجنب تقديم إجابة متهكمة، أى مفاجئة ومنطقية:

ـ آه، قال، لقد تم رسمها هكذا، بالطبع، السمينة فى المواجهة والخادمة من الخلف.

مشعل الحرائق ماتيو من وقت لآخر يطفئ القداحة لثوان قليلة، لكنه لا يبعدها عن قماش اللوحة، وبعد هذه الثوانى يعيد إشعالها وتسخين لوحة رمبرانت. فيما يراقبه رانز.

قال "هذا هو الأسوأ، أنها رسمت على هذا النحو لتبقى إلى الأبد والآن سنظل دون أن نعرف ما الذى حدث، انظر حضرتك، يا سيد رانز. لا توجد طريقة لرؤية وجه الفتاة ولا معرفة ماذا تفعل العجوز فى الخلفية، الشيء الوحيد المرئى هو هذه السمينة بعقودها ولا تكاد تنتهى من الكأس أبدا . والآن لنعرف إن كانت ستشرب وتنهى الكأس أم لا حتى نرى وجه الفتاة لو أنها استدارت».

ماتيو، رجل معتاد على ماهية الفن التشكيلى، رجل فى الستين من عمره ويعمل فى البرادو منذ خمس وعشرين سنة، وفجأة أراد متابعة لوحة رمبرانت لأنه لم يفهمها (لا أحد يفهمه، ما بين ارتيميسا وسوفونيسابا هناك مسافة، المسافة بين احتساء

ميت واحتساء الموت نفسه، بين زيادة الحياة والموت، بين الكشف عنه وقتله) إنه أمر عبثى ولكن رانز لم يتخل عن إجباره على التعقل:

ـ لكن يجب أن تفهم أن هذا مستحيل، يا ماتيو، فالثلاثة مرسومات، ألا ترى هذا، إنها مجرد رسم، أنت شاهدت أفلاما كثيرة وهذه ليست فيلما سينمائيا، عليك أن تفهم أن هناك طريقة أخرى لرؤيتها بطريقة مختلفة، هذه مجرد لوحة، مجرد لوحة.

قال ماتيو وهو يمسك بالقداحة المشتعلة بالقرب من قماش اللوحة: لهذا أريد أن أدمرها.

وأضاف أبى محاولا إبعاده عن التفكير "وأيضا مسألة المواجهة ليس عقدا بل حجابا وإن كان مصنوعا أيضا من اللؤلؤ".

ولكن ماتيو لم يلق إليه بالا. نفخ فى شوائب عالقة بملابسه.

جهاز الحريق المـمسك به رانز بآخر ما لديه من قوة كان يضغط على ساعديه، وهكذا قرر عدم إخفائه فوضعه بين ذراعيه كطفل رضيع، بلونه الأحمر الغامق الواضح، فانتبه الحارس إلى وجود الجهاز.

"اسمع، اسمع، ماذا تفعل بهذا؟" عنف أبى، "ألا تعرف أنه ممنوع فتحه؟"

وأخيرا استدار ماتيو على إثر سماع ضجيج جهاز الحريق، أثناء انتقاله من الظهر إلى الذراعين ارتطم بالأرض مما دفع الحلقة الخاصة بالأمان إلى القفز على الأرض، ولكن أبى لم يتمكن من استخدامه كجرس إنذار، ومع ذلك ظل يفكر.

قال له "لا تنزعج يا ماتيو، أنا أخذته لأننى أريد أن أصلحه لأنه معطل" وانتهز الفرصة ليتركه على الأرض وليتحرر من ثقله، أخرج المنديل الحريرى ذا اللون القرمزى الذى كان يضعه فى جيب الجاكيت كزينة وجفف جبهته، منديلا ذا ملمس ولون رقيقين، يستخدم للزينة وكان لونه متناسقا مع لون جهاز إطفاء الحريق.

"أقول لك إننى سأدمرها" كرر ماتيو وقرّب القداحة من ساسكيا.

"اللوحة ذات قيمة كبيرة يا ماتيو، تساوى ملايين، هل تعلم هذا؟" قال له رانز مجربا إن كان ذكر المال سيدفعه إلى استعادة التعقل.

لكن الحارس واصل لعبته بالقداحة، فيشعلها ويطفئها ثم يشعلها وقرر أن يشيط إطار اللوحة أكثر مما كان يفعل، إنه إطار ممتاز وقديم.

قال بشكل متهكم "وأيضا هذه السمينة تساوى الملايين، عليها اللعنة"

بدأ الإطار الممتاز فى الميل إلى السواد، فقرر أبى أن يذكر السجن الآن، لكنه أبعده عن ذهنه للحظات، فكر لحظة، وفكر لحظة أخرى، وأخيرا غير من تكتيكه، وفجأة التقط جهاز الإطفاء من الأرض وقال:

- أنت محق، يا ماتيو، وأوافقك على رأيك، لكن لا تحرقها حتى لا يمتد الحريق إلى اللوحات الأخرى. دعنى أفعلها أنا وحدى، سوف أدمرها بهذا الجهاز، فرأيك أنا مقتنع به، لأن السمينة يجب أن تسقط عليها طبقة سميكة ولتذهب إلى الجحيم.

رفع رانز جهاز الحريق وأمسك به على أعلى من رأسه بيديه الاثنتين كمن يرفع أثقالا، على استعداد لإلقائه بعنف باتجاه سوفونيسبا وارتيميسا.

عندها اتخذ ماتيو موقفا جادا.

وقال ماتيو بجدية "انتظر، انتظر، ماذا ستفعل حضرتك، بهذه الطريقة سوف تؤذى اللوحة".

قال رانز "سأدمرها".

جاءت لحظة من التردد، أبى رافعا ذراعيه إلى أعلى بجهاز الحريق، وماتيو بالقداحة المشتعلة فى يده، وتتراقص شعلتها، نظر إلى أبى ثم نظر باتجاه اللوحة، كان رانز يحاول الإبقاء على ثقل جهاز الحريق، حينها أطفأ ماتيو القداحة ووضعها فى جيبه، ثم فتح ذراعيه كمن يستعد للمصارعة وقال له:

- "ابق مكانك، هه، لا تدفعنى إلى استخدام العنف؟"

لم يُفصل ماتيو من العمل لأن أبى لم يخبر أحدا عن هذا الحادث، ولا الحارس اشتكاه لأنه أراد أن يرش مسحوق الحريق على لوحة رمبرانت من خلال جهاز الحريق العاطل، ولم يلاحظ أحد غيرهما آثار الحريق على الإطار (ربما أحد الزوار أراد طرح بعض الأسئلة وتم الاستماع إليه فى صمت) بعد فترة قليلة تم تغييره بإطار مشابه رغم أنه لم يكن قديما مثله، طبقا لأقوال رانز، إن ماتيو كان حارسا أمينا طوال خمس وعشرين سنة، ولماذا لا يظل أمينا بعد حالة مفاجئة من الغضب، وأكثر من ذلك، فقد أرجع ما قام به إلى حالة الركود التى كان عليها العمل وعدم وجود أحداث مشابهة، ويؤكد على صدق قوله أنه ما إن رأى أن اللوحة مهددة

حقيقة من جانب شخص آخر إضافة إلى أن هذا الشخص رئيسه فى العمل، أظهر إحساسه بالمسئولية قبل رغبته فى حرق ارتيميسا، ولكن جرى نقله على الفور إلى قاعة أخرى، تضم اللوحات البدائية، والتى تبدو شخصياتها أقل وضوحا ومن الصعب أن تحترق (بعضها مفتوح أى تحتمل تفسيرات عدة لأوضاع شخصياتها وحكاياتهم بالكامل).

عدا ذلك، فإن أبى أبدى اهتماما أكبر بحياة الحارس، وتشجيعه فى مواجهة الشيخوخة التى بدأت تغزو جسده، ولم يكن يغفل عنه خلال الأعياد التى كانوا يحتفلون بها مرتين فى السنة، فى يوم الإغلاق، وكان يجرى الاحتفال فيها بجميع العاملين بالمتحف، وتجرى بشكل خاص فى القاعة الكبرى الخاصة بأعمال الفنان فيلاثكيث. يحضرها جميع العاملين برفقة عائلاتهم، من أول المدير (الذى يحضر فقط لدقائق قليلة ويمد يدا هامدة بالتحية) حتى السيدات العاملات بالنظافة (وكن الأكثر حضورا والأكثر استمتاعا لأنهن يبقين بعد ذلك لإزالة آثار الحفل).

يجتمعون للأكل والشرب والاستمتاع والرقص (النقاش ليس مطلوبا) كما لو كانوا فى حفل شعبى ابتدعه أبى نفسه طبقا للنسق الاحتفالى؛ ليحافظ على الحالة المعنوية للحرّاس ويسمح لهم بالتخلص من أعباء العمل، والتخلص من حالة القنوط بسبب بقائهم فى نفس المكان الذى يجب أن يرابطوا فيه. وهو نفسه كان يهتم بأن يكون الطعام والمشروبات التى يقدمونها لهم لا تترك بقعا يمكن أن تؤثر على اللوحات، وبهذا الشكل كانوا يسمحون ببعض التجاوزات: أنا شاهدت فى طفولتى المياه الغازية على لوحة الأميرات وآثار البيض على لوحة استسلام بريدا.

خلال سنوات طويلة، فى طفولتى وأيضا فيما بعدها، خلال المراهقة وأيام الشباب الأولى، عندما كنت ما أزال أنظر بعينين بريئتين إلى فتاة مكتبة الأدوات الكتابية، عرفت وقتها فقط أن أبى كان متزوجا من شقيقة أمى قبل زواجه من أمى أنا، كان متزوجا من تريسا اجيلار قبل زواجه من أختها خوانا، وهما الطفلتان اللتان كانت جدتى تقص عنهما مُلحا من الماضى، أو تشير إليهما فقط بالطفلتين لتفرقهما عن أشقائهما، والذين كانت تشير إليهم بأنهم "الصبية".

وليس فقط الأبناء هم من يهتمون متأخرا بمن يكون آباؤهم قبل التعرف عليهم (بشكل عام فإن هذا الاهتمام يحدث عندما يقترب الأبناء من العمر الذى كان عليه الآباء عندما تعارفوا على بعضهم، أو عندما يرزقون هم بدورهم أبناء وعندها يستعيدون طفولتهم من خلالهم، فيهتمون بالتعارف على من كانوا آباءهم)، هذا إن لم يعتد الآباء ألا يوقظوا فيهم أى حب استطلاع ويصمتون عن التذكير بأنفسهم أمام ورثتهم، أو يصمتون عن ما كانوا هم من قبل أو يتناسون ذلك. كل العالم تقريبا يخجل من مراهقته، وليس

حقيقيا أنهم يحنون إليها كما يُقال، وإنما يمكن القول إنهم يحاولون نسيان المراهقة أو الهروب منها ويبذلون جهدا ليلقوا بها إلى خانة الأحلام السيئة، أو إلى الروايات، أو إلى ما لم يوجد أصلا. فالمراهقة يجرى إخفاؤها، المراهقة سر بالنسبة لمن لا يعرفون مراهقتنا.

رانز وأمى لم يخفيا أبدا زواج رانز بمن كان يجب أن تكون خالتى تريسا لو أنها عاشت (أو ربما لم تكن كذلك) زواج قصير جدا والذى عرفت بأن نهايته نتجت عن الموت المبكر، وعلى العكس من ذلك تماما لم أعرف سبب هذا الموت طوال سنوات، وطوال سنوات أخرى اعتقدت أننى كنت أعرف سببه وكنت أخدع نفسى، إلى أن سألته مؤخرا فأعطانى إجابة خادعة، خداع آخر مما اعتاد عليه الآباء، الكذب على الأطفال عن مراهقتهم المنسية. حدثنى عن المرض وهذا هو كل شىء، حدثنى عن المرض طوال سنوات عديدة، وكان من الصعب الشك فيما نعرفه منذ الطفولة، ويمر زمن قبل التفكير فيه.

والفكرة التى كونتها فيما بعد أن هذا الزواج القصير جدا ناتج عن خطأ غير مفهوم بالنسبة لطفل أو مراهق يفضل التفكير فى أبدية وجود أبويه متحدين ليبرر وجوده والاعتقاد بالتالى فى حتمية العدالة، (أشير هنا إلى الأطفال الكسولين والعاديين الذين لا يذهبون إلى المدرسة عندما يصابون بشىء من الحمى أو للهروب من العمل فى توزيع الصناديق على دراجة كل صباح). على أى حال فإن الفكرة كانت ضبابية، والخطأ يمكن تفسيره بأن رانز اعتقد أنه أحب إحدى الأختين، الأخت الكبرى، عندما كان فى الحقيقة يحب

الأخرى، الأخت الصغرى، ربما كانت صغيرة جدا عندما تعرف عليهن معا واتخذ قراره الجاد بالزواج.

ربما حكوا لى هذا على هذا النحو، هذا جائز، عبر أمى وربما حكته لى جدتى، لا أذكر بالضبط، كانت إجابة قصيرة وربما كاذبة على سؤال طفل، وبالطبع لم يحك لى رانز أبدا مثل تلك الأشياء. وأيضا كان من السهل فى تخيلات طفل أن يظهر عنصر آخر، ذلك العنصر الرحيم: العطف على أرمل، والإحلال محل الأخت، والتخفيف من حدة قنوط الزوج، واحتلال مكان الميتة.

كان يمكّن لأمى أن تتزوج من أبى بسبب العطف عليه، حتى لا يبقى وحيدا، أو على الأقل، ربما كانت قد أحبته سرا منذ البداية ورغبت سرا فى اختفاء العقبة، شقيقتها تريسا. أو ربما سعدت على الأقل لاختفاء هذا السبب.

لم يحك رانز أى شىء أبدا، منذ بضع سنوات، عندما كبرت أنا، حاولت سؤاله، وتعامل هو معى كما لو كنت طفلا، "ماذا يهمك من كل هذا"، قال لى، وتحول عن الموضوع. وعندما ألححت أنا (كنا فى مطعم الدورادو) نهض للذهاب إلى الحمّام وقال لى بسرعة بأفضل ما يملك من ابتسامة: "اسمع، فيما يتعلق بالماضى البعيد، من السيئ تذكره بعد كل هذا العمر، ومن الأفضل أنه عندما أعود أجدك قد غادرت هذه الطاولة. أريد أن آكل بهدوء واليوم بالتحديد، وليس تذكر يوم مر من أربعين عاما"، وكما لو كنا فى البيت وكما لو كنت أنا طفلا صغيرا ويمكن إسكاته وإرساله إلى غرفة نومه، لقد قال لى أن أذهب، ولم يقدر حتى إمكانية غضبه وتركه المطعم.

الحقيقة إنه تقريبا لا أحد يتحدث عن تريسا اجيليرا على الإطلاق، وهذه "تقريبا" انتهت منذ أن ماتت جدتى الكوبية، الوحيدة التى كانت تشير إليها فى بعض الأحيان، كما لو كان بشكل عفوى أو من الممكن عدم ذكرها، رغم أنه فى بيتها كانت تريسا حاضرة دائما ومرئية فى شكلٍ لوحة زيتية رُسمت لها بعد وفاتها منقولة عن صورة فوتوغرافية.

وفى بيتى، بيت أبى بالطبع، كانت ولا تزال هناك صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود التى استخدموها لرسم اللوحة الزيتية، والتى كان رانز وخوانا يلقيان عليها نظرة عابرة من وقت لآخر. وجه تريسا وجه امرأة واثقة وحاد فى هذه الصورة، امرأة جميلة بحاجبين حادين بخط واحد ولها نقطة عميقة عند الذقن - تبدو كظل - الشعر فاحم ومعقود عند العنق والخط الفارق بالمنتصف يؤكد ما يسمونه ملمح الأرملة، العنق طويل والفم كبير وفم امرأة (ولكنه فم مختلف عن فم أبى وفمى) والعينان فاحمتان أيضا ومفتوحتان جدا، وتنظران بلا مواربة باتجاه هدف محدد، بقرطين صغيرين، ربما كانا من الحجر البحرى، والشفتان ملونتان رغم شبابها الظاهر، كما كان معروفا عن الفتيات المهذبات فى تلك الفترة التى كانت فيها فتاة شابة أو كانت لا تزال على قيد الحياة.

بشرتها شاحبة جدا، واليدان معقودتان والذراعان مرتكزتان على الطاولة، ربما كانت طاولة طعام أكثر منها طاولة مكتب، رغم أنها لا تبدو بشكل ظاهر لمعرفة ذلك والخلفية شاحبة جدا، ربما كانت صورة ملتقطة فى الأستوديو. تحمل حقيبة بيد قصيرة، وربما كان الوقت ربيعا أو صيفا، كانت فى حوالى العشرين من عمرها،

وربما أقل، وربما لم تكن قد عرفت رانز بعد أو بعد التعرف عليه بوقت قصير.

كانت لا تزال عزباء، كان فيها شىء يذكرنى الآن بلويسا، رغم أننى شاهدت هذه الصورة قبل تعرفى على لويسا بسنوات طويلة. كل سنوات حياتى عدا السنتين الأخيرتين. وربما يعود ذلك إلى أن ما يراه الإنسان قليلا مما حوله وحول الإنسان الذى نحبه ونتعايش معه. لكن كليهما تحمل فى وجهها ملامح الثقة. تريسا فى صورتها ولويسا فى شخصيتها، كما لو كانتا لا تتوقعان خطرا على الإطلاق، لويسا على الأقل خلال يقظتها، عندما تكون نائمة فإن وجهها يكون أقل ثقة ويبدو كما لو كان جسدها معرضا للخطر.

لويسا واثقة من نفسها إلى درجة أنه فى الليلة الأولى التى أمضيناها معا حلمت، وقالت لى، حلمت بأونصات من الذهب، واستيقظت فى منتصف الليل بسبب وجودى، نظرت إلىّ بشىء من الغرابة، داعبت وجنتى بأظافرها وقالت: "كنت أحلم بأونصات من الذهب. كانت كالأظافر وشديدة اللمعان"، فقط شخص برىء جدا من يحلم بمثل هذا الحلم، ثم يحكى ما حلم به. وتريسا اجيليرا ربما كانت قد حلمت بتلك الأونصات الذهبية شديدة اللمعان خلال ليلة عرسها. فكرت فى هذا عندما نظرت إلى صورتها المعلقة فى بيت رانز بعد أن تعرفت على لويسا وكنت قد نمت معها.

لا أعرف متى التقطوا صورة تريسا ومن المؤكد ألا يعرف أحد على الإطلاق بشكل مؤكد: إنها صغيرة الحجم جدا، موضوعة فى إطار من الخشب، على حامل، ومنذ أن ماتت هى لم ينظر إليها أحد إلا من وقت لآخر، كما ينظرون إلى فازات أو إلى قطع زينة،

وحتى مثل اللوحات الموجودة فى البيت، يهمل النظر إليها بمجرد أن تتحول إلى جزء من المشهد اليومى.

ومنذ أن ماتت أمى أيضا فإن صورتها موجودة هناك، فى بيت رانز، أكبر حجما وأيضا لها لوحة رسمها بعد وفاتها كوستاردوى الشيخ عندما كنت مازلت أنا طفلا. إنها أمى خوانا، أكثر حيوية رغم أن الشقيقتين تشبهان بعضهما، فى العنق وتقاطيع الوجه والذقن تماما، تبتسم أمى فى صورتها وتبتسم فى اللوحة، كانت فى كليهما أكبر سنا من شقيقتها فى صورتها الصغيرة، الحقيقة أن تريسا لم تكن كبيرة أبدا، بفضل موتها المبكر ظلت الأصغر بلا شك، حتى أنا أعد أكبر منها سنا، الموت المبكر يحفظنا شبابا. تبتسم أمى أو تكاد تضحك: تضحك بسهولة، تماما كجدتى، الاثنتان، كما ذكرت من قبل، أحيانا كانتا تضحكان معا بصوت عال.

لكن لم أعرف حتى أشهر قليلة مضت أن خالتى المحتملة تريسا قد انتحرت بعد قليل من عودتها من رحلة شهر العسل مع أبى، وكان كوستاردوى الشاب الذى أبلغنى بذلك، وهو يكبرنى بثلاث سنوات وأعرفه منذ الطفولة، عندما كانت السنوات الثلاث تعتبر كثيرة، وإن كنت وقتها أتجنب التعامل معه قدر الإمكان ولم أتقبله إلا بعد أن أصبحنا يافعين، الصداقة أو التجارة التى كانت تربط أبوينا كانت تجمعنا، وأحيانا، رغم أنه كان دائما الأقرب إلى الكبار، لأنه كان يهتم بعالمهم، ولديه تشوق كبير ليشكل جزءا منه ويتعامل بشكل حر، فأنا أتذكره كولد أكبر من سنه أو فتى متطلع، رجل محكوم بالبقاء لزمن أطول فى جسد طفل صغير، مجبر على انتظار غير مقبول، ليس لأنه يشارك فى حوارات الكبار، بل لأنه كان يفتقد

إلى الحضور ـ كان يستمع فقط ـ، كان فريسة لحالة غامضة تسيطر عليه، لا تليق بفتى، مما كان يجعله فى حالة انتظار وشرود من خلال النظر عبر النوافذ كمن ينظر إلى العالم الذى يجرى من حوله بسرعة وغير مسموح له بعد باللحاق به، كالسجين الذى يعرف أنه لا أحد ينتظره ولا ينتظر شيئا لأنه غائب ووجوده مجرد متابعة زمن الوجود المحيط به، وهذا يعرفه أيضا من يموتون. كان يبدو ظاهرا عليه أنه كمن فقد شيئا ويعى ذلك بشكل مؤلم، إنه مثل أولئك الأشخاص المتطلعين إلى الوجود فى عدة مراحل من الحياة فى وقت واحد، متعدد ولكنه غير قادر على التحقق: يفزعه تحقيق التوحد.

عندما كان يأتى إلى البيت ويجب عليه الانتظار معى حتى تنتهى زيارة أبيه لأبى، كان يقترب من الشرفة ويعطينى ظهره طوال خمس عشرة أو عشرين دقيقة وربما لنصف ساعة، دون أن يلتفت إلى الألعاب المتعددة التى أحاول عرضها أمامه. ولكن رغم سكونه فلم يكن باديا عليه أنه يتأمل شيئا، ويتمسك بيديه المعروقتين بالستائر التى يفتحها كمن وجد نفسه سجينا وغير قادر على التطبع مع ملمس الحبال الذى يربطها. كنت ألعب خلف ظهره محاولا عدم لفت انتباهه بشكل ملحوظ، كنت أحيط نفسى بمكانى، دون أن أنظر ولو إلى عنقه العارى ولا لعينيه اللتين تتطلعان إلى الخارج فى شوق للخروج والتعامل بحرية.

كان فى كوستاردوى شىء من ذلك الملمح الأخير، خاصة بعد أن علمه أبوه مهنة تزييف اللوحات ويكلفه ببعض الأعمال فى مرسمه. لهذا فإن كوستاردوى الفتى يملك مالا أكثر من أى فتى فى

مثل عمره، كان يمتلك استقلالية غير معهودة، وبدأ شيئا فشيئا يمتلك ناصية حياته، وبدأ يهتم بالخروج إلى الشارع ولم تعد تهمه المدرسة، وفى عمر الثالثة عشرة بدأ التعامل مع العاهرات المحترفات فيما كنت أنا أشعر تجاهه ببعض الخوف، أولا بسبب السنوات الثلاث التى يكبرنى بها والتى كانت تسمح له بالتغلب علىّ فى الشجار الصغير الذى ينشب بيننا فى بعض الأحيان، كثيرا ما كان ينفجر فى حالة غضب بسبب ميوله العدوانية ولكنه كان باردا حتى فى شجاره. عندما كان يتشاجر معى، ورغم ما أبذله من مقاومة قبل استسلامى فقد ألاحظ أنه لا يتغير لونه ولا يبدو عليه الغضب، فقط يمارس عنفا باردا وتطلعا لإخضاعى.

ورغم أنى زرته فى بعض الأحيان فى مرسم والده الذى أصبح الآن ملكه، لم أشاهده يرسم أبدا، ولم أشاهد لوحاته التى تفتقد إلى النجاح ولا لوحاته المزيفة التى تمنحه الكثير من المال، كان يتمتع بحس تقنى عال ولكن بشكل تقليدى: يظل لساعات طويلة محبوسا بمفرده وبين يديه فرشاته وألوانه ناظرا إلى القماش الأبيض، وربما هذا يفسر حالة الغليان التى يعيشها وتطلعه إلى إجبار الآخرين على الاستسلام.

منذ الطفولة توقفت كثيرا أمام أفعاله وبشكل خاص الجنسية منها (تعلمت منه كل شىء تقريبا فى مراهقتى وربما قبل ذلك) وأتساءل أحيانا إن كان حب أبى له خلال السنوات الأخيرة يعود إلى ذلك، منذ موت كوستاردوى الشيخ ربما كان ذلك السبب. فالرجال القلقون، كلما تقدم بهم العمر زاد تطلعهم للاستمتاع بالحياة، حتى لو كانت قواهم لا تسمح لهم بذلك لأنهم عندها يبحثون عن رفقة

من هم على استعداد للتعرف من خلالهم على ما يمكنهم سماع ما فقدوه هم، ويسمح لهم بمد عمرهم الافتراضى الذى انتهى. كان أبى يحب الاستماع إليه.

أعرف أن بعض العاهرات هربن بعد قضاء ليلة مع كوستاردوى الابن ولم ترغب بعضهن حتى مجرد الكشف عن ما حدث معهن، ولم يكشفن أنه أخذ معه اثنتين معا إلى الفراش وحتى أنهن ذهبن لتشجع كل منهما الأخرى، لأنه منذ مراهقته كان كوستاردوى محبا للتناسخ والتعدد للتأكيد على قدرته منذ زمن بعيد. مع مرور الأيام أصبح كوستاردوى أكثر تحفظا، وحسب ما أعرف، فهو لا يتحدث عن أسباب هربهن منه، ولكن ربما كان يتحدث فى هذا سرا مع أبى، الذى يعتبره عرابه تقريبا. وكان أبى يحب الاستماع إليه، والحقيقة أنهما يلتقيان كثيرا منذ سنوات مضت، وكوستاردوى يزور رانز فى بيته مرة فى الأسبوع، أو يذهبان معا لتناول العشاء، وربما يذهبان بعد ذلك إلى مكان غير مناسب، أو يرافقه لتوصيل بعض الطلبات أو يزوران شخصا آخر، وربما يزورانى على سبيل المثال أو يزوران لويسا أثناء غيابى، أحيانا خلال زيارة أبى لزوجة ابنه الجديدة، ربما كان كوستاردوى يرفه عن أبى.

فى الوقت الحالى، ومع اقترابه من الأربعين، كان يطلق شعره المضموم كالذيل على قفاه الذى كان حليقا فيما مضى، وسوالفه أصبحت غير اعتيادية وأكثر طولا مع مر الزمن، مثيرة للانتباه على أى حال نظرا إلى أنها جعداء وأكثر سوادا من شعر ذقنه الأكثر نعومة، ربما يطلق السوالف والشعر حتى لا يبدو فى عالمه أكثر تحفظا من غيره من الفنانين من صعاليك الليل، رغم أنه فى الوقت

نفسه يرتدى ملابس أكثر كلاسيكية بشكل مبالغ فيه ـ دائما ما يرتدى ربطة عنق ـ ويحاول أن يبدو فى ملابسه أكثر أناقة. يطلق شاربه بعض الأشهر وبعدها يحلقه لفترة أخرى، ربما كان تشككا فى وجهة نظر أو أنها طريقة ليبدو كما لو كان أكثر من شخص.

مع تقدمه فى العمر بدأ وجهه يتخذ طابعا كان ينحو إليه منذ طفولته وأكثر ربما خلال مراهقته: وجهه كطابعه، متطلع وبارد، له جبهة عريضة وجوانب متداخلة وأنف حاد بعض الشىء، وأسنان تلمع فتضىء وجهه عندما يبتسم بشكل أليف، لكن ابتسامته غير دافئة، وله عينان سوداوان جدا ومتسعتان ومتباعدتان ولا تكاد توجد لهما رموش، وهذا النقص وذلك التباعد يجعل نظرته غير مقبولة بالنسبة للنساء اللاتى يحاول غزوهن أو شراءهن، وكذلك بالنسبة للرجال الذين ينافسهم، وإن كان متناغما مع العالم الذى يجرى من حوله ويشكل جزءا من جريانه الخشن.

كان هو من حكى لى ما حدث قبل عدة أشهر أو سنة تقريبا بعد عودتى بقليل من هافانا والمكسيك ونيو أورليانز وميامى بعد رحلة شهر العسل، حكى لى أن هذا حدث حقيقة مع خالتى تريسا قبل أربعين عاما، كنت فى طريقى لرؤية أبى فى بيته، لتحيته بعد عودتى ولأحكى له رحلتى، عندما التقيت كوستاردوى على مدخل البيت كانت هيئته النحيلة متوقفة فى لحظة الغسق.

ـ غير موجود ـ قال لى ـ خرج لأمر عاجل ـ وغمز بعينيه يعنى رانز ـ طلب منى أن أنتظرك بضع دقائق لأقول لك ذلك، اتصل به تليفونيا أحد الأمريكيين وخرج مسرعا، لا أعرف من ومن أى متحف، سوف يتصل بك الليلة أو غدا. هيا أنت وأنا لنشرب شيئا.

أمسك بى كوستاردوى الشاب من ذراعى وبدأنا فى السير، شعرت بيده الباردة والمتشبثة التى أعرفها جيدا منذ الطفولة، لقد كان صبيا والآن هو رجل بقوة شديدة، قوة عصبية، ومركزة، آخر مرة شاهدته فيها كانت قبل أسابيع من الآن، يوم عرسى الذى يبدو أنه بعيد، وكان قد حضر بناء على دعوة من رانز، وليس منى، فقد كان قد وجه الدعوة إلى عدة أشخاص. وما كان يجب أن أعترض، لا على هذا ولا على كوستاردوى. لم يكن لدى الوقت لأتحدث معه عن ذلك، فقط أخبرنى بمكان الكازينو بابتسامته الرقيقة الأقرب إلى الضحكة، شاهدته بعدها خلال الحفل من بعيد وهو يتطلع من حوله باهتمام، لقد كان الحفل فى الواقع عائليا. فهو دائما ما يتطلع إلى النساء باهتمام وإلى بعض الرجال أيضا ـ الرجال الخجولين ـ ربما يعتقد أنه سيعثر على عينيه تماما كيديه. فى ذلك اليوم لم يكن له شارب كما هو الآن، بعد أسابيع من الحفل، فقد كان قد نما تقريبا، وإن لم يصل إلى حجمه العادى بعد، تركه ينمو خلال رحلتى مع لويسا.

فى بار بالمورال طلب زجاجة بيرة، لم يشرب شيئا آخر مطلقا، وربما لهذا السبب بدأت نحافته تغادره فى مكان الكرش (ولكن رباط العنق دائما ما يخفيه). حدثنى لبعض الوقت عن المال، بعدها عن أبى، الذى يبدو أنه فى وضع جيد، ثم عاد مجددا للحديث عن المال الذى كان يكسبه، كما لو كان آخر ما يهمه وضعى العائلى الحالى، لم يسألنى، عن الرحلة ولا عن عملى أو رحلاتى المستقبلية إلى جنيف أو لندن أو حتى بروكسيل، فهو ما كان له أن يعرف ذلك، كان عليه أن يسأل، ولم يفعل. فقد كان أبى قد خرج، وأنا كنت أود العودة إلى البيت لألتقى بلويسا وربما نذهب إلى السينما، لم يكن

لدى شىء أتبادله أبدا مع كوستاردوى. خرج أبى لأن أحدهم اتصل به ربما من متحف مالابو أو بوسطون أو بالتيمور، فلم يعودوا يتصلون به تقريبا رغم أن عينيه ومعرفته لا تزال كما هى دائما أو ربما أعلى، من الشاذ الآن طلب رأى الشيوخ أو يستشيرونهم فقط فيما هو مهم، وربما من اتصل به كان مارا بمدريد ولم يجد من يتناول طعام العشاء معه، وهو ربما فكر أنهم يحتاجونه من أجل استشارة، أو لوحة كانت مختفية، أو لعمل ما فى مدريد. إضافة إلى أننى أظهرت رغبة فى الانسحاب، لكن حينها عاد كوستاردوى إلى وضع يده على كتفى- كانت يده كثقل- وأوقفنى بهذه الطريقة.

- ابق لبعض الوقت - قال لى - لم تخبرنى أى شىء عن زوجتك الجميلة جدا.

- أنت ترى كل النساء جميلات. ليس لدى الكثير لأحكيه.

كان كوستاردوى يشعل ولاعته ويطفئها. ويبتسم بأسنانه الطويلة ويراقب الشعلة التى تظهر وتختفى.

حتى هذه اللحظة لم يكن ينظر إلىّ، وفقط بطرف إحدى عينيه المتباعدتين التى كانت تدور لتسيطر على المكان.

- ربما لديك شىء، فيما أعتقد، حتى تتزوج بعد كل هذه السنوات، فأنت لست طفلا، وإلا تكون قد أصبت بالجنون. الناس يتزوجون حين لا يكون هناك مهرب من ذلك، رعبا أو بسبب القنوط أو حتى لا يخسروا شخصا لا يحتملون فقدانه، دائما هناك حديث كثير يبدو تقليديا، هيا، احك لى حكايتك، قص علىّ ما تفعله مع البنت.

كان كوستاردوى همجيا وفيه بعض الطفولية، كما لو كان فى انتظاره الطويل للوصول إلى السن الحيوى خلال طفولته فقد شيئا منها مرتبطا به دائما وبعمره الحيوى. كان يتحدث بكثير من التعقيد، رغم أنه معى يسيطر على نفسه قليلا، أى يتحدث بهدوء وبنبرة غير محكمة أو بمفردات خشنة، سواء كان معى أم بمفرده، مع صديق آخر كان يمكنه أن يطلب منه أن يكشف له عن عورة زوجته وربما طلب منه أن يخبره كيف يمارس الحب معها، كلمات من الصعب ترجمتها من حسن الحظ لا يذكرها أحد مطلقا فى المنظمات الدولية، حينها أكون فى حاجة إلى بعض الجنون.

ـ عليك أن تسألنى ـ قلت أنا لأحول كلامه إلى مجرد مزحة.

ـ هيا، سأدفع لك، كم تريد؟ لتكن البداية كأسا من الويسكى؟

ـ لا أريد كأسا آخر من الويسكى، ولا حتى هذا، دعنى فى حالى.

كان كوستاردوى قد وضع يده فى جيبه، فهو واحد من أولئك الرجال الذين يحملون فى جيوبهم أوراقا مالية متفرقة، ولقول الحقيقة، أنا أيضا أفعل هذا.

ـ لا تريد أن تتحدث عن هذا؟ أمر يستحق الاحترام، لا تريد أن تتحدث عن هذا. فى صحتك وصحة البنت. ـ رشف قليلا من البيرة، نظر من حوله بينما كان يجفف فمه بالشفاه نفسها. كانت هناك امرأتان فى حوالى الثلاثينيات جالستين على البار، واحدة منهن التى كانت فى المواجهة (لكن ربما كانتا الاثنتين) تبرز سمانة ساقها بقصدٍ أو عن غير قصد. كانت سمانة سمراء أكثر من المعتاد فى وقت الربيع، تكاد تكون خلاسية، اسمرار من حمّام السباحة

والدهانات فى أفضل الحالات. ركز كوستاردوى الآن نظره علىّ بعينيه الواسعتين وأضاف ـ على أى حال أتمنى أن يكون حظك أفضل من والدك، ولا أريد أن أكون حسودا، امسك الخشب، يا لها من رحلة حياته تلك، ولا حتى باربازول (اللحية الزرقاء)(*)، من حسن الحظ أنك لم تسر على خطاه، فالرجل هرم.

ـ المسألة ليست بهذه البشاعة ـ قلت أنا، فكرت على الفور فى خالتى تريسا وفى أمى خوانا، كلاهما ماتت، كان كوستاردوى يشير إليهن، ويجمعهن فى موتهن بمبالغة أو بسوء نية، "ولا باربازول، كان قد قال، "مبالغة، ولا باربازول. لا أحد يذكر باربازول.

ـ آه، لا؟ ـ قال ـ الأمر توقف عند أمك، لو لم تحترس ما كنت أنت موجودا فى هذه الدنيا، لكن بص، وهى أيضا تمكنت من تخطيه، ليس هناك من يقدر عليها، رحمها الله، هه؟ ـ أضاف باحترام ساخر، كان يتحدث عن رانز بشىء من الأسى، وربما بإعجاب.

نظرت إلى المرأتين، اللتين لم تهتما بنا، كانتا غارقتين فى حديثهما، (من المؤكد أنها حكاية مسلسلة) والذى كان من وقت لآخر تصلنا جملة منه منطوقة بصوت مرتفع، (لكن هذا قوى جدا، سمعت التى تعطينا ظهرها تقول ذلك بدهشة حقيقية، والأخرى التى تبرز سمانة ساقها بلا اهتمام ويمكن من جزء آخر رؤية طرف لباسها الداخلى، افترضت أنها قوية جدا سمانتها السمراء مما

(*) باربازول أو اللحية الزرقاء إحدى القصص التى جمعها الكاتب الفرنسى تشارلز بيرالت (١٦٢٨ ـ ١٧٠٣) فيما جمعه من حكايات شعبية أهمها "حكاية الأم أوزة".

دفعنى إلى التفكير فى مريم، المرأة التى كانت فى هافانا قبل أيام قليلة مضت. أى، أتذكر صورتها والتفكير فى أننى فى لحظات أخرى فكرت فيها، فقط قبل أيام، وربما جيبرمو، مثلنا نحن، عاد هو الآخر أيضا).

ـ هذه صدفة، لا أحد يعرف نظام الموت، كان من الممكن أن يكون هو، وأيضا يمكنه أن يدفننا نحن. لقد عاشت أمى سنوات كثيرة.

وأخيرا أشعل كوستاردوى الابن سيجارة وترك القداحة على الطاولة، ترك الشعلة وأخذ نفسا، كان يستدير من وقت لآخر ليلقى نظرة على السيدتين الجالستين إلى البار، ويدفع بالدخان تجاههن، انتظرت ألا يقوم من مكانه ويبدأ معهن أى حديث، وهو شىء كان كثيرا ما يفعله، وبطلاقة كبيرة وفى أحيان كثيرة دون أن يلقى مجرد نظرة مسبقة، مجرد نظرة تجد ردا أو حتى نظرة عابرة إلى المرأة التى سيبدأ معها حوارا. كان كمن يعرف من اللحظة الأولى أنها ترغب فى الكلام معه أو تعرف الأسباب التى يهدف إليها، سواء كان هذا فى مكان معين أو حتى فى الشارع، وربما كان يفتعل هو السبب والهدف. سألتنى من تهجم عليها فى حفل الكازينو، بمجرد أن رآها، عاد إلى النظر إلى فى المواجهة بعينيه اللتين كنت معتادا عليهما:

ـ كما تريد، إنها مجرد صدفة، ولكن ثلاث مرات يصبح الأمر أكثر من مجرد صدفة.

ـ ثلاث مرات؟

كانت تلك المرة الأولى فى حياتى التى أسمعه فيها يشير إلى السيدة الغريبة التى لا أرتبط بها بصلة دم، والتى أعرف عنها الآن

بعض الشيء ولكن ليس ما يكفي. ولن أعرف أكثر من ذلك مطلقا، هناك أناس عاشوا في الدنيا سنوات طويلة ولا يذكر أحد عنهم شيئا، كما لو لم يكونوا فيها، وفي هذه المرة لم أكن أعرف حتى أنه يشير إليها، أو إلى من يشير، فلم أكن أعرف عن وجودها أي شيء (ولكن ثلاث مرات يصبح الأمر أكثر من مجرد صدفة). في البداية حاولت أن أتناول الأمر على أنه مجرد خطأ أو التباس، وكوستاردوي، في البداية، جعل الجملة تمر على هذا النحو، ربما كان متوقعا أن يحدثني فقط عن خالتي تريسا أو ربما لم يقصد أي شيء، أن يحكي لي ما كان في تلك اللحظات مشاعر كارثية وأنا في الخطوات الأولى في الزواج، لذلك كنت أفضل ألا أعرف أي شيء، وإن كان من الصعب معرفة إن كان أحدنا يريد أن يعرف شيئا بمجرد أن تكون لديه الفرصة للمعرفة.

ـ أريد أن أقول اثنتين ـ قال كوستاردوي بسرعة، ربما كان كل هذا يتم دون تفكير مسبق ودون نية سيئة، لأنه كان من المحتمل ألا تكون ولا واحدة، عادية أو طيبة، وكوستاردوي ليس بالرجل المتأمل ولكنه يعرف ما يقول. ابتسم بسرعة (وبرزت أسنانه الطويلة لتشكل وجهه الحاد بشيء من الصداقة أو ما يشبه ذلك) في الوقت نفسه الذي كان يوجه الدخان باتجاه المرأتين: التي كانت تدير ظهرها لنا دون أن تعرف مصدر الدخان أبعدته عن نفسها بيدها كما تبعد ذبابة، وأضاف كوستاردوي دون توقف: - اسمع، وليس هذا واضحا، أنا لا أملك شيئا ضد والدك، بل العكس تماما، وأنت تعرف هذا جيدا، لكن عندما تنتحر واحدة منهن بعد العرس مباشرة لا يبدو ذلك بمحض الصدفة، وهذا لا يمكن أن يكون في نظام الموت كما تقول أنت.

ـ ماذا لو انتحرت؟

عض كوستاردوى على شفتيه فى حركة معبرة جدا ولا يمكن أن تكون عابرة. وعلى الفور نادى على الجرسون مشيرا بإصبعيه وانتهز الفرصة ليلقى نظرة على السيدتين، اللتين ظلتا دون أن تهتما بوجودنا رغم أن إحداهما انتبهت إلى دخاننا كما كانت قد انتبهت إلى وجود ذبابة. التى كانت فى مواجهتنا قالت بصوت مرتفع وضاحك: "حسنا، حسنا، حسنا، إنه يؤذينى" قالت ذلك بطريقة تعبر عن الرضاء وكان على وشك أن يمسد سمانتها، كوستاردوى على العكس كان منتبها إليهما تماما كانتباهه لحواره معى، فهو مزدوج دائما، دائما ما يريد أن يكون أكثر من واحد، وأن يكون هناك حيث لا يجده أحد، اعتقدت أنه سيقف وحاولت أن أمنعه: "ماذا تقول فى أنها انتحرت؟" لكنه توقف ليطلب من الجرسون كوبا آخر من البيرة.

ـ بيرة أخرى، لا تقل لى إنك لا تعرف ذلك.

ـ عن أى شىء تتحدث؟

دغدغ كوستاردوى شاربه الذى لا يزال فى طور النمو وصحح من وضع ضفيرته بحركة أنثوية. لا أعرف لماذا يحمل تلك الضفيرة الرديئة وسيئة التنظيف، يبدو بها كحرفى أو مراهق فى الثامنة عشرة، رشف البيرة. فى سن الأربعين تقريبا ولا يزال يتبع التقليعات، لديه فراغ، وربما فى حالته كان نتيجة مهنة الرسم.

ـ بها كثير من الرغوة ـ قال ـ إنها مؤذية ـ أضاف ـ ألا تعرف أنت أى شىء، أمر غريب، كيف تصمت العائلات أمام الأبناء، من يعرف ما تعرفه أنت عن عائلتى فيما أنا لا تكون لدى أدنى فكرة.

ـ لا أعرف ـ قلت أنا بسرعة.

عاد للعب بالشعلة، كان قد أطفأ سيجارته بشكل سيئ، كانت تصدر رائحة.

ـ أعتقد أننى تدخلت فيما لا يعنينى. سيغضب رانز كثيرا، أنا لم أكن أعرف أنك لا تعرف كيف ماتت شقيقة أمك.

ـ بالمرض، هذا ما قالوه لى دائما. وأنا لم أسأل كثيرا عن ذلك، والآن ماذا تعرف أنت؟

ـ ربما لا يكون صحيحا، منذ سنوات طويلة حكاه لى أبى.

ـ ماذا حكى لك؟

رشف كوستاردوى بأنفه مرتين. خلال تلك اللحظات لم يذهب إلى الحمّام ولا مرة، لكنه شرب كما لو كان يعيد المشروب إلى جسده، أشعل ثم أطفأ شعلة القداحة.

ـ لا تقل لرانز إننى قلت لك، اتفقنا؟ لا أريده أن يغضب منى لهذا السبب. ربما كانت ذاكرتى رديئة، أو إننى فهمت خطأ.

لم أجب، كنت أعرف أنه سيحكى لى ذلك وإن لم أعده بشىء.

ـ ما الذى تتذكره؟ ماذا فهمت؟

أشعل كوستاردوى سيجارة من جديد. كانت حركاته غير مضبوطة: كان هادئا إلى درجة أنه أخرج كمية من الدخان باتجاه السيدتين (ذلك الدخان، كان أكثر كثافة وبطئا فى رحلته مما لو كان قد ابتلعه). التى كانت تولينا ظهرها استدارت لحظات، بشكل ميكانيكى، ونفخت جانبا لإبعاد الدخان. كانت هى الأخرى تبرز سمانة ساقها، لكن يبدو أنها لم تدخل حمّام السباحة بعد. وقعت

عينها على كوستاردوى، وإن كان لثوان قليلة، تمكنت خلالها رفيقتها من أن تقول بحزم تجاه الشخص الذى تحدثه: "يكاد يجن بى لكن لا أحب وجهه، وهو ثرى جدا، أنتِ ماذا تفعلين لو كنتِ مكانى؟».

- خالتك أطلقت على نفسها رصاصة بعد عودتها من رحلة شهر العسل مع رانز. أنت تعرف هذا، إنها تزوجته.

- نعم، أعرف هذا.

- لقد دخلت إلى الحمّام، وقفت أمام المرآة، وفتحت قميصها، ونزعت حمالات الصدر، وبحثت عن قلبها بمقدم مسدس أبيها، الذى كان فى غرفة الطعام مع بعض أعضاء العائلة ومجموعة من المدعوين. هذا ما أذكره مما حكاه لى أبى.

- فى بيت أجدادى؟

- هذا ما فهمته.

- هل كان أبى هناك؟

- لا فى تلك اللحظة لا، جاء بعدها بقليل فيما أعتقد.

- لماذا انتحرت؟

جفف كوستاردوى أنفه، ربما كان مصابا بنزلة برد ربيعية، وإن كان حسب المودة لم يكن يدخل الحمى بكاملها، نفى بهزة من رأسه.

- ليست لدى أدنى فكرة عن هذا، ولا أعتقد أن أبى كان يعرف هذا، أو لم يقله لى، إذا كان هناك من يعرف فهو أبوك، وربما كان هو لا يعرف، ليس من السهل معرفة سبب انتحار الناس، حتى الأقربين، كل الناس مصابة بشىء ما، كل الناس تمر بظروف صعبة، فى بعض الأحيان بلا سبب أو فى أغلب الأحيان يجرى الانتحار

سرا، الناس تدفن رأسها فى المخدة وتنتظر اليوم التالى. وفجأة لا ينتظرون، لم أتحدث أبدا مع رانز عن هذا الموضوع، كيف يمكن سؤال صديق عن زوجته التى أطلقت على نفسها الرصاص بعد زواجها منه؟ حتى لو مر على هذا قرون، لا أعرف، يمكننى أن أسألك أنت لو حدث لك نفس الشىء، ولا أريد أن أكون حسودا، امسك الخشب. ولكن ليس صديقا يكبرنى بسنوات عديدة وأحترمه جدا، الاحترام يمنع بعض الأحاديث، ولا يجب الدخول فيها أبدا.

- نعم، الاحترام يمنع.

لقد عاد إلى ذكر كلمة "حسود" فكرت بشكل أوتوماتيكى فى ترجمتها إلى الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية، لغاتى، لم أعرف الكلمة فى أى منها، "عين حسودة" نعم، "yetatura" "evil eye" لكنها لا تحمل المعنى نفسه، وفى كل مرة يعلن فيها عن الإمساك بالخشب لا يفعل، بل يمسك بزجاج الدورق، أنا، على عكسه، أمسك خشب الكرسى.

- معذرة، كنت أعتقد أنك تعرف هذا.

- بالنسبة للأطفال يقدمون لهم تفسيرات مهذبة لما يحدث، وأنا أعتقد أنه بعد ذلك يصبح من الصعب خداعهم. لا يمكن العثور على اللحظة المناسبة، عندما نتخطى سن الطفولة، من الصعب وضع خط معين، عندما يكون الوقت قد مر للاعتراف بأكذوبة قديمة أو الكشف عن حقيقة خافية. ويتم ترك الزمن يجرى، افتراضيا، ومن قيلت له يعتقد فى صحة الأكذوبة أو الحقيقة الخافية، إلى أن يأتى شخص مثلك ويخطئ وينهى ما تم تعليمه بالصمت خلال حياة كاملة.

"عين حسودة"، وبالفرنسية لم أكن أعرفها، كنت أعرفها لكنى لم أعد أذكرها الآن، " "guignon" فجأة تذكرتها. "أرجو ألا تجلب لى النحس بهذه الأشياء"، سمعت هذا تقوله تلك المرأة النوبية ذات البشرة المحترقة، كانت معبرة، كان صوتها مبحوحا، واحدة من تلك الإسبانيات التى لا تحسب مدى حدة رنة صوتها ولا مدى كلماتها ولا خطورة إشاراتها ولا طول فستانها.

كثيرا ما تصدر عن الإسبانيات كلمات قبيحة من خلال نظراتهن وبالكشف عن سمانات سيقانهن المتعارضة، إنه إرث إسبانى فى كوبا تلك الذراع الممتدة من ميامى، وأيضا بصراخهن وكعوبهن العالية وسيقانهن التى تشبه الشفرات ("أنت لى"، "سأقتلك"). لويسا ليست مثلهن، والأجيال الجديدة يحتقرونهن أيضا ولكن بأكثر حدة.

لويسا أكثر رقة، ولديها إحساس بالاستقامة يجعلها أحيانا تبدو جادة، وأحيانا أخرى تبدو أنها لا تعرف المزاح، هى تعتقد أننى الآن موجود مع أبى، ولكن أبى خرج على غير المتوقع ولهذا السبب أستمع الآن إلى اكتشافات كوستاردوى، لو كانت صحيحة، وربما يجب أن تكون كذلك، فأنا لم أكن قادرا أبدا على الاختراع، كان هو دائما ما يشكل مواقفه كما يريد، وربما لهذا السبب تغلب على ما مر به وتمكن من التغلب على ازدواجيته، لأنه بهذه الطريقة فقط يمكنه أن يحكى، وبهذا فقط يؤكد ما لا يُؤكد.

هناك من لا يعرفون قدرتهم على التخيل، من هو غير قادر على تخيل أى شىء هو عديم المواجهة مع ما لا يكون محتمل الوقوع، لأن التخيل يمكنك من تجنب الكثير من الكوارث، من يسبق

موته الشخصى، نادرا ما ينتحر، ومن يسبق موت الآخرين نادرا ما يرتكب جناية القتل، ويفضل القتل والانتحار بالتفكير فقط، فهذا لا يترك آثارا جانبية ولا آثارا تكشف عن الجريمة، وحتى بالإشارة البعيدة من الذراع التى يمسك بها، المسألة متعلقة بالمسافة والزمن، كلما كان بعيدا عن السكين بعض الشىء، يضرب الهواء بدلاً من ضرب الصدر، لأنه حينها لا ينغرس فى اللحم الأسمر أو الأبيض بل يعبر المسافة ولا يحدث أى شىء، لأن مسيرته لا تكتمل ولا تترك أثرًا.

ولا يمكن تجريم النيات، ولا المحاولات الفاشلة التى كثيرا ما يجرى إخفاؤها، وحتى يمكن لمرتكبيها أن ينكروها، فالهواء هو نفسه ولا يجرح البشرة ولا اللحم يتغير ولا يخدش أى شىء، فالمخدة غير مؤذية وتكبس وتترك أثرا فى الوجه، وبعدها يصبح كل شىء كالسابق؛ لأن تراكم الضربات التى لا تُوجه إلى أحد والاختناق الذى لا يُوجه إلى أى فم لا يمكن أن يغيرا الوضع، وحتى التكرار يصبح لا معنى له، ولا إعادة تكرار المحاولة، ولا التنفيذ المحبط، والواقع لا يُضاف إليه أى شىء. كلها تصبح تماما مثل إشارة مريم وكلماتها ("أنت لى"، "أنت مدين لى"، لن أتركك"، "أنت معى حتى الجحيم") كل هذا لم يمنع القبلات التى تلت كل هذا والترنم فى الحمّام المجاور للرجل ذى الذراع الأعسر، جييرمو هذا كان اسمه، من قالت له: "إما هى أو أنا، ستحصل فى النهاية على قتيلة".

- هل تدخلت فيما لا يعنينى- قال كوستاردوى الابن- لكنى أعتقد أنه من الأفضل العلم بالأشياء، وأن العلم بكل شىء متأخرا أفضل من عدم العلم به. لقد حدث هذا قبل زمن طويل، والحقيقة ماذا يفيد معرفة كيف ماتت خالتك.

حدث لأبى أنه عايش ميتة، ميتة حقيقية، والتى بالضبط لا يمكن أن تكون فى نظام الموت، كما قال كوستاردوى من قبل. هناك من يموتون بأيديهم، هل هناك من سيموت على يدى. وكان قد قال أيضا: "لكن ثلاث مرات ليست من الصدفة فى شىء"، وبعدها صحح ما قاله. شككت فى العودة إلى ذلك، لو أننى ألححت عليه لكان حكى لى ما يعرف، كان متأكدا، شىء جزئى أم خطأ، شىء، لكن من المحتمل عندما لا تريد أن تعرف شيئا أو تعرف بعض الشىء، بعدها لا تكون لديك رغبة، هو محق فى هذا. من الأفضل معرفة الأشياء، لكن فقط عندما يحين موعد معرفتها (أنا لم أكن أعرف).

حينها عادت إلىّ ذكرى من الطفولة، منذ تلك ـ الطفولة ـ هناك القليل أو غير الواضح يضيع، تلك المشاهد التى لا قيمة لها والتى تعود فجائيا كما لو كانت تمثيلا أو لحظة تعيد إلى الحاضر ما كان ماضيا، الذكريات نفسها تأتى مشكوكا فيها عندما نتذكرها. كنت ألعب وحيدا مع جنودى الرصاصية فى بيت جدتى الهافانية فيما كانت هى تروح عن نفسها، كما كان يحدث كثيرا فى أمسيات أيام السبت والتى تتركنى فيها أمى مع الجدة. ولكن هذه المرة كانت أمى متوعكة وجاء رانز ليأخذنى قبل العشاء بقليل. قليلا ما شاهدتهما معا، أبى وجدتى، دائما ما توجد أمى تحاول التوفيق بينهما أو تقف بينهما، فى تلك المرة، رن جرس الباب مع الغروب وسمعت خطوات رانز فى الممر الطويل متتبعا خطوات الخادمة حتى الغرفة التى كنت فيها مع الجدة، وأنا أحاول إنهاء لعبتى الأخيرة، وكانت هى تدندن وتضحك من وقت لآخر ردا على تعليقاتى، كما يضحك الأجداد عادة أمام أى شىء يقوم به الأحفاد.

كان رانز لا يزال شابا وقتها رغم أننى لم أكن أراه كذلك، لقد كان أبًا، دخل الغرفة ومعطفه على كتفه، وفى يديه قفازات خلعها قبل قليل، كان الوقت باردا، كنا فى الربيع، بدأت جدتى فى الترويح بالمروحة كما هى دائما قبل وقت الحاجة إلى المروحة، ربما كانت طريقتها فى استدعاء الصيف، أو ربما كانت تروح على نفسها فى جميع الفصول. قبل أن ينطق رانز بأى شىء سألته هى على الفور: كيف حال خوانا؟ قال أبى:" يبدو أنها أفضل، لكنى لم آت من البيت الآن". "هل ذهبت إلى الطبيب؟"، "عندما خرجت لم تكن قد ذهبت بعد، أخبرتنى ألا أعود حتى ساعة متأخرة، ربما تكون هناك الآن، لنهاتفها إذا أردت؟" لا شك أنهما ربما قالا شيئا أكثر من هذا، وربما هاتفها، لكن ذاكرتى (جالسا على طاولة أمام كوستاردوى) ركزت على ما قالته الجدة لأبى بعدها بقليل: "لا أعرف كيف تملك القدرة على الذهاب إلى أى مكان فيما خوانا مريضة. لا أعرف كيف لا تجلس للصلاة وتعقد أصابعك عندما تصاب زوجتك بالبرد، لقد فقدت اثنتين من قبل يا ابنى"، تذكرت أو أعتقد أننى تذكرت أن جدتى سرعان ما وضعت يدها على فمها، أقفلت جدتى فمها للحظات كما لو كانت تحاول أن تمنع خروج كلمات كانت قد خرجت، وأنا سمعتها، ولم أنتبه وقتها لها، وربما أبديت فقط اهتماما لأنها أغلقت فمها بيدها لتوقف الكلام، لم يجب أبى.

والآن تلك الحركة التى مر عليها خمس وعشرون سنة أو أكثر تكشف عن معناها، وربما قبل سنة واحدة كشفت عن معناها، عندما كنت أجلس فى مواجهة كوستاردوى وأفكر فيما قاله: "ثلاث مرات أكثر من صدفة"، ثم صحح ما قاله، وبعدها تذكرت أن جدتى

قالت بدورها: "لقد فقدت اثنتين من قبل يا ابنى"، ثم ندمت. لقد نادته بـ"ابنى"، رانز، زوج ابنتها مرتين أو زوج ابنتها لمرتين.

لم ألح على كوستاردوى، لم أرغب فى معرفة المزيد فى تلك اللحظة، إضافة إلى أنه تحول هو إلى الحديث عن شىء آخر.

ـ هل لديك رغبة فى هاتين؟ ـ قال لى فجأة، كان قد استدار بجسده كله تقريبا وكان يحملق بلا خجل أو مداراة إلى المرأتين ثلاثينيات العمر، وهن استجابتا للنظرة المباشرة ودون تردد أو انتظار، وفجأة تحدثتا بصوت أكثر انخفاضا، عندما شعرتا بأنهما مراقبتان، ولافتتان للنظر، أو ربما كانتا محط إعجاب جنسى، الجملة الأخيرة قبل الانقطاع الفجائى للحوار كانت قد نطقتها التى تولينا ظهرها، جاءت تقريبا فى الوقت نفسه لصدور سؤال كوستاردوى، وربما سمعتاه رغم الوضع غير المريح، مؤكد أن كوستاردوى قد سألنى حتى تسمعاه، لكى تعرفا وحتى تكونا على علم بتلميحاته. "أنا زهقت من الرجال"، قالت ذات السمانة البيضاء. "هل ترغب فى هاتين الاثنتين"؟ هذا ما قاله كوستاردوى (أن تود أن يشعروا بك أمر سهل، يكفى أن ترفع صوتك). حينها كانتا قد سكتتا ونظرتا باتجاهنا، كانت وقفة ضرورية لمعرفة من منهما نرغب فيها.

ـ تذكر أننى تزوجت. الاثنتان لك.

رشف كوستاردوى مزيدا من البيرة ووقف وعلبة التبغ والقداحة فى يده (لم تعد هناك رغاو) رنت خطواته القليلة نحو البار، كما لو كانت أرضية حذائه من المعدن، وربما كانت مرتفعة، وفجأة بدا لى وكأنه أكثر طولا، عند ابتعاده.

كانت المرأتان تضحكان معه، وأخرجت أنا نقودى من جيب البنطلون وتركتها على الطاولة. خرجت دون أن أودع كوستاردوى (أو أشرت إليه بيدى من بعيد) ولم تعد المرأتان غريبتين عنه وأصبحتا حميمتين بعد قليل من البيرة واللبان والجن والتونكا والثلج، ودخان السجائر، والفول السودانى والضحكات واللسان فى الأذن وأيضا كلمات لن أسمعها أنا، والهمسات غير المفهومة التى تلفنا. الفم ملىء دائما وأكثر مما يجب.

تلك الليلة، كنت أشاهد العالم من على مخدتى ولويسا إلى جوارى، كما هى العادة بين المتزوجين حديثا، والتليفزيون أمامنا وفى اليد كتاب لم أكن أقرؤه، حكيت للويسا ما قاله كوستاردوى الشاب وأنه حكى لى ما أراد أن يحكيه. الوحدة الحقيقية للأزواج تنتج كلامًا، ولا تتحكم فيها الكلمات التى تُقال ـ التى تُقال برغبة القول، الكلمات التى لا يمكن الصمت عليها ـ التى لا تصمت ما لم نتدخل فيها بإرادتنا ـ الأمر لا يتعلق بأنه لا توجد أسرار بين أى شخصين يتقاسمان المخدة لأنهما يقرران ذلك، لأنه خطر جدا أن يظل سرا، إن لم يكتماه ـ عندما لا يكون محتملا ألا يتم تبادله وبالتالى تركه خارج النشاط الأساسى للأشخاص، على الأقل بين حديثى الزواج ولا يشعران بالخجل من الحديث، والحكى والتعليق والانفعال، جزء من النشاط اليومى لحديثى الارتباط، وليس فقط على المخدة يجرى تذكر الماضى وحتى الطفولة تعود إلى الذاكرة، والمعروف أن اللغة قديمة قدم البشر فحتى الأشياء التى لا قيمة لها تتخذ منحى مهما وتصبح ذات قيمة حتى يتم تذكرها بصوت عال.

ونكون على استعداد لنحكى قصة حياتنا بكاملها لمن يعتمد برأسه أيضا على مخدتنا كما لو كنا فى حاجة إلى أن يرانا هذا الشخص من البداية ـ وبشكل خاص منذ البدء، أى منذ طفولتنا ـ وأنه يمكنه أن يشارك من خلال الرواية فى جميع سنوات حياتنا والتى نتعارف خلالها والتى نرى أننا الآن ننتظرها، ليس فقط من خلال المقارنة والتوازى والبحث عن المشترك، ومعرفة أين كان الآخر فى المراحل المختلفة من وجودهم، وتخيل إمكانية التعارف غير المحتمل من الماضى، العشاق يعتقدون أن لقاءهم جاء متأخرا كثيرا كما لو كانت عواطفهم المشبوبة لم تكن مناسبة، أو أنها لم تكن على امتداد الزمن (الحاضر غير مؤكد) أو ربما لم يكن بينهم عاطفة مناسبة، ولم يتم الشعور بها أصلا، عندما كان كلاهما فى الحياة.

وهذا لا يعنى وضع نظام للتحقيق اليومى والذى لا يستطيع أى زوج الهرب منه كشىء روتينى ويومى حتى ينتهى إلى الاعتراف بكل شىء. ولكنه ليس أكثر من الحياة إلى جوار شخص آخر فنصبح مجبرين على التفكير بصوت مرتفع. والتفكير فى كل شىء مرتين، وذلك التفكير مرة بالذهن والأخرى من خلال الحكى، فالزواج مؤسسة روائية. أو أن هناك الكثير من الزمن الماضى الذى أمضياه معا (مهما كان الزمن قصيرا فى الزيجات الحديثة، فإن هذا يعنى أنه زمن طويل) كلا الزوجين (وبشكل خاص الرجل، فإنه يشعر أنه مذنب عندما يكون صامتا) يجب الاستعانة بما يفكر أو يخطر على باله، ليصرف نظر الآخر عن التفكير. وهكذا لا يبقى شىء يمكن أن يخفف من الواقع والأفكار التى لم ينقلها أحدهما إلى الآخر، أو الأفضل القول ترجمته بشكل زوجى.

والأفعال يجرى نقلها أيضا وكذلك أفكار الآخرين، التى اعترفوا لنا بها قبل قليل. ومن هنا جاءت تلك الجملة الاعتيادية التى تقول: "فى السرير يجرى الكشف عن كل شىء"، فليس هناك أسرار بين من يتقاسمان السرير، فالسرير كرسى الاعتراف. سواء كان نتيجة الحب أم نتيجة الحال على السرير ـ حكى، إخبار، إعلان، تعليق، إبداء رأى، إبعاد الشبهات، السماع والضحك، أو الكلام عن مشروعات فارغة ـ ويمكن خيانة الآخرين، الأصدقاء، والآباء، والإخوة، وكل من تربطنا بهم رابطة الدم والتفاهمات، والعشاق القدامى والماضى نفسه والطفولة كذلك، بل واللغة التى يتركون الحديث بها وبلا شك خيانة الوطن، وكل ما له علاقة بأسرار الفرد. وربما من له علاقة بالماضى.

ولإرضاء من نحب ننفى كل ما له وجود، إن القوة التى تمنحها المخدة تبعد عنها كل من ليس عليها. لأنها مكان بطبعه لا يسمح أن يضم أى شىء عدا الزوجين والعشيقين اللذين يبقيان بمفردهما، ولهذا السبب يتحدثان ولا يتركان شيئا، وبشكل عفوى. المخدة مستديرة وناعمة ولونها فى الأغلب أبيض. وكثيرا ما يتحول المستدير الناعم الأبيض إلى العالم نفسه، وعجلته الضعيفة.

حدثت لويسا فى السرير عن ما دار من حديث وعن شكوكى، والكشف عن الموت العنيف (طبقا لكوستاردوى) لخالتى تريسا واحتمالية أن أبى كان متزوجا مرة أخرى، وللمرة الثالثة التى كانت الأولى من بين زيجاته، وذلك قبل زواجه من الطفلتين والتى لم أكن أعرف عنها أى شىء، وأنها لم تحدث. لم تفهم لويسا أننى لم أواصل طرح أسئلتى، النساء لديهن حب استطلاع ويدخلن فى عملية بحث واستقصاء وإن كانت أيضا غير متواصلة. لا يتخيلن ولا

يشعرن مسبقا بمدى ما يجهلن. لما يمكنهن التوصل إليه أو فعله، ولا يعرفن أن الحوادث تقع وحدها، وأنه يمكن لكلمة واحدة أن تطلقها، لأنهن فى حاجة إلى التأكد. لا يتوقعن، ربما هن لديهن الرغبة الدائمة فى معرفة كل شىء، أولا لا يخشين ولا يتشككن فيما يُحكى لهن، ولا يتذكرن أنه بعد أن يعرفن فإن كل شىء يتغير فى أحيان، حتى اللحم والبشرة التى تنفتح أو تنجرح.

ـ لماذا لا تسأله أكثر من هذا؟ ـ سألتنى. كانت فى السرير مجددا، كما حدث فى هافانا فى تلك الأمسية، قبل أيام قليلة فقط، ولكنها الآن كانت فى طريقها أن تكون عادية، كما فى كل الليالى، ليلا، وأنا أيضا كنت تحت الشراشف التى كانت لا تزال جديدة جدا (جزء من الجهاز، فيما أعتقد، إنها كلمة غريبة وقديمة، ولا أعرف كيف يتم ترجمتها) فلم تكن مريضة بعد ولا تؤلمها حمالات الصدر، بل كانت ترتدى قميصا شاهدتها تلبسه قبل دقائق، فى الغرفة نفسها، وكانت قد استدارت مولية ظهرها عندما كانت تدخل فيه، لا تزال غير معتادة على وجود شخص آخر فى الغرفة، خلال سنوات قليلة، وربما أشهر، لن تنتبه إلى أننى موجود أمامها، أو ربما لا أصبح شخصا.

ـ لا أعرف إن كنت أريد أن أعرف أكثر ـ أجبتها.

ـ كيف يكون هذا؟ أنا نفسى لدى فضول كبير لأتبين ما قلته لى.

ـ لماذا؟

كان التليفزيون يبث برامجه ولكن بلا صوت. شاهدت على شاشته جيرى لويس، الممثل الكوميدى، كان فيلما قديما، ربما يعود إلى زمن طفولتى، ولم تكن تسمع أصوات غير أصواتنا نحن.

ـ كيف لماذا؟ إذا كان هناك شىء يمكن معرفته عن شخص أعرفه، فأحب أن أعرفه. إضافة إلى أنه أبوك. وهو الآن حماى، كيف لا يهمنى أن أعرف ما حجبه عنه؟ وأكثر لأنه أخفاه عنا. هل ستسأله أنت؟

ترددت للحظة، فكرت أننى أريد أن أعرف، ليس ما جرى ولكن إن كان حقيقة أم مجرد تخيل أم أنه مجرد ترهاتٍ فى حديث كوستاردوى. ولكن لو كان ما حدث حقيقة علىّ أن أواصل السؤال.

ـ لا أصدق هذا. إذا كان هو لم يحدثنى أبدا فى هذا الموضوع فإننى لن أجبره بعد كل هذه السنوات. فى إحدى المرات، فى زمن ليس ببعيد، سألته عن خالتى وقال لى إنه لا يريد أن يعود أربعين عاما للخلف. كاد أن يطردنى من المطعم الذى كنا فيه.

ضحكت لويسا، كل شىء يثير سخريتها، لأنها بالطبع لا ترى سوى الجانب الهزلى من كل الأشياء، حتى الأشياء المرعبة، الحياة معها حياة فى الجانب المرتبط بالكوميديا، هذا هو بالضبط، الشباب الدائم، كما الحياة إلى جانب رانز، وربما لهذا السبب أرادت امرأتان الحياة معه، أو ثلاث. ورغم أنها شابة فى الواقع ويمكن أن تتغير مع الزمن، فهى أيضا معجبة بأبى، وهى تستحوذ على اهتمامه، ولويسا كانت تحب الاستماع إليه.

ـ سأسأله أنا ـ قالت.

ـ أحذرك.

ـ إنه سيحكى لى كل شىء، من يعرف ربما انتظر طوال هذه السنوات حتى يظهر شخص مثلى، شخص ما يمكن أن يلعب دور الوسيط بينكما، أنتم الآباء والأبناء بلهاء فيما بينكم. ربما لم يقص

عليك أبدا حكايته لأنه لم يكن يعرف كيف يحكيها أو أنك أنت لم تسأله بشكل مناسب. وأنا أعرف كيف أجعله يحكى لى.

كان جيرى لويس يستعمل مكنسة كهربائية فى التليفزيون، وكانت المكنسة ككلب صغير وكانت تتمرد عليه.

- وإذا كان شيئا غير قابل للحكى؟

- ماذا تقصد؟ كل شىء قابل للحكى، يكفى أن تبدأ وتجرى كلمة بعد الأخرى.

- شىء لا يجب حكيه، شىء مضى زمنه، فكل زمن له روايته الخاصة. وإذا مرت فرصة الحديث عنه، حينها يصبح من الأفضل الصمت إلى الأبد، أحيانا، يمضى الوقت وتصبح الأشياء غير مناسبة.

- أنا لا أعتقد أن أى شىء يمكن أن يمضى وقته، كل شىء موجود هناك، فى انتظار حدوث ما يعيده. وأيضا، كل الناس تحب أن تروى حكايتها، حتى من ليس لديهم أى حكاية. ولو كانت الروايات مختلفة فإن المعنى فى النهاية واحد.

استدرت قليلا حتى أنظر إليها مواجهة، ستكون هناك دائما، إلى جانبى، كانت تلك الفكرة على الأقل، تشكل جزءا من حكايتى، فى سريرى الذى ليس سريرى ولكنه سريرنا، أو ربما كان سريرها، على استعداد لانتظار عودتها بفارغ الصبر، لو أنها ذهبت فى مرة من المرات. لمست نهدها بذراعى عندما تحركت، كان صدرها عاريا تحت القماش الرقيق، ظاهرا بعض الشىء تحت القماش الشفاف. تنبه ذراعى عند الملامسة، وحتى تنتهى الملامسة عليها هى أن تتحرك.

ـ انظرى ـ قلت لها ـ الأشخاص الذين يحتفظون بالأسرار لفترة طويلة ليس بسبب أنهم يخجلون منها أو للاحتماء بها، يكون أحيانا لحماية أشخاص آخرين، أو للإبقاء على صداقات أو حكايات حب، أو للحفاظ على علاقات زوجية، ولتكون الحياة أكثر رضاء بالنسبة لأبنائه أو لإبعاد بعض الخوف عنهم، لأنهم كثيرا ما يلفهم الخوف. أو ربما لا يريدون أن يأتوا إلى العالم بعلاقة ربما يتمنون ألا تحدث. ما لا نسيطر عليه نمحوه بعض الشىء وننساه شيئا فشيئا، ننكره، وعدم حكاية أى حكاية كمن يقدم للعالم جميلا صغيرا، ويجب احترام ذلك. وربما أنت لا تريدين أن تعرفى عنى كل شىء، وربما لا تريدين مع مرور الزمن، فيما بعد، ألا أعرف كل شىء عنك. عنا كل بمفرده، على سبيل المثال، قبل أن نتعارف. ولا حتى نحن نعرف كل شىء عنا نحن، لا فرادى من قبل ولا معا الآن.

ابتعدت لويسا عنى قليلا فى حركة طبيعية، أى، أبعدت نهدها عن مكان ذراعى، ولم تعد هناك ملامسة. التقطت سيجارة من على الكومودينو القريب منها، أشعلتها، وسحبت نفسين عميقين سريعين، وحاولت نفض رماد لم يتكون بعد، وفجأة بدت عصبية بعض الشىء، وبدت عليها الجدية على خلاف العادة. كانت المرة الأولى التى تذكر فيها الابن، لم يتحدث أى منا أبدًا عن هذا المشروع حتى تلك اللحظة، كان الوقت لا يزال مبكرا، وليس الآن، وأول إشارة لم تكن مشروعا، بل افتراضا ولإيضاح موضوع الكلام. ومع ذلك قالت:

ـ بالطبع أريد أن أعرف إن كنت تود قتلى فى يوم من الأيام، مثل ذلك الرجل فى فندق هافانا، ذلك الجيبيرمو ـ قالت ذلك بسرعة ودون أن تنظر إلى.

ـ هل سمعتِه؟

ـ بالطبع سمعته، كان هناك قريبا مثلك تماما، كيف لى ألا أسمعه.

ـ لم أكن أعرف. لقد كنتِ نائمة تحت تأثير الحمى، لهذا السبب لم أكلمك فى أى شىء.

ـ ولم تجبنى فى اليوم التالى، معتقدا أننى لم أكن واعية. أمكنك أن تحكيه لى كما تعودت أن تحكى لى كل شىء. أم ربما أنك لا تحكى لى كل شىء.

فجأة أصبحت لويسا غاضبة، ولكنى لم أستطع أن أعرف إن كان ذلك بسبب ما لم أحكه لها عما أعتقد أننى سمعته أم أن الغضب موجه إلى جييرمو، وربما ضد مريم، وربما ضد كل الرجال، لدى النساء إحساس بالجماعية وكثيرا ما يغضبن من جميع الرجال فى وقت واحد. وأيضا يمكن أن تكون غاضبة لأن أول ذِكر للابن كان افتراضيا وسريعا وليس ذكره كرغبة.

أخذت ريموت التليفزيون ومرت على كل القنوات بشكل سريع لتتركه فى النهاية فى القناة التى تبث صورة جيرى لويس وهو يحاول أكل طبق اسباجيتى: كان قد بدأ فى إدارة الشوكة وإدارتها لمرات عديدة حتى أصبحت ذراعه بالكامل غارقة فى الطبق. كان ينظر إليه بدهشة ويلقى إلى فمه كميات من الاسباجيتى. ضحكت كطفل، هذا الفيلم شاهدته فى طفولتى.

ـ ما رأيك فى هذا المسمى جييرمو؟ ـ سألتها ـ ماذا تعتقدين أنه سيفعل؟ ـ يمكننى الآن التقاط الحديث الذى لم نتحدثه

لحظتها، لا لويسا ولا أنا، ولا الحمى. يمكن لكل شىء أن يأخذ مكانه، ولكن لا شىء يعود على النحو الذى كان يمكنه أن يكون. والآن لم يعد يهم أى شىء، لقد عبرت عنه هى بقسوة وبلا أهمية، كانت قد قالت لى: "أريد أن أعرف إن كنت تفكر فى يوم من الأيام فى قتلى"، لم أكن قد أجبتها بعد عن هذا، عدم الإجابة يصبح سهلا بين من يحكون لبعض كل شىء، ويتحدثون بلا توقف، فالكلمات تتراكم والأفكار لا تبقى طويلا وتختفى، رغم أنها تعود أحيانا، لو ألححنا.

ـ الأسوأ من كل هذا أنه لن يبقى شىء فى النهاية ـ قالت لويسا ـ كل شىء سوف يستمر كما هو حتى الآن، مريم تلك ستظل تنتظر والزوجة تحتضر، هذا إذا كانت مريضة أو موجودة أصلا، كما تشككت الأخرى.

ـ لا أعرف إن كانت مريضة، لكن من المؤكد أنها موجودة ـ قلت أنا ـ ذلك الرجل متزوج ـ أكدتُ.

لم تنظر لويسا إلىّ بعد، كانت تتوجه إلى جيرى لويس وتهمهم. إنها أكثر شبابا منى، ومؤكد أنها لم تشاهد الفيلم فى طفولتها. كانت لدى رغبة فى رفع صوت الفيلم لكنى لم أفعل، لأن هذا كان يمكن أن ينهى الحوار. إضافة إلى أنها كانت تمسك بالريموت فى يدها، وفى اليد الأخرى السيجارة التى وصلت إلى منتصفها. كان الوقت حارا بعض الشىء، ليس كثيرا: رأيت فتحة صدرها مبللة بشكل فجائى، وصدرها يلمع قليلا.

ـ الأمر سيان. حتى لو ماتت فهو لن يفعل شيئا، لن يأتى بتلك المرأة من هافانا.

ـ لماذا؟ لأنك لم تريها، أما أنا فقد رأيتها. كانت جميلة.

ـ مؤكد أنها كذلك، ولكن هى أيضا كانت امرأة مزعجة له، وهو كان يعرف هذا ويشعر به. وكانت ستزعجه دائما هنا وهناك، كعشيقة وكزوجة، هذه المرأة لم يكن لها اهتمام إلا بما تريده، دائما تعتمد على الآخر، لا يزال فى الدنيا نساء على هذا النحو، لم يعلموهن الاعتماد على أنفسهن بل الاعتماد على الآخر ـ توقفت لويسا، ولكنها واصلت على الفور كما لو كانت قد ندمت على كلمة "علموهن" ـ ومن الممكن أنهم لم يعلموهن، وورثن هذا ببساطة، يولدن غير راضيات عن أنفسهن، أنا عرفت كثيرات منهن. يمضين نصف حياتهن فى الانتظار، ولا يأتى أى شىء، أو ما يأتى يعشنه كما لو لم يكن شيئا، وبعدها يمضين نصف حياتهن فى تذكر ما يعتقدن أنه كان قليلا مع أنه لم يكن أى شىء. هكذا كانت جداتنا، وأيضا أمهاتنا ولا يزال الأمر على هذا النحو. مع مريم هذه لم يكن ممكنا إقامة حياة مستقبلية. فقط ما هو قائم فى هذه اللحظة، وهو أمر يتناقص على أى حال، إذن لم تكن محاولة لتغييره: أقل جمالا، وأقل رغبة، وتعنت أكثر. لعبت هذه المرأة كل الأوراق، ولم تكن تملك من البداية أى ورقة رابحة، ومعها لا مفاجآت، لا تستطيع أن تمنح أكثر مما تمنح. من يتزوجون هم من يتوقعون شيئا مدهشا، أو مكسبا، أو تحسينا لوضعهم. حسنا، الأمر ليس دائما على هذا النحو. ـ صمتت لثانية ثم أضافت ـ أشعر بالأسف لهذه المرأة.

ـ ربما تستطيع أن تعطى أكثر من هذا، لكن على العكس يمكن ألا تترك أثرا سلبيا، إنه المكسب المستقبلى الذى تحمله. من الممكن ألا تكون حملا ثقيلا لو أن جييرمو تزوجها فى يوم من الأيام، وأيضا يوجد رجال مثلها.

ـ رجال لا يتوافقون مع أنفسهم ولا يهتمون سوى بالعلاقة مع الآخر أو الأخرى. أفضل شىء لهؤلاء الرجال هو إزعاجهم، الإزعاج يساعدهم على قضاء الأيام، يشغلهم، ويبرر وجودهم، تماما كالنساء اللاتى يزعجونهن.

ـ جييرمو هذا ليس كذلك- قطعت لويسا (كلانا قاطعان).

الآن نعم نظرت إلىّ، وإن كان بطرف عينها، نظرة تشكك- متوارثة عن التشكك ـ أو هذا ما بدا لى. كان هناك سؤال محتمل وما زال محتملا بل وإجباريا، لكن كان من الممكن أن تطرحه هى أو أطرحه أنا: لما تزوجتنى أنا؟ أو: لماذا فى اعتقادك أننى تزوجتك؟

ـ سألنى كوستاردوى هذا المساء لماذا تزوجتك ـ كانت هذه طريقتى فى طرح أو عدم طرح السؤال.

انتبهت لويسا إلى أنه من المنتظر منها أن تقول: وبماذا أجبته؟ وأيضا أمكنها أن تصمت، فهى واعية جدا بالكلمة مثلى تماما، كلانا من المهنة نفسها، وإن كانت تعمل الآن أقل. صمتت للحظات، وبالريموت مرت على جميع القنوات سريعا، تم الأمر فى ثوان، عادت من جديد إلى جيرى لويس، الذى كان يرقص الآن مع رجل حسن الهندام فى صالون خالٍ وضخم جدا. ذلك الرجل، تعرفت عليه وتذكرته فى الحال، لقد كان الممثل جورج رافت، كان متخصصا خلال سنوات طويلة فى أداء دور رجل المافيا وراقص رومبا معروف مثل فى الفيلم الشهير Scarface . شكك جيرى لويس أن يكون هو (أوه، هيا، حضرتك لست جورج رافت) ويجبره على رقص "رقصة البوليرو" ليؤكد أنه يرقص هذه الرقصة مثل جورج رافت وبالتالى يكون هو رافت.

كان الرجلان يرقصان فى منتصف الصالون الخالى والمظلم. هيئتهما مضاءة ببقعة ضوء. كان مشهدا كوميديا، مشهدا غريبًا. الرقص مع شخص متشكك ليؤكد أنه هو هذا الشخص. كان هذا المشهد بالألوان فيما كانت المشاهد الأخرى بالأبيض والأسود، ربما لم يكن هذا فيلما بل مختارات كوميدية. بعد التوقف عن الرقص والانفصال عن بعضهما بخجل، أتذكر أن جيرى لويس قال لرافت كما لو كان قد قدم له جميلا: "حسنا، أعتقد أن حضرتك هو رافت الحقيقى" (لكنا ظللنا بلا صوت وأنا أسمع الآن الكلمات لقد كانت من ذكريات طفولتى غير المؤكدة، ربما قال له بالإنجليزية "the real Raft" أو "Raft himself" لم تقل لويسا: بماذا أجبته؟ بل:

- وهل أجبته؟

- لا، هو فقط كان يريد أن يعرف ما يجرى فى السرير، فى الحقيقة ما سألنى عنه هو هذا.

- ولم تجبه.

- لا.

انطلقت لويسا فى الضحك، فجأة تذكرت حالتها الصافية.

أعتقد أننى ابتسمت قليلا، الحقيقة أننى ابتسمت من أجل كوستاردوى، وليس من أجلى، فلم يكونا قد تعارفا حتى هذا الوقت سوى قليلا ولهذا السبب، وأمامها هى، شعرت أننى مسئول عن كوستاردوى، فهو صديق قديم، ليس تماما، يشعر الواحد منا أنه مسئول عما يشعره بالخجل وكل شىء يشعرنا بالخجل أمام من نحب (فى بداية الحب) وأيضا لهذا السبب الذى نشعر فيه أننا

نخونه أمام أى شخص آخر، وخيانة الماضى نفسه، الذى نتخلى عنه (هى لم تكن موجودة فيه، وهو الذى ينقذنا ويجعلنا فيه أفضل، وهذا ما نحبه ما دمنا فى حالة حب).

ـ لهذا السبب لم يرغب فى الدخول- قلت.

ـ أمر مؤسف ـ قالت هى ـ احك لى الآن ما قلته له.

الآن أنا من ليست لديه رغبة فى الضحك، مرات عديدة أؤخذ على غرة بثوان قليلة، ولكن الابتسامة عادة ما تنتظر.

كنت غير مستريح، شعرت بالخجل، صمت، لماذا أحكى، بعدها قلت:

ـ إذن أنت لا تعتقدين أن جييرمو لن يقتل أبدا زوجته المريضة ـ عدت إلى هافانا، وهو ما جعلها تبدو جادة، كنت أود أن تكون جادة.

ـ ماذا يقتل، ماذا يقتل؟ أجابت بثقة عالية ـ لا أحد يقتل أحدا لأن آخر يطلب منه ذلك وإلا تخلى عنه. أو ربما فعلها، الأشياء الصعبة تبدو ممكنة عندما نفكر فيها قليلا، ولكنها تبدو مستحيلة لو فكرنا فيها أكثر. هل تعرف ما سيحدث؟ الرجل سيتوقف عن الذهاب إلى كوبا فى يوم ما، وسوف ينسى كل منهما الآخر، وهو سيظل مستمرا فى حياته مع زوجته، المريضة أم لا، وربما يفعل المستحيل من أجل أن تشفى. لأنها أمانة، وسيواصل أيضا مع العشيقات، وسوف يحاول أن يكن أقل إزعاجا، على سبيل المثال، ولتكن متزوجات أيضا.

ـ هذا ما تودينه؟

ـ لا، هذا ما سوف يحدث.

ـ وهي؟

ـ هي أقل احتمالا. سرعان ما تجد رجلا آخر وتعيش معه وقد يبدو لها أقل أو لا شيء، وأيضا يمكنها أن تنتحر كما أعلنت، عندما ترى أنه فعلا لن يعود مرة أخرى. وأيضا يمكن أن تنتظر وتتذكر بعدها، على أي حال هي ضائعة. الاستياء لن يحدث أبدا كما تريد هي.

ـ يقال إن من يعلن انتحاره لا يفعل ذلك.

ـ يا له من كلام أبله. توجد حالات من كل الأشكال.

أخذت منها الريموت. وتركت الكتاب على الكومودينو، دون أن أقرأ سطرا واحدا، كان بعنوان "Pnin" لنابكوف(*). لم أنهه وكان يجذبني جدا.

ـ وماذا عن أبي، وخالتي؟ وقد اكتشفت أنها انتحرت حسب رواية كوستاردوي.

ـ إذا أردت أن تعرف إن كان ذلك صحيحا فعليك أن تسأله. أنت لا تريد أن أسأله أنا. أليس كذلك؟

تمهلت قليلا قبل أن أجيبها.

ـ لا ـ وبقيت أفكر وبعدها قلت ـ أعتقد لا، عليّ أن أفكر في هذا الأمر أكثر من هذا.

(*) نابكوف كاتب روسي المولد يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية.

وضعت صوت المختارات السينمائية لجيرى لويس. أطفأت لويسا الضوء القريب منها واستدارت كما لو كانت تريد النوم.

ـ سأطفئ الضوء فورا ـ قلت لها.

ـ أنا لا يضايقنى النور، إن كان يمكنك خفض الصوت عن التليفزيون لو سمحت.

كان جيرى لويس فى مدخل السينما يحمل كيسا من الفشار، قبل بدء العرض. وعندما يبدأ التصفيق يسقط منه الفشار على رأس سيدة محترمة ذات شعر أبيض، كانت تجلس أمامه. "أوه، يا سيدتى" قال لها. "هل سقط الفشار فى شعرك، دعينى ألتقطه منه"، وخلال خمس عشرة ثانية يهوش تسريحتها بالكامل، "أوه، ابق هادئة للحظة" قال لها بينما كان يمزق شعرها، محولا إياه إلى كرة من الخيوط المتداخلة، "يا له من شعر"، معنفا إياها من خلال ضحكة، ذلك المشهد القصير جدا لم أشاهده وأنا طفل، أنا كنت متأكداً، كانت هذه المرة الأولى التى أراه وأسمعه فيها.

أغلقت الصوت مجددا، كما طلبت منى لويسا. لم أكن راغبا فى النوم، ولكن عندما ينام اثنان معا يجب أن يكون هناك حد أدنى من الاتفاق فيما يختص بمواعيد النوم والاستيقاظ، وتناول الغداء والعشاء، وأما الإفطار فهو شىء مختلف، تذكرت أننى لم أشتر حليبا، وأن لويسا ستغضب فى الصباح، فقد كنت قد وعدتها. رغم أن طبعها طيب.

ـ لقد نسيت شراء الحليب– قلت لها.

ـ حسن، سأهبط أنا فى لحظات لشرائه ـ أجابت هى.

أطفأت التليفزيون وغرقت الغرفة فى الظلام، والضوء القريب منى لم يكن مضاء لأننى لم أتمكن من القراءة. لم أشاهد أى شىء خلال بضع ثوان، بعدها اعتادت عيناى الظلام، ولكن لا أكثر من هذا، ولويسا تحب النوم والستائر مغلقة، أما أنا فلا. استدرت وأوليتها ظهرى، لم نكن قد تبادلنا تحية المساء، ولكن ربما ما كان يجب أن نتبادل التحية بشكل دائم، وكل ليلة طوال السنوات المستقبلية. ولكن فى تلك الليلة ربما كان يجب أن نفعل ذلك. والوقت لا يزال متاحا.

- تصبحين على خير - قلت لها.

- تصبح على خير - أجابت هى.

عندما تبادلنا التحية لم نسم أى منا بأى شىء، والأزواج ليست لديهم القدرة على تسمية كل منهما للآخر، ربما ليعتقد كل واحد أن الآخر هو نفسه وليس شخصا آخر، وتجنب تسمية الآخر باسمه الحقيقى، ويتركان الأسماء للحظات الخلاف والعراك والشتائم، أو عندما يتبادلان أنباء سيئة، على سبيل المثال عندما سيترك أحدهما وحيدا.

كانت لأبى أسماء متعددة من النساء الثلاث على الأقل، وكلها ربما كانت لا تعنى شيئا، أو متشابهة، مجرد تكرار، أو ربما اختلطت عليه، مع كل امرأة ربما كان مختلفا، وربما لا، ربما نادى كل واحدة باسم خوانا عندما كان يبلغها نبأ سيئا، وربما تريسا، وهناك اسم آخر لا أعرفه ولكنه لم ينسه هو. مع أمى استمر لسنوات طويلة، ومع خالتى تريسا لم يستطع أن يمضى معها وقتا كافيا، وربما كان قليلا عما أمضيته حتى الآن مع لويسا كزوجين، بالنسبة لهما لم

يكن هناك مستقبل لسنوات، ولا حتى لأشهر، لقد انتحرت طبقا لما ذكره كوستاردوى. أما الثالثة التى كانت الأولى، كم من الوقت استمرت معه يا ترى، وكيف كان يناديها عندما كانت تودعه ويوليها ظهره؟ إما أنها هى من كانت تناديه وهو لا ويولى كل منهما الآخر ظهره على المخدة المشتركة (هذه مجرد أقوال، لأنه دائما ما تكون هناك مخدتان).

- أنا لم أكن أريد أن أعرف إن كنت تود قتلى أم لا - قلت ذلك للويسا من خلال الظلام.

ربما كانت نبرة الصوت جادة، لأنها حينها استدارت وشعرت على الفور باحتكاك جسدها الذى فقدته قبل لحظات، نهداها المعروفان لى يلتصقان بظهرى شعرت بهما ينزلقان. استدرت، وحينها شعرت بيديها على جبهتى، كانتا تداعبانى أو تنددان بما قلت، وشعرت بقبلاتها على الأنف والعينين والفم، على الجبهة والخدين (كل الوجه). وجهى ترك نفسه للقبلات، لأنه فى تلك اللحظة، كانت تلك الجملة- بعد أن قدمت لها الوجه - لأننى أنا من كان يحميها هى، ويدعمها.

ليس كثيرا بعد ذلك، كما كنت قد ذكرت، بعد انتهاء رحلة شهر العسل وأيضا انقضاء الصيف، كنت قد بدأت فى الغياب بسبب عملى كمترجم تحريرى وفورى، والآن أعمل مترجما فوريا أكثر، فى المنظمات الدولية. كان الاتفاق مع لويسا أن تقلل من عملها لبعض الوقت، وأن توجه نشاطها لإعداد بيتنا المشترك الجديد، (بشكل محترف) حتى يمكننا تنظيم عملنا ونوفق أوقات حضورنا وغيابنا إلى أقصى حد ممكن، أو حتى، من الممكن أن نغير مهنتنا. فى الخريف، مع منتصف سبتمبر تقريبا، تبدأ فى نيويورك جلسات الجمعية العامة للأمم المتحدة، والتى تستمر لثلاثة أشهر، وكان يجب أن أذهب إلى هناك، طوال سنوات قبل أن أتعرف على لويسا، بوصفى موظفا موسميا (تكون الحاجة إلى عدد محدود خلال انعقاد الجمعية) أعمل مترجما فوريا لثمانية أسابيع أعود بعدها إلى مدريد ولا أتحرك منها أو أعمل فى الترجمة الفورية لثمانية أسابيع أخرى على الأقل.

لا يمكن الاستمتاع فى تلك المدن، ولا حتى فى نيويورك، لأن الواحد منا يعمل هناك خمسة أيام فى الأسبوع بشكل مجهد،

واليومان الباقيان ضائعان، ويكون الواحد منا مجهدا يمضى وقته فى استعادة قواه استعدادا للأسبوع التالى، التنزه قليلا، مراقبة المدمنين عن بعد، ومجرمى المستقبل. مشاهدة الحوانيت (من حسن الحظ أنها مفتوحة طوال أيام الأحد) قراءة صحيفة النيويورك تايمز الضخمة طوال يوم كامل، شرب العصائر المقوية، أو المُشكلة، ومشاهدة التليفزيون ذى القنوات الثمانين (من السهل أن يظهر جيرى لويس فى إحداها).

الواحد منا يريد أن يريح أذنيه ولسانه، ولكن هذا من المستحيل، وينتهى دائما إلى السماع والحديث، حتى لو بقى بمفرده. وهذه ليست حالتى، معظم من يسمون بالموسميين يؤجرون شقة صغيرة خلال فترة وجودهم هناك، لأنها دائما ما تكون أقل سعرا من الفندق، شقة مفروشة بمطبخ صغير بالحائط، وإن كان الجميع يتردد فى الطبخ فيه، لأن رائحة ما سيأكله أو ما أكله تظل حبيسة فيه، لذلك كثيرا ما يتناولون الغداء أو العشاء فى الخارج، وهو ما يصبح متعبا وباهظ الثمن جدا فى مدينة لا شىء فيها يساوى ثمنه الحقيقى، وإنما خمس عشرة بالمائة أكثر على هيئة بقشيش إجبارى فى المطاعم، وبعدها ثمانية بالمائة على كل ما تشتريه على هيئة ضرائب محلية لبلدية المدينة (إنها ضرائب مُغالى فيها لأن الضرائب فى بوسطن خمسة بالمائة فقط).

من حسن حظى أن لى صديقة إسبانية فى تلك المدينة تستضيفنى بلطف خلال تلك الأسابيع الثمانية من العمل بالجمعية العامة، هى تعيش هناك بشكل دائم، إنها زميلة تعمل كمترجمة فورية بشكل ثابت بالأمم المتحدة، مقيمة فى نيويورك منذ اثنتى عشرة سنة، تملك بيتا لطيفا، ومتسعا يمكن الطبخ فيه من وقت

لآخر دون أن تغزو رائحة الطعام الصالون وغرف النوم (فى الشقق المفروشة كما هو معروف كل شىء متداخل فى بعضه). أعرفها منذ سنوات أكثر من تلك التى قضيتها خارج إسبانيا، أعرفها منذ أيام الجامعة، كنا طلابا رغم أنها كانت أكبر منى بأربع سنوات، ما يعنى أنها الآن فى التاسعة والثلاثين وكان عمرها أقل بسنة عندما كنت هناك بعد زواجى.

فى تلك الفترة التى أتحدث عنها الآن، أو التى أستعد للحديث عنها، حينئذ، عندما كنا طلابا، كان هذا فى مدريد، منذ خمس عشرة سنة مضت، نمنا معا مرتين أو ربما ثلاثا ومن الممكن أربع مرات (لا أكثر)، من المؤكد أننا نحن الاثنين لا نتذكر جيدا هذه المعلومة، ومع ذلك نعى ما حدث، ومعرفة هذه المعلومة، أكثر بكثير من الاعتراف بالفعل نفسه، وهذا يجعلنا نتعامل معا برقة، وفى الوقت نفسه بيننا ثقة كبيرة.

أريد أن أقول إننا نتحدث فى كل شىء ونواسى بعضنا أو للتخفيف والتشجيع عندما ننتبه إلى أن تلك الكلمات ضرورية لأى منا. وأيضا نشتاق لبعضنا (بشكل خافت على الأقل) عندما لا نكون معا، إنها واحدة من الشخصيات التى اعتدت إبلاغها بما يحدث، أى، أنها من الشخصيات التى أفكر فيها عندما يحدث لى شىء، سواء كان مفرحا أم مأساويا، والتى أحمل لها أفعالا ومواقف كثيرة. ولا نحتمل وقوع أحداث تنعكس سلبا علينا، ودائما ما أقول "هذا يجب أن أحكيه لبرتا"، كثيرا ما فكرت فى هذا.

وقع لبرتا حادث مرورى منذ ست سنوات. ودمرت إحدى ساقيها، بكسور مضاعفة ومتعددة، وسبب لها هذا قروحا، وفكروا

فى قطعها، وأخيرا أمكن إنقاذها ولكنها فقدت جزءا من الساق مما سبب لها عرجا خفيفا. لم يكن ظاهرا بحيث يمنعها من لبس حذاء بكعب عال (وتلبسه بنعل) ولكن كعب إحدى القدمين دائما ما يجب أن يكون أطول من كعب القدم الأخرى، وهذا يتطلب صنعه خصيصا لها. والفارق بين الكعبين غير ظاهر للعيان ولا يمكن ملاحظته، ولكن يمكن ملاحظة أنها تعرج بعض الشيء. وبشكل خاص عندما تكون متعبة أو فى البيت، حيث لا تبذل جهدا لتجميل مشيتها، ما أن تغلق الباب وتضع مفاتيح البيت فى حقيبتها حتى تسير بشكل معتاد دون محاولة التخفيف من العرج، حينها يتضاعف عرجها، وأيضا من الحادث بقى أثر جرح فى الوجه لم ترغب فى إخفائه بجراحة تجميلية، يبدو على هيئة هلال على الوجنة اليمنى، يبدو أحيانا أكثر قتامة عندما تكون قد أمضت ليلة مؤرقة أو حدث لها موقف سيئ أو تكون متعبة جدا، ويبدو أكثر وضوحا. ويبدو كما لو كان على وجهها بقعة، وحينها أقول لها "ذلك الأثر، يذكرنى بأنه أزرق أو محمر".

كانت متزوجة فى شبابها، وكان هذا من أسباب سفرها إلى أمريكا وبحثها عن العمل هناك. انفصلت عن زوجها بعد ثلاث سنوات، وعادت إلى الزواج بعد عامين فقط وانفصلت مجددا بعد عام آخر. ومنذ ذلك الحين لم تستمر لها أية علاقة. وقبل ست سنوات بعد الحادث، شعرت هى بأنها عجوز دون مبرر وفقدت ثقتها فى إمكانياتها فى إقامة علاقة مع أى شخص (بشكل دائم). إنها امرأة جميلة، وملامحها لم تكن أبدا تنم عن مراهقة وهذا لم يجعلها تتغير كثيرا منذ أيام الجامعة. ستكون ملامحها لطيفة جدا

فى الشيخوخة وإن تختلف كثيرا عن الماضى، أو تختلف عن ملامحنا لأننا لا ننظر بشكل مناسب إلى وجوهنا.

مهما كانت مشاعرها مبررة، فى الحقيقة إنها تملك مشاعر حقيقية وإن لم تتمكن من تشكيلها ولم تتخل عنها، كانت علاقاتها بالرجال خلال السنوات الأخيرة سطحية بسبب هذا التمرد، ولكنها رغم فشل علاقاتها إلا أنها لم تتخل عن رغبتها فى ذلك، وأعتقد أن هذه المشاعر سوف تستمر لسنوات أخرى قادمة، خلال تلك السنوات فى كل مرة أقضى فيها فترة عملى المؤقت فى المدينة التى تعيش فيها، دخل وخرج من بيتها العديد من الرجال (معظمهم من الأمريكيين وبعض الإسبان وحتى بعض الأرجنتينيين، بعضهم يأتون بصحبتها وآخرون يهاتفونها ويتواعدون معها فى الخارج. وقلة منهم من يأتون لمرافقتها، وحتى أن بعضهم لديه نسخة من مفتاح الشقة) ولم يبد أى منهم أى رغبة فى التعرف علىّ وهو ما يؤكد أنه لم تكن لديهم رغبة فيها. (رغبة فيها على المدى البعيد، أى أن أى فرد منهم يريد أن يتعرف عليها حقيقة وأن تكون لديه رغبة فى الصداقة على الأقل يتعرف علينا بشكل جيد).

كل من تعاملوا معها أصابوها بالملل أو هجروها، وكثير منهم هجروها بعد ليلة واحدة. فى كل علاقة من تلك العلاقات كان لديها أمل فى الاستمرار، وكانت ترى فى كل منهم مشروعا حياتيا مستمرا. حتى فى الليلة الأولى التى كانت تبدو الأخيرة، وكانت تقضيها على هذا النحو. وفى كل مرة أصبح من الصعب عليها الاحتفاظ بأحد الرجال (ولم تأت أحدا حتى الآن، ساعة عدم الرغبة ولا حتى الاستمرار الغبى).

عندما كنت هناك بعد زفافى، من منتصف سبتمبر حتى منتصف نوفمبر تقريبا، كانت قد بدأت قبل عامين فى تجربة اللقاءات المتفق عليها من خلال مكاتب التعارف، وأيضا منذ نحو عام من خلال نشر الإعلانات فى صفحات الجرائد والمجلات (فى الإعلانات الشخصية القصيرة كما كان يُطلق عليها). كانت قد أعدت شريط فيديو لمكاتب الزواج، من خلاله - ومن خلال دفع اشتراك - يتم إرساله لمن يرغب فى شخص مثلها، التعبير عبثى، ولكنه الطريق الذى يستخدمه بعض الناس وبرتا من هؤلاء، "أشخاص يرغبون فى شخصية مثلى"، أى، تقترب برتا من موديل سابق غير موجود بدلا من ابتداع موديل خاص بها.

تتحدث فى هذا الفيديو جالسة على أريكة (عرضته علىّ، تحتفظ بالنسخة الأصلية، وما ترسله للمكاتب عبارة عن نسخ منه) كانت جميلة، وأنيقة جدا، تبدو كعروس البحر، كانت تبدو أكثر شبابا، تتحدث بالإنجليزية فى مواجهة الكاميرا، وفى النهاية تلقى بعض التعبيرات الإسبانية لجذب بعض الإسبان العزاب المحتملين، من المقيمين بالمدينة أو العابرين بها، أو لمن يحبون لمحة من الغرابة، أو لمن يطلقون عليهم فى أمريكا "الهيسبانو"(*).

وتتحدث عن هواياتها وما تحبه وعن أفكارها (ليست أفكارا كثيرة) ولكنها لا تتحدث عن عملها، ثم تذكر شيئا عن حادثتها وتشير إلى عرجها الخفيف بابتسامة اعتذار، من الوجوب الحديث

(*) من يطلقون عليهم "الهيسبانو" هم أبناء دول أمريكا اللاتينية الناطقين باللغة الإسبانية، وقد زاد عددهم خلال السنوات الأخيرة نتيجة الهجرة غير الشرعية.

عن العيوب الجسدية حتى لا يتهمها أحد بالخداع. وبعدها تبدو فى البيت، تروى الزهور، أو تطالع كتابا (كان من كتب كونديرا، إنه خطأ)، وفى الخلفية موسيقى (يمكن سماع عزف على كمان لمقطوعة لباخ، مسألة مصطنعة) وهى ترتدى مريلة بالمطبخ، وهى تكتب رسائل على طاولة مضاءة بمصباح كهربائى، شرائط الفيديو كانت قصيرة جدا. حوالى ثلاث أو خمس دقائق.

أشرطة فيديو الرجال ممن شاهدوا الفيديو الخاص بها ويريدون التعرف عليها أو يرغبون فى عرض معلوماتهم عليها، كانت تتلقى شريطين أسبوعيا، وخلال فترة إقامتى كنا نشاهدها معا، ونسخر منها معا، وإن كنت أنصحها، وكنت أشعر أننى غير قادر على نصيحتها بشكل جدى، كان يبدو لى الأمر مجرد لعبة، كان من الصعب علىّ أن أعتقد أنه يمكنها أن تأمل فى شىء من هؤلاء الأشخاص. أعتقد أنهم أشخاص غير طبيعيين، شاذون ولا يمكن الثقة بهم، وأعتقد أن الانغماس فى هذا الفعل عبثى، عندما كنت أفكر فى هذا كنت أنسى أن برتا توافق على هذه اللعبة أيضا. وهى كانت صديقتى، وتستحق الثقة فيها. والمكتب الذى تتعامل معه جاد جدا، أو على الأقل يبدو كذلك، كل شىء تحت السيطرة حتى اللقاء الأول، ولا يوجد فيه أى شىء غير جذاب، كانوا يراجعون شرائط الفيديو مسبقا إذا لزم الأمر، وكل شىء يتم بهدوء.

فى حالة إعلانات اللقاءات الشخصية يختلف الأمر، فى هذا المجال لا توجد سيطرة من أى نوع، ولا وسيط فيه، وعلى الفور يتم الانتقال إلى المجال الجسدى، فالمرسل سرعان ما يطلب (فيديو عاطفى) وبعدها يطلب (فيديو جنسى)، ويتحدثون بكلمات فاضحة،

ويلقون بنكات ساخنة وإن كانت برتا لم تعد تنظر إليها بغرابة، وكل شيء يتحول إلى عادة.

بعد مرور بعض الوقت لم تعد تهتم بما يصلها من المكاتب. رغم أنها واصلت طلب أشرطة الفيديو كما لو كانت تريد أن تعتقد بأنها لا تزال على اطلاع بعالم اللذة، وأنها تتبادل الخطابات وتتبادل أشرطة فيديو مع رجال مجهولين أو الأفضل القول شاذين. أناس بوجوه وأجساد رغم أنهم مجهولو الهوية. أناس يقدمون أنفسهم بحروفهم الأولى أو بأسماء مستعارة، مازلت أذكر بعض تلك الأسماء التى كانت تحدثنى عنها: تاوروس، فى إم إف، دى كوفا، المتخرج، الصاروخ، ام سى، هومبرت، سبيرم هوايل، أو "الجاوتشو"، هذه كانت أسماؤهم المستعارة.

كلهم يبتسمون أمام الكاميرا بتراخ، وأشرطة مسجلة بشكل منزلى، مما لا شك فيه أنهم صوروها بأنفسهم. وهم يتحدثون مع لا أحد، يتحدثون إلى شخص مجهول أو يرغبون فى التعرف عليه، وربما يتحدثون إلى العالم الذى يجهلونه. بعضهم يتحدث من على المخدة، أو مضجعين على السرير وينفخون المعدة فيما الجسد يلمع بزيت كما لو كانوا من أبطال كمال الأجسام. الأكثر جرأة منهم (كلما تقدموا فى السن زادوا شجاعة) يظهرون عراة، قضيبهم مستقيم ولكنهم يتحدثون كما لو كان الأمر طبيعيا، دون الإشارة إلى ما هو معروف بوضوح، كانت برتا تضحك عندما تراهم، وبعد سخريتها منهم، تجيب على بعضهم، وترسل لهم شريط فيديو، وتحتفظ بشرى ط أى منهم ربما يأتى معها فى يوم من الأيام إلى البيت لزيارتها.

وفى تلك الحالات، بعد إغلاق الباب ووضع المفاتيح فى حقيبة اليد، تظل تواصل الخطو فى استقامة، وحتى فى البيت لا تتوقف عن بذل الجهد للتخفيف من حدة العرج، ربما تفعل ذلك على الأقل قبل الوصول إلى غرفة النوم، على السرير لا يظهر أى شىء.

بعد أسبوعين من وصولى إلى نيويورك فى سنة زواجى، (كان عطلة نهاية الأسبوع، وبداية تراكم التعب) عرضت علىّ برتا رسالة وصلت إلى صندوق بريدها الذى تؤجره لاستقبال الردود على إعلاناتها الشخصية المبوبة بالصحف، كانت معتادة إعطائى إياها لأقرأها عندما أكون موجودا هناك لأشاركها فى التسلية (المؤلم أن مشاركتى لها كانت أقل مما تحب) ولكن فى هذه الحالة أيضا كانت تريد أن تجرب إن كنت أرى فى الرسالة ما تراه هى:

ـ أريد أن أعرف كيف تراه؟- قالت لى وهى تمد يدها به.

كانت الرسالة مكتوبة بالإنجليزية وبالآلة الكاتبة ولم يكن بها شىء مهم، كانت نبرتها مكشوفة ولكن بتهذيب، وربما كانت جافة إلى حد ما بالنسبة لهذه النوعية من المراسلات. كان هذا الشخص قد شاهد إعلان برتا فى الإعلانات الشخصية المبوبة لمجلة شهرية وأبدى اهتماما فى التعارف. ذكر أنه سيبقى فى المدينة لأسبوعين (وهو ما يمكن أن يكون مثيرا وفى الوقت نفسه محبطا) وأضاف أنه رغم ذلك فهو يأتى إلى مانهاتن كثيرا، عدة مرات فى السنة، (وهو ما يبدو واعدا ومريحا، كما قال، ويؤكد أنه لن يكون سببا فى أى قلق) كما لو كان الشخص غير معتاد على كتابة الرسائل وأنه من المعتاد البدء باستخدام لقب أو استخدام الحروف الأولى، يعتذر عن توقيعه فقط باسم "نيك" (وكان التوقيع بخط اليد)، ويبرر هذا

بأنه "يعمل في حقل معروف" I work in a very visible arena) كما قال وهذه كلماته حرفيا) يبدو أنه حذر جدا حتى تلك اللحظة، إن لم يكن متحفظا، أو إن لم يكن سريا، هكذا قال، "إن كان متحفظا أم ليس سريا".

بعد قراءة الرسالة قلت لبرتا ما كانت تنتظره:

ـ هذه الرسالة كتبها شخص إسباني.

لغته الإنجليزية صحيحة للغاية، ولكن مع بعض التردد، خطأ لا يمكن أن تخطئه العين، وعدة تعبيرات ليست إنجليزية، وإنما تبدو مترجمة حرفيا من القشتالية، حتى برتا وأنا ولويسا أيضا معتادون جدا اكتشاف مثل هذا لمعرفتنا بمن يتحدثون أو يكتبون بلغات متعددة. فإذا كان الرجل إسبانيًا، مع ذلك، كان من العبث أن يتوجه إلى برتا بالإنجليزية؛ لأن الإعلان الذي وضعته هي وتدفع ثمنه كل شهر يؤكد قبل أي شيء أصولها: "Young woman from Spain" وتبدؤه عادة بهذه الطريقة ورغم أنها كانت تخجل قليلا، ساعة التواعد، على أنها قدمت نفسها على أنها لا تزال "Young".

عندما تخرج كانت ترى نفسها مقززة وتشاهد كل التجاعيد على وجهها، حتى بعد التزين، حتى تلك التجاعيد غير الموجودة، ومن خلال رسالة "نيك" كان الذي يجذبها قبل أي شيء آخر هو "الحقل المعروف". في الحقيقة أنه منذ بداية تعاملها أو قبل التعامل مع المجهولين لم أرها أبدا مستمتعة كما في هذه المرة، "حقل معروف جدا" كانت تهتف، وتكرر ضاحكة قليلا، ربما للجملة الكوميدية، وأيضا لاهتمامها وتشجعها على أمل، ترى في أي حقل يعمل؟ حقل معروف ربما يكون السينما أو التليفزيون، هل هو مذيع؟

هناك العديد منهم أُعجب بهم، لكن لو أنه إسبانى حينها لن يكون الأمر كذلك، فأنا لا أعرفهم، وربما أنت مُعجب بهم؟ تظل تفكر، وبعد لحظات تضيف: "وربما يكون رياضيا، أو سياسيا، وإن كنت لا أعتقد أن سياسيا يمكنه أن يخاطر فى هذه الأشياء، وإن كان الناس فى إسبانيا لا يهمهم أى شىء، والقول إنه يعمل فى حقل معروف كالقول إنه مشهور، ولهذا أراد أن يتخفى من البداية باعتباره أمريكيا، ترى من يكون؟.

ـ ربما ما يتعلق بالحقل يكون غير صحيح، مجرد كلمة تمنحه هالة وتوقظ اهتماما به. وقد حقق هدفه معك.

ـ ممكن، على أى حال فإن التعبير له بريقه، حقل، وإن كان لفظا أمريكيا جدا، وأيضا إسبانيا، ترى من أين حصل عليه؟

ـ من التليفزيون، حيث يتعلم الجميع، وربما لا يكون مشهورا لكنه يعتقد أنه كذلك، وربما كان يعمل فى البورصة، أو طبيبا، وربما كان رجل أعمال، ويعتقد أنه مهم ولهذا السبب يرى أنه مشهور، بينما لا أحد يعرف كل هؤلاء، من أين جاء هذا؟

كنت أنا أبدى إعجابى لاكتشافاتها وأحلامها، وهو أقل ما كان يمكن عمله تجاهها، بالطبع كان يجب أن أستمع إليها على الأقل، إبداء شىء من الاهتمام بعالمها، وتشجيعها، ومنح الأشياء التى تهتم بها نوعا من الأهمية وأن أبدى تفاؤلى، إنها أول شىء فى علاقات الصداقة، فيما أعتقد.

ـ وربما كان مطربا ـ قالت هى.

ـ وربما كان كاتبا ـ أجبت أنا.

أجابت برتا على صندوق بريد "نيك" وهناك ملايين من صناديق البريد منتشرة فى طول البلاد وعرضها، ولكن خلال فترة وجودى لم تتوقف برتا عن تقديم أى رسالة أو شريط فيديو لى مما يصلها. ولكنها لم تكن تفعل الشىء نفسه مع ردودها المكتوبة، والتى كانت ترسلها دون الاحتفاظ بنسخة منها أو تعرضها علىّ. وأنا كنت أتفهمها، لأن الواحد منا يمكنه أن يتجاهل الأفعال التى يقوم بها ما دام يعتبرها خاصة به، ولا يراها أحد، (حتى لو كان الحكم النهائى متسرعًا من جانب ممن يشكلونه ولا يعبرون عنه).

بعد عدة أيام جاءها رده، رسالة أخرى لكنها لم تعرضها على. كان لا يزال يكتب باللغة الإنجليزية المخلطة، وهى اللغة التى ردت بها عليه برتا، حسب ما قالته لى، وحتى لا تجرحه فى معرفته اللغوية أو تحبطه، وكانت أقصر وأكثر ملاحة، وكما لو كانت صديقتى قد دعته إلى ذلك، وربما لا، ومن المحتمل أن التحفظات التى شابت الرسالة الأولى قد اختفت فى الرسالة الثانية، ولم يعد يوقع باسم "نيك"، بل باسم "جاك"، وهو "اسم يفضله لهذا الأسبوع"، كما قال، وكان الاسم مكتوبا باليد، ويطلب منها فيديو ليتعرف على وجهها، وصوتها، ويعتذر عن عدم إرسال فيديو منه إليها (وبعدها أعتقد أن برتا هى من طلبت ذلك أولا).

بعد حوالى شهرين من إقامته هناك فى تلك المدينة، لم يكن لديه الوقت لشراء كاميرا فيديو أو سؤالها عن المقهى الذى كانت تجلس فيه. ووعدها بأن يرسل لها الفيديو فى الأسبوع التالى، فى هذه المرة لم يشر مطلقا إلى "حقل" عمله، أو يتحدث عن نفسه، فقط تحدث قليلا عن برتا، ووعدها بإرسال الفيديو فى المرة التالية، وإن كان توسع فى استخدام الكلمات الغبية وغير المريحة،

بكلمات مأخوذة عن أغان خاصة: "أتمنى لحظة تعريك وأداعب بشرتك"، شيء من هذا القبيل، فقط الأمين قبل التوقيع باسم "جاك"، ويودعها بطريقة خبيثة، باللغة الإنجليزية، لكن هذا بدا أنه مكتوب بطريقة باردة وبطريقة التذكير الساخنة، وما كان على برتا أن تفكر إن كان هذا خارج نطاق البرنامج المرسوم مسبقا. وربما كان يهدف إلى التخلي عن جمل غبية محتملة.

كانت لدى برتا قوة احتمال وحس ساخر لهذه الأشياء، وأكثر من هذا: واصلت ضحكها. وكانت عيناها تلمعان، وعرجها أقل ظهورا، كانت تشعر بالتفاخر، وتتناسى للحظات أن ذلك الرجل كل ما يهدف إليه هو مضاجعتها، وأنه مجرد وعد لشخص ما، كانت مجرد كلمات مكتوبة بلغة لم تكن لغتها ولا لغته هو، وأنه مجرد أن يراها أو يشاهد الفيديو الخاص بها ربما لا تكون مرغوبا فيها أو ربما لا تكون قابلة للمضاجعة. كما حدث معها فى بعض المرات، وأنه بعد اكتمال الرغبة- إن اكتملت- يمكن التخلى عنها، كما حدث معها فى مرات عديدة خلال الفترة الأخيرة، لم تكن تعرف ولم تكن تريد أن تعرف لماذا.

لقد كانت واعية بكل هذا (بعد مرور اللحظة) لكنها أجابت "جاك" كما أجابت على "نيك" وأرسلت إليه نسخة من فيديو مكتب العلاقات الزوجية وبقيت فى الانتظار، خلال أيام الانتظار كانت عصبية وأيضا حيوية، كانت رقيقة معى تماما كما النساء حين يسيطر عليهن أمل، رغم أنها كانت دائما رقيقة معى. فى إحدى الأمسيات عدت من العمل قبل برتا وأخرجت البريد من الصندوق. ما أن فتحت برتا الباب ووضعت المفاتيح فى الحقيبة (ولم تتجه

على الفور إلى أعمالها المنزلية، منعها من هذا التركيز) جاءت إليّ وسألت على أحر من الجمر، دون أن تحييني قبل السؤال:

ـ هل أخرجت البريد أم أنه لم يكن هناك أى شيء؟

ـ لقد أخرجته أنا. وما يخصك يوجد هناك على الطاولة. لقد وصلتني رسالة من لويسا.

توجهت هي بسرعة إلى الطاولة وتفحصت المغلفات (واحد، اثنان، ثلاثة) ولم تفتح أى مغلف حتى قبل أن تتخلى عن المعطف ثم مرت إلى الحمّام، ثم إلى الثلاجة، وكانت ترتدى نعلا منزليا خلخل خطواتها أكثر. لم نخرج فى تلك الليلة لا هى ولا أنا، وبينما كنت أنا أتابع حلقة مسابقات "Family Feud" فى التليفزيون، وكانت هى تقرأ (كتاب لكونديرا من حسن الحظ)، قالت لى:

ـ يا لى من غبية، أنا متوترة، وأنسى الأشياء، اعتقدت من قبل أن بين البريد رسالة من "الحقل المعروف". مع أنه لو كتب لى يكون ذلك على صندوق البريد العمومى، وليس على عنوانى هنا، فهو لا يعرف عنوانى ولا حتى اسمى، يا لى من مشوشة، ـ صمتت للحظة، ثم أضافت على الفور ـ هل تعتقد أنه سيجيبنى؟

بقيت صامتة وواصلت معى حلقة "Family Feud" وبعدها قالت:

ـ فى كل مرة أنتظر فيها ردا على رسائلى ترعبنى فكرة ألا تكون هناك إجابة وأيضا أن تصل إجابة، كل شيء تكون نهايته كارثية، لكن بينما يكون كل شيء فى طريقه إلى الحدوث أشعر بالنظافة المطلقة، والإمكانيات الكاملة. أشعر كأننى ابنة الخامسة

عشرة، ولا يهمنى شىء، إنه أمر غريب، لا أستطيع التخلى عن أحلامى، ومعظم الرجال الذين ألتقى بهم فيما بعد غير جديرين، أشخاص مقززون، وأحيانا أنتهى إلى الخروج معهم لتناول العشاء وليس أكثر من ذلك. لو لم يكن الأمر كذلك فأنا لست على استعداد لعبور الشارع برفقتهم. وأعتقد افتراضا بأن لديهم الشعور نفسه تجاهى.

توقفتُ للحظة، وربما انتبهت إلى سؤال آخر من برنامج "Family Feud" ثم واصلت بعد ذلك - لهذا فإن الوضع الأمثل هو الانتظار والتجاهل، الشىء إننى لو عرفت أن هذا الوضع سوف يستمر إلى الأبد حينها لن يعجبنى. انتبه إلىّ، لو ظهر شخص فجأة لأى سبب ولفت انتباهى بجاذبية خاصة، دون أن أعرف أى شىء عنه، مثل هذا "نيك" أو "جاك"، ترى لماذا فكر هو فى تغيير الاسم، هذا ليس بالعادى، ما دمت لا أعرفه، وبشكل خاص قبل أن أشاهد الفيديو الخاص به هذا لو أرسله، أو حتى أرى صورته، فإننى أكاد أشعر بالسعادة. منذ فترة الأيام الوحيدة التى أشعر فيها بالرضاء وأنا مقبلة على الحياة: بعدها يرسلون إلىّ تلك الشرائط الغبية، مسألة الفيديو هذه حمى، ورغم ذلك كثيرا ما أُبقى عليهم، معتقدة أن كل ما هو سابق على المقابلة الشخصية لا يدخل فى الحسبان. إنه أمر مصطنع بشكل كبير، فيما أعتقد، الناس يتعاملون بشكل آخر حين يكونون وجها لوجه. كما لو أمنحهم فرصة أخرى منعوا عنها فجأة، أو يمنحونى أنا تلك الفرصة. إنه أمر غريب، ولكن شرائط الفيديو رغم زيف الموقف الذى تم تسجيلها فيه، لا تكذب أبدا. عليك أن تنتبه إلى أن مشاهدة الفيديو تتم دون رقيب،

كالتليفزيون تماما، لا ننظر إلى أى شخص أبدا بشكل متمعن ودقيق أو غير منضبط، لأنه فى أى وضع آخر نعرف أن هناك شخصا آخر يراقبنا أيضا، أو يمكنه أن يكتشفنا لو راقبناه خفية، إنه اختراع جهنمى، قضى على لحظية الحدث، بإتاحة إمكانية خداعه وحكى ما حدث بشكل مختلف فيما بعد. لقد قضى على الذكرى، التى كانت غير دقيقة ومن الممكن تشويهها، بالاختيار أو التبديل. الآن لا أحد يمكنه أن يتذكر ما هو مسجل حسب ما يتراءى له، كيف لأحد أن يتذكر ما يمكنه أن يشاهده، تماما كما وقع الحدث، وحتى بطريقة أكثر بطئا مما حدث به. كيف يمكن لأحد أن يتلاعب به؟

كانت برتا تتحدث بلا كلل، كانت تخفى ساقها العرجاء تحت جسدها، على الأريكة، وتمسك كتابا بين يديها، كما لو لم تقرر بعد أن تقطع القراءة ولا قطع مشاهدة المسابقة، وهى بالتالى تتحدث، بلا وعى دون أن تقصد ما تقول: من حسن الحظ لا يمكن تصوير هذا بعد لحظات الحياة الطويلة، دقق معى، لا يكذبون أبدا، خاصة فى نوعية النظرة التى تتأملهم عما تم تصويره بكل دقة، عندما أشاهد فيديوهات هؤلاء الرجال تسقط روحى بين قدمى، رغم أنها تضحكنى وبعدها أخرج مع بعضهم، وأكثر من ذلك حين أراهم يقتربون بملابسهم الأنيقة والواقيات الذكرية فى جيوبهم، لم يحدث أن نسى أحدهم أن يحملها فى جيوبه، جميعهم فكروا أن الليلة الأولى هى الرعب، وربما كان من الممكن الوقوع فى حبه. والآن أشعر بالسعادة بالسيد "نيك" أو "جاك" الإسبانى الطموح الذى يتخفى خلف الجنسية الأمريكية، ربما كان من النوع اللطيف، فى حقله المعروف، من هذا الذى يفكر بهذه الطريقة..

.. أعيش هذه الأيام متقبلة وحتى سعيدة لأننى أنتظر جوابه وأن يرسل لى تسجيله، حسنا، لأنك موجود أنت هنا، وماذا سيحدث؟ سيكون تسجيله مقززا، ولكنى سوف أشاهده عدة مرات للاعتياد عليه، إلى أن لا يبدو لى شيئا جديدا، وتنتهى جاذبيته فى التقرب منه، هذه هى فضيلة تكرار المشاهدة، ولكن سأعرف أنه فى العمق أن ما يريده منى هو مضاجعتى لليلة واحدة فقط، كما حذرنى من قبل، وبعدها يختفى، سواء أعجبنى أم لا، تماما كما لو أردت له أن يختفى أم لا، أريد أن أراه ولا أريد أن أراه، سواء أردت أن أتعرف عليه أم أردت أن يظل غير معروف لدى، سواء أردت أن يصلنى رده أم ألا يصلنى رده، ولكن لو لم يصلنى رده فإننى سوف أفقد صبرى، وأصاب بالاكتئاب، وأفكر أنه ربما عند رؤيته لى قد لا أعجبه، وهذا يصيب بالإحباط عادة. لن أعرف مطلقا ما الذى أريده بالضبط.

أخفت برتا وجهها بالكتاب المفتوح دون أن تنتبه، ما أن لمست الأوراق وجهها حتى تركته يسقط وحينها أخفت وجهها بيديها، كما لو كانت هذه رغبتها منذ البداية. تركت أنا متابعة برنامج "Family Feud" ووقفت واقتربت منها. رفعت الكتاب عن الأرض ووضعت يدى على كتفها. أمسكت هى يدى وداعبتها (كان للحظة واحدة)، ثم أبعدتها بعد ذلك ببطء، أو رفضتها بنعومة.

لم يظهر أى وجه فى فيديو "نيك" أو "جاك"، والذى أراد أن يطلق على نفسه اسم "بيل" فى المرة الثالثة، "ربما كان اسمى النهائى، ومن الممكن ألا يكون كذلك"، كان يقول باللغة الإنجليزية على البطاقة المرافقة للتسجيل، ولكن حرف الآى كان متطابقا تماما

فى كلا الاسمين. وربما كان الشريط قد وصل إلى البيت فى اليوم الذى لم يصل فيه، لكن برتا استلمته بعد يومين، عندما ذهبت لاستطلاع صندوق البريد الذى كانت تستقبل عليه الرسائل الشخصية، أو ربما غير الشخصية. كنت مازلت أرتدى المعطف عندما دخلت الشقة فى ذلك المساء، كنت قد سبقتها بعدة دقائق، مؤكد أنه كان يمكنها أن تصل قبلى لو أنها لم تمر على مكتب البريد أو أنها كانت عصبية عندما أدخلت المفتاح فى الصندوق المفضض. كانت تمسك بالمغلف فى يدها (شكل المغلف كان على هيئة شريط فيديو) رفعته وهزته بابتسامة. لتريني إياه، لتبلغنى بوصوله. كانت ساكنة، ولم تكن تعرج.

- سوف نشاهده الليلة معا بعد تناول العشاء؟ - سألتنى بثقة.

- سوف أتناول العشاء الليلة فى الخارج. ولا أعرف فى أى ساعة أعود.

- حسنا، إن استطعت الاحتمال أنتظرك حتى تعود، وإلا، سأتركه لك على جهاز التليفزيون وتراه أنت بعد ذلك قبل ذهابك إلى النوم، لنتناقش فيه غدا.

كنت على وشك أن ألغى موعدى، لأن برتا تفضل أن تشاهد الفيديو برفقتى، لتكون محمية أثناء مشاهدته أو لتعطيه الأهمية المرئية التى كانت تعطيه إياها منذ عدة أيام. لأن هذا كان الحدث المهم، وربما رسميا، يجب إبراز الأهمية أمام الأصدقاء. لكن موعدى كان شبه موعد عمل، موظف إسبانى كبير صديق لأبى فى زيارة للمدينة، يتحدث الإنجليزية بشكل مقبول لكنه غير واثق من نفسه، طلب منى أن أرافقه مع زوجته (هى أكثر شبابا) للقاء عشاء

عمل مع زوجين آخرين، عضو بمجلس الشيوخ الأمريكى وزوجته الأمريكية (هى أكثر شبابا)، لشغل السيدتين بينما هما يتحدثان عن أعمال قذرة وأيضا لمساعدته فى الحديث باللغة الإنجليزية إن احتاج الأمر ذلك، لم تكن السيدتان أكثر شبابا فقط، بل من الخفيفات العقل، طلبتا مرافقتهما للرقص بعد العشاء واستطاعتا تنفيذ رغبتهما. فرقصتا معى ومع أشخاص آخرين طوال ساعات (لم ترقصا أبدا مع زوجيهما المشغولين بالأعمال القذرة) وكانتا تلتصقان كثيرا، بشكل خاص الإسبانية، نهداها اعتصرا صدرى فشعرت أنهما من السليكون، وربما من الخشب المبلل، فأنا لم أُجر تجارب رقمية. هذان الزوجان كانا يملكان أموالا ويقومان بالتجارة ويمتلئان بالبلاستيك، كانا يتحدثان عن كوبا بمعرفة حقيقية، ويذهبان إلى أماكن الرقص فيها بالالتصاق.

وصلت البيت بعد الثانية، من حسن الحظ أن اليوم التالى يوم سبت (حسنا، ولأنه كان يوم جمعة فقد قبلت قضاء هذه السهرة). اللمبة التى كنت أقرأ على ضوئها أنا وبرتا كانت مضاءة، كانت عادة ما تتركها هى مضاءة عندما أكون خارج البيت وتدخل هى سريرها، أو أتركها أنا عندما يحدث العكس، لم تكن لدىّ رغبة فى النوم، وكنت مازلت أحمل فى سمعى الموسيقى التى رقصت على أنغامها مع السيدتين المغرورتين، والكلمات الغبية التى تحاول أن تعد لإقامة كوبا جديدة (ترجمتها مرات عديدة، وكذلك مصاعب الموظفين الرسميين)، وقتها نظرت إلى الساعة مع علمى بالوقت وحينها تذكرت ما أخبرتنى به برتا. "سأحاول احترامه ما استطعت"، لم أستطع البقاء حتى نهاية الرقص.

على جهاز التليفزيون، كما قالت، كان هناك شريط فيديو ومعه بطاقة بريدية، إنها بطاقة "بيل" ("من الممكن أن يكون هذا هو اسمى النهائى") التى كانت قد تحدثت عنها. كان التسجيل قصيرا كما هو معروف عن تلك الشخصيات، كان فى نهايته، لم تكن قد استرجعته، وضعته أنا فى الجهاز لإعادته إلى البداية، كنت مازلت أرتدى المعطف. جلست عليه، مكرمشا إياه، خاصة حوافه، ما كان يجب أن أفعل هذا أبدا، لأنه يجعل الواحد منا يمشى بعدها لعدة أسابيع بمظهر المهاجرين غير الشرعيين.

بدأت الشريط وبدأت المتابعة، جالسا على معطفى، خلال ثلاث أو أربع دقائق مسجلة فى مشهد واحد لا يتغير، كان كما هى العادة دائما، الكاميرا ثابتة وما يُشاهد فيها هو مجرد جذع رجل بلا وجه، الصورة تقطع رأس رجل من النصف الأعلى (استطعت رؤية العنق) ومن الأسفل لم أتمكن من رؤيته سوى حتى الوسط، هذا الرجل كان يرتدى برنس، برنس أزرق شاحبا جديدا أو حديث الغسيل. ربما كان من تلك التى تقدمها إدارة الفنادق الفاخرة، وربما لا، لأنه عند مستوى الصدر على الجانب الأيسر، يمكن قراءة حرفين صغيرين "PH" وربما كان اسمه بدرو هيرنانديث. وأيضا أمكن رؤية كوعيه، كانا متقاطعين ولا تُرى الأيدى، أكمام البرنس لم تكن طويلة. كان أحد أشكال الكيمونو اليابانى الذى يبرز الأذرع القوية العارية، متقاطع الأذرع ولا تتحركان، كانتا جافتين وليس عليهما أثر الماء، لم يكن حديث الخروج من الدش أو الحمّام. وربما كان البرنس نوعا من الحيل التى تجعله لا يرتدى ملابس تكشف شخصيته، إنه نوع من إخفاء الشخصية.

الشيء الوحيد الذى يمكن رؤيته ساعة سوداء وبحجم كبير فى ساعده الأيسر وربما يكون مجرد حب ظهور. (اليدان مختبئتان تحت الذراعين)، ربما كان أعسر، كان يتحدث الإنجليزية، مرة أخرى، ولكن لكنته تكشف بوضوح أنه إسبانى من المقيمين فى نيويورك وأنه يعمل مترجما فوريا (ولكن هذا لا يعرفه هو) فالحديث بهذه الطريقة، ومع ذلك يمارس هذا، فاللغة كالقناع، كأثر مزيف، فالصوت يتغير قليلا عندما تتحدث بلغة ليست لغتك، وهذا أعرفه جيدا، حتى لو تحدثوها بشكل غير كامل ودون مجهود (الرجل لم يكن يتحدث بشكل سيئ، فقط لكنته كانت واضحة). وفتحة رقبة البرنس تبرز مثلث الصدر، مشعر أيضا، وبه بعض الشعيرات البيضاء، قليلة، والشعر قاتم بشكل عام.

بهذا البرنس والشعر الكثيف ذكرنى بشخصية "شين كونرى"، الممثل الشهير، أحد أبطال طفولتى، عندما كان يلعب دور الجاسوس المسموح له بالقتل، فقد كان كثيرا ما يظهر مرتديا الفوطة أو الكيمونو أو المعطف المنزلى، إن لم تكن ذاكرتى ضعيفة، وعلى الفور وضعت لهذا الرجل المجهول الهوية اسم كونرى، من الصعب سماع شخص يتحدث فى التليفزيون دون تخيل ملامحه. فى لحظة من التسجيل دخلت ذقنه فى المشهد، لأنه خفض وضعها، لثوان معدودة، تبدو كما لو كانت منقسمة، بها علامة ندبة، كناموسة، الإغارة فى العظم وليس فى البشرة، ومع ذلك تبدو ظاهرة (لا أتذكر إن كان الممثل شين كونرى ذقنه منقسمة).

خلال أكثر من دقيقة كانت الصورة ثابتة على الجذع والذراعين المتقاطعتين (لكنه كان يتنفس) ولا يسمع أى شىء، كما لو

كان الرجل قد وضع الكاميرا فى وضع التسجيل قبلها بفترة كبيرة، قبل أن يكون مستعدا لقول كلماته، وربما كان يراجع نفسه، أو يتذكرها، فى الحقيقة كانت تُسمع فى الخلفية موسيقى، كما لو كان هناك جهاز راديو أو تليفزيون.

كنت على وشك تسريع الشريط لأعرف إن كانت هناك رسالة من "بيل"، بدأ لحظتها الحديث، صوته كان متذبذبا، كان أقرب إلى الحدة، صارخا تقريبا، يبدو كأنه صوت غير مناسب لشخص كثيف الشعر أو حتى شين كونرى. كان بلعومه يتحرك، ولديه توقفات غريبة خلال الحديث، كما لو كان قد أعد حديثه فى جمل قصيرة قبل تسجيل الشريط فبدا كمن يقرؤها، أحيانا كان يستعيدها، كان من الصعب معرفة أنها طريقته أم أنها مقصودة، لإصلاح طريقته فى النطق. كانت النتيجة جافة، لم تكن الجمل قصيرة فقط، بل تبدو قاطعة. صوته كصوت منشار، صوته مثل صوت ذلك الرجل الذى سمعته من الشرفة فى هافانا، مثل صوت جييرمو، الذى ترجمة اسمه "وليام" واسم شهرته "بيل" وليس "نيك" أو "جاك".

"لقد تلقيت تسجيلك، شكرا" قال ذلك الصوت بالإنجليزية الواضحة ولكن باللكنة الإسبانية التى ترجم النص منها والتى أترجم منها الآن، بعد مرور الوقت. "فى الحقيقة شريطك يفتح الطريق إلى الأمل فى علاقة ما، أنت جذابة جدا، ولكن هذا هو السيئ فى الأمر، فقط يفتح الطريق، ليس كافيا، ليس كافيا، لهذا أرسل لك أيضا شيئا جزئيا، غير كامل، رؤية وجهى بالنسبة لك كرؤية جسدك بالنسبة لى. جسدك، الوجوه تهم النساء، وكذلك

العيون. هذا ما تقلنه، ولكن بالنسبة للرجال المهم الجسد بالوجه أو جسد بوجه. هذا هو، كما قلت لك من قبل إننى أعمل فى حقل معروف. (كررها مجددا، ونطق الكلمة الأخيرة متأسبنة، لم يستطع تجنب ذلك نظرا للأصل الإسبانى للكلمة، ارتخيت نحو الخلف فاشتدت كرمشة المعطف) كان واضحا جدا، لذلك ما كان لى أن أكشف عن شخصيتى لأى إنسان هكذا، إن لم أكن متأكداً من أن الأمر يستحق. ولمعرفة ذلك يجب أن أشاهد جسدك كاملا، يجب أن أراك عارية، بكل التفاصيل الممكنة، تقولين إنك تعرضت لحادث، وتقولين إنك تعرجين قليلا. قليلا، ولكنك لم ترينى إلى أى حد، أريد أن أرى تلك الساق الجريحة، كيف أصبحت، أن أرى نهديك، وفرجك، وإن كان ممكنا أن يكون مفتوحا، مؤكد أن نهديك وفرجك رائعان، فقط بعد مشاهدة كل هذا يمكننا أن نتواعد. الأمر هكذا، لو أن نهديك وفرجك وساقك أقنعونى أن الأمر يستحق المخاطرة. وكنت لا أزال أرغب، ربما لا تكونين راغبة فى الاستمرار فى هذا. قد تفكرين أنى مباشر جدا، وقاس، أنا لست قاسيا، كل ما فى الأمر أنى لا أستطيع أن أضيع الوقت، لا يمكننى أن أضيع وقتا كثيرا. لا يمكننى أن أخاطر مقابل لا شىء، أنا معجب بك، أنت جذابة جدا، أقول لك هذا بكل جدية. أنت جميلة جدا، وأنا معجب بك جدا، لكن ما أرسلته قليل جدا، كما أنت ترين الآن منى، أنا شاهدت القليل منك، أنا لست قاسيا لكنى أريد أن أرى أكثر، أرسلى لى هذا. أرسليه لى، حينها أتركك تشاهدينى. لو كان الأمر يستحق. أعتقد أنه يستحق، ما زلت أرغب فى مضاجعتك، والآن أكثر مما مضى، الآن أكثر، نعم هو هذا.

يتواصل التسجيل لعدة ثوان، بلا صوت، واللقطة هى المعتادة، المثلث المشعر والذراعان المتقاطعتان، والساعة السوداء فى اليد اليسرى، والبلعوم الساكن يتحرك عند الكلام، اليدان مختفيتان، ولم أتمكن من رؤية إن كان يلبس خاتم زواج فى إصبعه، كما كان إصبع جيرمو، كنت قد شاهدته من شرفتى. بعدها وقف الجذع وخرج من الإطار على يسار الصورة. (دائما البرنس الطويل)، وخلال ثوان أخرى ظهر كثير مما أخفاه، مخدة وسرير كبير، أو سرير زوجى غير مرتب، كان قد جلس أمامه أثناء التسجيل. وبعدها مباشرة بقيت الشاشة مخططة ومؤشر الوقت توقف.

كان الشريط أصليا بلا سابق تسجيل، من تلك الأشرطة ذات الخمس عشرة أو عشرين دقيقة، التى بدأت تحل محل الرسائل وربما الصور أيضا. خاصة أن الرسائل كان قد تم إحلالها من قبل، عندما أغلقت الشاشة وأشعلت الضوء الأكثر قوة من لمبة القراءة، شاهدت برتا تقف خلف ظهرى، تنعكس صورتها على الشاشة السوداء فاستدرت. كانت تقف مرتدية معطفا. كان النوم باديا على وجهها أو لنقل القلق، ترى كم عدد المرات التى شاهدت فيها وسمعت الشريط قبل وصولى، والآن خرجت من غرفة نومها لتراه مجددا برفقتى أو بينما كنت أراه أنا للمرة الأولى. كانت تضع يديها فى جيوب معطفها، كانت حافية، والشعر مهوش من أثر التقلبات على المخدة، كانت جميلة، دون ماكياج، تعرج عندما تسير، تحركت. كانت قد ذهبت موسيقى الرقص من رأسى، ولكن ظلت كوبا التى تناولها الحديث، أخرجت يديها من جيوبها وعقدت ذراعيها كما كان قد فعل "بيل" عندما كان يتوجه إليها ولا يبين وجهه، اعتمدت بظهرها إلى الحائط وقالت لى:

ـ ها أنت ترى.

تحول معطفى إلى خرقة مثيرة للتقزز. وقفت.

ـ ها أنا أرى ـ قلت أنا.

فى الأيام التالية انتظرت أن تعود برتا إلى الحديث عنه، عن "نيك" أو "بيل" أو "الحقل المعروف". ربما كان بدرو هيرنانديث أو ذلك المدعو جييرمو المقيم فى ميامى، وإن كنت قررت نسيان ذلك بسرعة، لأننا عادة ما لا نثق فى انطباعنا الأولى خاصة إذا تعلق هذا بشىء أو بشخص يفرض علينا انطباعا ثانيا وثالثا أو أكثر، شخص تبقى كلماته أو صورته فى الذاكرة لزمن طويل. كأغنية راقصة تتراقص فى تفكيرنا. ولكن خلال تلك الأزمنة، خلال نهاية الأسبوع المقبل (يوم السبت والأحد بكاملهما)، لم تقل برتا أى شىء، أو أنها لم ترد إخراج موضوعه للحديث، قطعت البيت جيئة وذهابا وخرجت كما لو كانت مشغولة البال، ليس لشعورها بالاكتئاب ولكن لعدم شعورها بالسعادة، دون العصبية المفرحة التى كانت عليها خلال أيام الانتظار، ترى لمَ لم تسألنى كما كانت تفعل عادة، عن خططى، وعن زواجى وبيتى الذى لا يزال حديثا، عن أبى ولويسا، التى لم تكن تعرفها سوى من خلال الصور والتليفون؟

لو أنى فكرت فى بيل كثيرا، فهى لم تكن تملك القدرة على شىء سوى التفكير فيه، لقد كانت هى التى تحدثت من برنسها، هى

التى كان يريد أن يرى أكثر من جسدها قبل أن يقبل برؤيته، ذلك الرجل كان محددا جدا. لم يستخدم أحد جهاز الفيديو فى نهاية الأسبوع، كما لو كان سوء طالع أو أنه موبوء، شريط بيل ظل داخل الجهاز دون أن يقترب منه أحد، لقد كان متوقفا مرة أخرى عند نهايته كما عثرت عليه أول مرة وتركته أنا عند نهايته.

مع ذلك، يوم الاثنين، كنا قد عدنا من العمل صباحا، وعند الوصول إلى البيت مساء وجدت برتا، كانت هى قد وصلت أيضا للتو، (كانت حقيبتها لا تزال مفتوحة، والمفاتيح فى الحقيبة، وخلعت المعطف ولكنه كان موضوعا على الأريكة) والفيديو على الشاشة، كانت تتابعه مرة أخرى وتقوم بعمل وقفات، كانت توقفه هنا وهناك بلا فائدة حقيقية. فقد كان كما شرحت من قبل، الصورة لا تتغير طوال ثلاث أو أربع الدقائق التى يستغرقها الفيديو. كانت الأيام قصيرة جدا، تغرب الشمس سريعا، كان اليوم الاثنين، وكان العمل فى الجمعية العامة مجهدا لى، والمفترض أنه بالنسبة لها أيضا، ولذلك تصبح الحاجة إلى الراحة بعده مطلوبة، وعدم السماع يكون من الأفضل. ولكن برتا كانت لا تزال تستمع، لم أقل أى شىء، فقط حييتها، توجهت إلى غرفتى، وتوجهت بعدها إلى الحمّام، غسلت وجهى، وعندما عدت إلى الصالون كانت لا تزال تدرس التسجيل، توقفه ثم تسرعه قليلا لتوقفه مرة أخرى.

- ألم تلاحظ أنه فى أوقات معينة كانت تظهر ذقنه؟ - قالت لى - هنا - كانت قد جمدت الصورة التى كان فيها بيل ينحنى ويترك ذقنه تبرز فى الإطار.

-نعم، لاحظت هذا بالأمس - أجبتها - تكاد تكون منقسمة.

توقفت عن السؤال لحظة (فقط لحظة واحدة).

-فقط بهذا لا يمكنك التعرف عليه؟ أليس كذلك؟ لو أنك التقيت به فجأة، أريد أن أقول. لو أنك شاهدت وجهه فى مكان آخر.

- حقيقة لا، كيف يمكننى أن أتعرف عليه - قلت أنا - لماذا؟

- حتى لو عرفت أن الأمر متعلق به؟ بمعرفتك المسبقة به، أريد أن أقول، أنك تشك أنه هو؟

نظرت إلى الشاشة الثابتة على المشهد.

- لو كنت أعرف مسبقا ربما، ربما أتأكد منه، لماذا؟

أوقفت برتا الفيديو بالريموت فاختفت الصورة (عادت الصورة إلى نفسها) وعادت إليها نظرتها المتقدة أو النشطة.

- انظر، هذا الشخص مسيطر علىّ، إنه ملعون، لكنى أفكر فى أن أرسل له ما يطلب. لم أفعل هذا مع أى شخص. ولم يجرؤ أى شخص آخر فى طلبه بهذه الطريقة، وبهذا الشكل، وأنا لم أرد أبدا على هذه المشاهد بمشاهد لى من صنف المطلوب. هل تتخيل هذا. ولكن فى الحقيقة يمكنه أن يكون مسليا، أن أفعلها لمرة واحدة.

لا تريد برتا أن تجهد نفسها فى البحث عن دوافعها، لهذا قطعت حديثها وغيرت لهجتها ببساطة، ابتسمت:

- وبهذه الطريقة يظل جسدى خالدا، وإن كان خلودا قصيرا جدا، فكل الناس تنتهى إلى مسح التسجيلات والعودة إلى استخدامها مرة أخرى، لكنى سأقوم بعمل نسخة لاستعادتها فى شيخوختى.

ـ وساقك للخلود أيضا؟ أليس كذلك؟- قلت لها.

ـ سنعرف ما هو خاص بالساق فيما بعد، يا له من ابن عاهرة ـ تجمد وجهها للحظات بينما كانت تطلق الشتيمة (لكنها كانت فقط لحظة عابرة) لكن قبل أن أقرر يجب أن أراه هو، أن أعرف عنه شيئا أكثر من هذا، إن هذا البرنس بدون وجه مثير للتقزز. يجب أن أعرف شكله.

ـ لكنك لا تستطيعين رؤيته قبل أن ترسلى له، كما يقول، ورغم هذا ليس مؤكدا، يجب أن يعطيك الموافقة، يا له من ابن عاهرة، ـ كان وجهى يتجمد، من المفترض ـ منذ بداية الحوار، وليس فقط خلال الشتيمة، وربما منذ ثلاث ليال مضت.

ـ أنا لا أستطيع أن أفعل أى شىء لأنه شاهد الفيديو الخاص بى ويعرف شكل وجهى، ولكنه لم يشاهدك أنت، ولا يعرف أنك موجود، ونحن نعرف رقم صندوق بريده، والذى يجب أن يمر عليه من وقت لآخر، وأنا عرفت أين يوجد، يوجد فى مكتب بريد كينمور ستيشن، ليس بعيدا عن هنا. أنت يمكنك الذهاب إلى هناك، والتعرف على مكان الصندوق، أن تراقبه، وتنتظر وتشاهد وجهه عندما يذهب لاستلام بريده.

كانت برتا قد قالت "نحن نعرف"، إنها تجمعنى معها فى فضولها وتطلعها، أو أكثر من هذا. إنها تختزلنى معها.

ـ هل أنت مجنونة؟ من يعرف متى يذهب إلى هناك، قد تمر أيام عديدة دون أن يمر من هناك، إلى أى شىء تهدفين؟ أن أمضى اليوم بطوله فى مكتب البريد؟

كشفت نظرة برتا عن نفاد الصبر. وهذا لم يكن معروفا عنها، كانت قد توصلت إلى إجابة عما يجب فعله، ولم تعد تقبل أى نقاش، ولا حتى مجرد اعتراض.

ـ لا، لا أهدف إلى هذا. فقط أن تذهب لمرتين خلال الأيام القادمة، أوقات ضائعة، عند خروجك من العمل، نصف ساعة، ربما تكون محظوظا، لا أكثر، نحاول هذا على الأقل، وإن لم نستطع التعرف عليه خلال مرتين، إذن لا شىء، لننس الموضوع. ولكن ليست هناك خطورة فى أن نجرب. سيكون هو فى هذه الأيام فى انتظار إجابتى. الفيديو الذى لم أرسله بعد، ربما يمر يوميا ليعرف إن كان قد وصل أم لا، فإن كان هنا لظروف العمل، ربما تكون أوقات دوامه من التاسعة إلى الخامسة، ومن المحتمل أن يمر على صندوق البريد عند خروجه، بعد الخامسة، وهذا ما اعتدت فعله أنا. وربما نكون محظوظين ـ عادت إلى استخدام صيغة الجمع، كانت قد قالت "ننساه". كان يجب أن أنظر إليها بتمعن أكثر من النظر إليها بغضب، لأنها أضافت بعد أن هدأت: ابتسمت ـ من فضلك ـ الهلال، الندبة، على العكس، تحول إلى الأزرق القاتم: كنت على وشك أن أنظف لها وجنتها.

ذهبت إلى مكتب البريد ثلاث مرات، الأولى فى المساء التالى بعد الدوام. والثانية بعدها بيومين، يوم الخميس من ذلك الأسبوع، وأيضا بعد ذلك اليوم المهلك فى الترجمة. لم أبق نصف ساعة، كما طلبت برتا، بل بقيت ساعة تقريبا فى كل مرة، تحت ضغط التلهف الذى يسيطر عادة على من ينتظر بلا طائل، الخوف من أنه لحظة المغادرة يصل الشخص الذى تأخر كثيرا. وهذا تقريبا ما حدث مع

الخلاسية مريم فى ذلك المساء الحار إلى جوار الهضبة ولم يظهر جييرمو وهى لم تذهب. ولم يظهر جييرمو لا الثلاثاء ولا الخميس. أو بيل أو جاك أو نيك، أو بدرو هيرنانديث.

من حسن الحظ، يوجد فى نيويورك أشخاص يسيرون فى حالة اشتباه أو تلبس بجرم فى كل ساعة من ساعات اليوم وفى كل مكان، ولا يوجد هناك أى شخص يمكنه أن يلفت النظر بارتدائه معطفا، ويحمل صحيفة وكتابا، الوقوف على القدمين فى مكتب يدخله أناس نشطون لاستلام أو تسليم مغلفات، ومن وقت لآخر يدخل أحدهم مسرعا وبيده مفتاح، ليفتح صندوقه المفضض، ويدخل يده أو ذراعه وأحيانا يخرج غنيمة من المغلفات، وأحيانا يخرج يده الفارغة من جديد، ولكن ولا أى من هؤلاء الأشخاص المسرعين توجه إلى الصندوق رقم ٥٢٤ والذى كنت أعرف موقعه منذ البداية.

ـ ومرة أخرى ـ طلبت منى برتا فى ليلة الجمعة، بعد أسبوع من استلامها الفيديو، بعد سبعة أيام فما أغرقنا هو ما طفا بنا على السطح، ويحدث أحيانا- غدا صباحا، نهاية الأسبوع، قد يكون مشغولا جدا ولا يستطيع أن يمر سوى أيام السبت.

وربما يكون لديه وقت فراغ ويمر فى أى ساعة من الساعات الطويلة التى لم أكن فيها أنا هناك. هذا غير معقول، وإلا، فلندع هذا الأمر.

ـ لكن حتى لو ظهر، ما الذى سوف تكسبينه من رؤيتى له؟ أن أصفه لك؟ أنا لست كاتبا. وكيف لى أن أعرف إن كان سيعجبك أم لا، إضافة إلى أنه يمكننى أن أكذب عليك، وأقول لك إنه جذاب

رغم أنه قبيح، ما الفارق؟ هذا لن يجعلك ترسلى له أو لا ترسلى ما طلبه منك، هل هذا يتوقف على توصيفى له؟ ما الذى ستفعلينه لو أنى قلت لك إنه مرعب؟ الأمر سيان، وربما أقول لك ذلك حتى لا ترسلى له أى شىء أو أن تكون لك علاقات أخرى.

لم تجد كلماتى الأخيرة أى إجابة لدى برتا، من المفترض أنها لا تريد أن تعرف سبب عدم رغبتى فى أن تكون لها علاقات. أو ربما تعرف ولكنها لا تريد أن تعرف أى شىء.

فى ذلك الوقت كنت على استعداد لأن أدفع أى ثمن حتى لا أعرف أى شىء.

فى الصباح التالى، يوم السبت من أسبوع إقامتى الخامس هناك، (كان شهر أكتوبر) ذهبت بصحيفة نيويورك تايمز الضخمة إلى كينمور ستيشن وعلى استعداد للانتظار من جديد طوال ساعة كاملة، وربما وقتا أطول: أن أنتظر حتى لو كان بغير رغبة حقيقية، على استعداد أن أقضى على آخر الاحتمالات. أو الانتظار بلا طائل. توقف كما فعلت يومى الثلاثاء والخميس، إلى جانب عمود اعتمدت عليه ويخفى جسدى أو لإراحة رجلى من وقت لآخر (ثانيا ساقى كما لو كانت تؤلمنى) وبدأت فى قراءة الصحيفة باهتمام، ولكن ليس إلى درجة عدم الانتباه لوجود شخص يصل حتى صندوق البريد ويفتحه ببطء أو بتعجل ويعود إلى إغلاقه بنشوة أو اهتمام رزين. ولأنه كان يوم سبت فقد كان المارة أقل، والخطوات ترن بشكل أقل أو مفردة على الأرضية الرخامية، مما يجعلنى لا أفعل أكثر من رفع نظرى فى كل مرة أنتبه فيها إلى دخول كل واحد من مستخدمى صناديق البريد.

بعد مرور حوالى أربعين دقيقة (كنت أطالع الصفحات الرياضية) رنت خطوات أكثر ثقلا وأكثر تفردا عن غيرها من الخطوات، كما لو كان نعل صاحبها معدنيًا أو لسيدة تنتعل حذاء بكعوب عالية. رفعت نظرى وشاهدت شخصا يقترب بخطوات سريعة، وما أن دققت فيه حتى عرفت أنه إسبانى، وتعرفى عليه كان من بنطلونه، بنطلونات بلادى لا تخطئها العين ولها قصة خاصة، لا أعرف فى أى شىء تختلف ولكنها تجعل كل مواطنى تبدو سيقانهم مستقيمة والمؤخرة أكثر ارتفاعا (لست واثقا من أن التفصيل يؤثر عليها إيجابيا)، (فكرت فى كل هذا فيما بعد). دون أن أكون فى حاجة إلى مراقبته اقترب هو من الصندوق ٥٢٤، أو ٥٢٥، هذا ما فكرت فيه عندما كان يبحث فى جيوبه عن المفتاح (جيب القداحة فى الحزام، لكنها كانت لحظة سريعة) له شارب، أنيق فى مجمل ملابسه، مؤكد أنه كان أوروبيا، (لكنه من الممكن أن يكون أيضا أمريكيا من نيويورك أو إنجلترا الجديدة) فى حوالى الخمسين من عمره (لكنه حيوى أو شديد الاعتناء بنفسه) كان طويلا إلى حد كبير، مر إلى جوارى بسرعة وعندما أردت أن أتطلع إلى وجهه كان قد أولانى ظهره، بحث عن المفتاح واتجه إلى الصندوق.

أغلقت الصحيفة للحظات (كان خطأ) توقفت لمراقبته (خطأ آخر) وشاهدته كيف يفتح الصندوق رقم ٥٢٤ ويدخل ذراعه إلى العمق. أخرج عدة مغلفات، ثلاثة أو أربعة، ولا أى منهم يمكنه أن يكون خاصا ببرتا. يبدو أنه يراسل أناسا آخرين، وربما كن جميعا نساء فضوليات، فمن يكتبون إلى عناوين شخصية لا يتوقفون عند حد الرغبة فقط، رغم أنه فى لحظة ما، كما تفعل الآن برتا (وربما

ليس بيل) يمكنها أن تركز فى شخص واحد، ونسيان الآخرين، كلهم مجهولون.

أغلق الصندوق وعاد إلى النظر إلى المغلفات دون اهتمام أو نشوة، (بدا لى أن أحد المغلفات شريط فيديو بشكله وحجمه) توقف بعد أن خطا خطوتين، وبعدها انطلق سائرا، مسرعا من جديد، وعندما مر إلى جوارى التقت عيناه بعينى التى لم تكن تركز على الصحيفة، ربما تعرف هو على أيضا كإسبانى، وربما بسبب بنطلونى، نظر إلىّ بدقة، أريد أن أقول إنه ركز نظره علىّ لعدة لحظات، وبالتالى فكرت، لو أنه يمكنه التعرف علىّ لو شاهدنى مرة أخرى (كما يمكننى أن أتعرف عليه أيضا). تشابهه مع الممثل شين كونرى (يرتدى جاكيت وربطة عنق ويلقى على ذراعه معطفا قاتم اللون وسوالفه طويلة أيضا وتصل إلى أقصى جانبى رأسه، وله ملمح حاد، مؤكد أنه رجل يتحرك بحدة، لم أتمكن من رؤية ذقنه أو مقارنتها، لكن نعم شاهدت فى جبهته تجعدات واضحة وإن لم تكن بسبب الشيخوخة، لم يكن قبيحا، على العكس، من المحتمل أنه كان جذابا، أو جميلا بين نوعيته من الذكور، كان ناضجا وواضحا، من المؤكد أنه يتحدث عن كوبا بحديث العارف، لو أنه كان جييرمو- جييرمو القادم من ميامى- لكنه لا يحقن نفسه بالبلاستيك لأن نظرته الحادة تمنعه من ذلك.

فكرت أنه يمكننى متابعته لبعض الوقت، كانت طريقة لإطالة الانتظار قليلا، فى الحقيقة كان الانتظار قد انتهى. عندما رأيته يخرج من مكتب البريد، عندما حسبت أن الأبواب يمكن أن تخفف من وقع الخطوات على الرخام الفاضح، بدأت فى السير، بنفس

سرعة خطواته حتى لا أفقد متابعته، من بوابة الشارع شاهدت كيف يقترب من تاكسى متوقف ويدفع له أجرته من على الرصيف ويصرفه، كان قد قرر التنزه لبعض الوقت، كان المناخ طيبا (لم يرتد المعطف، ألقاه الآن على كتفه، وضح لى أنه أزرق غامق، أنا كنت مرتديا معطفى، لونه تقليدى أو ربما كان قاتما بعض الشىء).

كان يسير وهو ينظر إلى المغلفات من وقت لآخر، فجأة فتح أحدها دون أن يخفف من وقع الخطوات، قرأ محتواه بسرعة، مزق المغلف ومحتواه، وألقى بهما إلى سلة مهملات مر إلى جوارها، لم أتجرأ على تفتيشها، شعرت بالخجل من الفكرة وخفت من افتقاده. واصل سيره، ناظرا إلى الأمام، كان واحدا من أولئك الرجال الذين يسيرون برأس مرفوعة دائما، فيبدو أطول مما هو عليه ويبدو مسيطرا. كان يحمل فى يده المغلفات الأخرى، وعلبة الفيديو (مؤكد أنه كان يحتوى على تسجيل) حين دققت فى يده، رأيت خاتم الزواج فى إصبع اليد اليمنى، على عكسى أنا، كان فى يدى اليسرى منذ بضعة أشهر. كنت أحاول الاعتياد على ذلك.

وفجأة ودون أن يغير وقع خطواته فتح مغلفا آخر وليفعل به ما فعله بسابقه، ولكن هذه المرة احتفظ به فى جيب الجاكيت، ربما لأنه لم تكن هناك سلة مهملات قريبة (إنه رجل متحضر). توقف ليتفحص واجهة عرض كتب بالطريق الخامس. عندما توقف ارتدى المعطف، حسنا، وضعه على كتفيه دون أن يدخل ذراعيه فى الأكمام، كما كان يفعل طوال حياته وكذلك كان يفعل رانز، أبى، ولا يفعل هذا الكثير من الأمريكيين (فقط رجال المافيا وجورج رافت).

كنت أتبعه من على مسافة قريبة، ومؤكد إنها كانت قليلة جدا ولا تليق بمثل هذه الحالات، فأنا لم أتبع أحدًا من قبل، هو لم يكن لديه سبب للاشتباه، وإن كان لا يتنزه بالفعل ولم يتوقف كثيرا، لا يكاد يتوقف سوى أمام إشارات المرور، كان يبدو متعجلا، ولكن ليس إلى الدرجة التى تجعله يصرف تاكسيا، لم يكن هناك الكثير من المارة لأن اليوم سبت. ولكن بدا واضحا أنه متوجه إلى مكان مقرر مسبقا، وربما السرعة والحاجة إلى عدم الانتظار كانت نتيجة الفيديو الذى يحمله فى يده، من المحتمل أن هذا التسجيل لا يحمل عنوان المرسل، (فقط توجد بداخله بطاقة) وربما كان "بيل" يعتقد أنه خاص بصديقتى برتا. وربما اعتقد أنه يحملها عارية فى يده فى تلك اللحظة.

توقف أمام محل عطور، محل روائح ضخم، ترى هل كان تحت تأثير روائح متعددة يجمعها مزيج من كل الروائح، لم تكن هناك بائعات، يتجول المشترون ويختارون ما يريدون من عطور. شاهدته يتوقف أمام خزانة "نانيريتش"، ورفع رسغه الأيسر، الذى لم تكن به ساعة يد، وفتح المغلف الثالث وقرأ الرسالة ببطء أكثر، هذه الرسالة لم يمزقها وذهبت إلى جيبه مباشرة، إنه رجل منظم. انتظر للحظة ثم تشمم العطر برقة دون أن تبدو على وجهه ردة فعل واضحة، وظل يتقدم فى سيره حتى وصل إلى قسم آخر أقل أهمية، يضم عدة ماركات من الروائح، من أول كولونيا جيرلين التى وضع قليلا منها على رسغه الآخر - مؤكد أن الرشة لحقت بالساعة السوداء الكبيرة الحجم - تشممها (إستيك الساعة) وبعد الثوانى الأولى من الاحترام المبدئى للخبراء فى هذا النوع قرر الشراء،

وبعدها توقف فى القسم الحيوى، وفجأة لم يعد هناك قسم لا تنتشر فيه الروائح المختلفة.

أخذ قنينة لماركة أمريكية تحمل اسما انجيليا جيرنيش أو جوردان أو جورداش، لا أتذكر، كان يريد أن يتعرف على المنتجات المحلية، أخذت أنا تروساردى لزوجتى، وبما أنى متزوج مؤكد أنى سأحتاجه دائما، فكرت (كنت دائما ما أفكر فى لويسا)، وأيضا يمكننى أن أهديها لبرتا (أخذت زجاجة أخرى بعد تفكيرى فى هذا) حينها فى طابور الدفع (كل واحد منا فى طابوره كان ينتظر الدفع فى الخزينة الخاصة به) عندما أدار رأسه وشاهدنى ومن المؤكد أنه تعرف علىّ، كانت عيناه نافذتين، كما بدتا لى فى مكتب البريد، ولكنها لا تكشف شيئا فى نفاذها، لا غرابة ولا حتى قلق ولا غيرة (لا خوف ولا تهديد) نافذتان لكنهما فارغتان، كما لو كان نفاذها أعمى، كما لو كانت لواحد من تلك الشخصيات التليفزيونية التى تعتقد أنها قوية ولكنها تُنسى. خاصة عند النظر إلى الكاميرا أو إلى شخص آخر.

خرج وبدأ فى السير من جديد، ورغم كل هذا فقد تبعته، رغم أنى عرفت أنه اكتشفنى، والآن أصبح يتوقف بشكل متكرر، ويتصنع مشاهدة المعارض أو مطابقة ساعته بساعات الشوارع. وعاد إلى مراقبتى، وأنا كنت أتخفى بشراء مجلات بعضها لا أريده، من المحلات المعروضة فى الشوارع، ولكن تمشيته استمرت لوقت قليل، فعند الوصول إلى شارع ٥٩ انحرف بيل بسرعة إلى يساره وفقدت تتبعه لعدة ثوان، وعندما وصلت إلى الناصية وأمكن أن يدخل فى نطاق بصرى من جديد، تمكنت بمعجزة من مشاهدته يصعد

بسرعة درجات سلم فندق بلاثا، ويختفى فى أبوابه بخفة، وحياه بوابون يرتدون ملابس خدم الفندق. كان يحمل فى يده شريط الفيديو وكيسا يحتوى على زجاجة العطر، وشطيرة ساخنة، عبرت المسافة من الناصية إلى المكان الذى عبر منه، على أمل الوصول إلى الفندق بسرعة لم تمكننى من مشاهدته: فندف بلاثا ذو الاسم الشهير، وبى اتش الحرفان على البرنس المعار، إنه لا يدعى بدرو هيرنانديث.

كل هذا هو ما قلته لبرتا، وبالطبع دون أن أحكى لها ما تخيلته عن هذا الشخص يمكن أن يكون هو نفسه الذى أجبر الخلاسية مريم ذات السيقان الممتلئة والحقيبة الكبيرة على الانتظار فى هافانا، رجل متزوج من امرأة مريضة، أو ربما بصحة جيدة، استمعت برتا إلى كل هذا باهتمام مصطنع وملمح انتصار ظاهر (النجاح النهائى لفكرتها، لزيارتى لمحطة كينمور ستيشن، قبل كل شىء). لم تكن لدى القدرة على الكذب عليها، وأن أقول لها إن "نيك" أو "جاك" أو "بيل"، متوحش، ولم يكن كذلك وهذا ما قلته لها، ولم أقل لها كذلك إن ملامحه كانت ملامح متلاعب وهذا ما لم أقله لها، رغم أننى لم أكن معجبا بمعطفه وبعينيه النفاذتين الغامضتين وحواجبه الساقطة والمرتفعة مثل شين كونرى وشاربه الرهيف وصوته الذى يشبه صوت المنشار. بهذا الصوت يناقش أعمالا ويتحدث عن كوبا بمعرفة حقيقية، وبهذا الصوت أمكنه أن يغوى برتا. لا يعجبنى، وأهديت برتا أول زجاجة عطر ماركة "توساردى".

مضت أيام عدة دون أن نذكره لا برتا ولا أنا (أنا كنت أتجنب الموضوع وبرتا كانت تحسب حساباتها) كانت أيام مثقلة بالعمل فى

الجمعية العامة بالأمم المتحدة، فى أحد الأيام كان يجب ترجمة خطاب المسئول الكبير الممثل لبلادي والذى غيرت كلامه فى الوقت الذى تعرفت فيه على لويسا. فى هذه الفرصة امتنعت عن تغيير كلامه، كنا فى الجمعية العامة، لكن بينما كنت أنتقل من الإنجليزية والسماعات لم تكن قد وصلت إلى باللغة الإسبانية، ومعانيها المتناقضة والمتعارضة، تذكرت رغم أنفى تلك الليلة، وما تذكرت أنه قال من خلالى، وما اعتقدت أنها قالته تعليقا على ما فعلت، بينما كانت لويسا تتنفس خلف ظهرى (كانت تتنفس إلى جوار أذنى اليسرى كما لو كانت تهمس وتكاد تلمسنى، وكاد نهدها أن يلتصق بظهرى). "الناس تحب بشكل ما أن يُطلب منها أن تحب"، كانت كلمة الزعيمة الإنجليزية، وكنت وقتها قد أضفت من عندى: "أى علاقة بين شخصين تكاد عادة أن تكون تراكما لسوء الفهم، وأيضا تشابكا وتصارعا. وبعدها بقليل: يدفع الكل الجميع إلى فعل ما يريدون وليس ما يريدون، لأنه يكاد معظم الناس ألا يعرفوا ما يريدون، لأنه يكاد الجميع لا يعرفون ما يريدون، ويعرفون أقل ما لا يريدون، وليس هناك طريقة لمعرفة هذا الأخير".

ورغم هذا فقد واصلت بينما كان مسئولنا الكبير فى حالة صمت، ربما كان متعبا من هذا الخطاب أو كما لو كان يتعلم شيئا" يجبره أحيانا شىء خارجى أو من تركوا وجودهم فى حياته، يجبرهم الماضى، وتردده، وتاريخه نفسه، وسيرته الملعونة، وربما أيضا أشياء يجهلونها، ولا يوجد فى إمكانه الوصول إليها، إنه جزء من إرثنا الذى نحمله جميعا ونجهله، ومن يعرف بدء مسيرته.."، وأخيرا كان قد قال: "أحيانا أتساءل إن كان من الأفضل أن نكون

جميعا ساكنين، وأن نكون جميعا موتى، وهو فى النهاية ما نريده جميعا، إن الفكرة المستقبلية الوحيدة التى نعتادها وفى مواجهتها لا يوجد محل للشك والندم المسبق". ظل زعيمنا صامتا والزعيمة الإنجليزية الكبيرة، التى كانت فى تلك اللحظة الخريفية قد فقدت وظيفتها ولم تحضر إلى الجمعية العامة النيويوركية، كانت قد ابتسمت بعد كلامه المزيف عندما سمعت الصمت الطويل الذى تابعته وأخرجها من حالتها. حينها ساعدتهما ووضعت على فمها عرضا لم يكن له وجود: "لماذا لا نخرج للتنزه فى الحديقة؟ إنه يوم رائع، (كنت قد منحت بهذه الجملة الملائكية قوة) وكنا قد خرجنا أربعتنا للتنزه فى الحديقة، فى ذلك الصباح الرائع الذى تعارفنا فيه لويسا وأنا.

والآن مسئولنا الكبير لا يزال فى مكانه، وربما كان هذا راجعا إلى ألعبانيته، ومضامينه المتناقضة، فقد كان متحفظا تماما كزميلته البريطانية وإن كان هذا لم يكن كافيا لتحافظ على مكانها. (ربما كانت امرأة مكتئبة ومؤكد ذهنية، وهذا النوع فى السياسة يحفر قبره بيديه)، بعد الخطاب التقينا بشكل عابر فى أحد الممرات، وكان محاطا بحاشيته. (كانت ورديتى قد انتهت، وكانوا يهنئونه على أقواله) وبما أنى كنت أعرفه، خطر على بالى أن أحييه مادا يدى ومناديا له بوظيفته، مع استخدام كلمة "السيد" قبلها، كانت لحظة غباء منى. فهو لم يتعرف علىّ على الإطلاق. رغم أنى شوهت كلامه فى الماضى وجعلته يقول أشياء لا وجود لها، ولا يمكن أن تخطر على باله أبدا. وعلى الفور أمسك حراسه بيدى الممدودة والأخرى اللا ممدودة ووضعوهما خلف ظهرى. وأمسكونى بعنف شديد (عذبونى وطحنوا جسدى)، وفى لحظة اعتقدت أننى مقيد،

أى، مقيد بقيود حديدية، ولحسن الحظ ظهر مسئول أممى كبير كان قد لاحظنى، وكان هناك بالقرب منا، وكشف لهم على الفور شخصيتى باعتبارى المترجم الفورى، وبهذه الطريقة نجح فى إطلاق سراحى من بين أيدى حراس مسئولنا الكبير. وهو واصل طريقه عبر الممر وتصدر عن جيوبه أصوات سلسلة مفاتيحه، وعندما لمحته يبتعد لاحظت أن جيوب بنطلونه متضخمة، وتتشابه فى قطعها مع بنطلونات بلادى الشهيرة التى لا تخطئها العين. وما كان أن تكون أفضل من أن يرتديها مسئولنا الذى يمثل بلادنا فى بلد بعيد.

*

حكيت ما حدث لبرتا هذه الليلة فى البيت، وهى عكس ما هو معتاد عندما أقص عليها مثل هذه المواقف، لم تسمعنى بسعادة ولا حتى أبدت دهشتها، ولا حتى بعدم مبالاة، كان رأسها مركزا فيما حدث هذا الصباح، أو فى أيام أخرى أيضا، مشروع "بيل"، هذا مؤكد.

ـ هل تساعدنى على تصوير الفيديو؟- سألتنى دون أن تنتظر حتى أنهى حكايتى.

ـ أساعدك؟ أى فيديو؟

ـ هيا، لا تتغابى؟ الفيديو، سأرسله له، قررت أن أرسله له، ولكنك تعرف لا يستطيع الإنسان أن يصور نفسه، وضع الصور فى إطارها وكل هذه الأشياء، والكاميرا لا يمكن أن تظل ثابتة، يجب أن تتحرك، هل تساعدنى؟ ـ كانت قد استخدمت نبرة خفيفة، أقرب إلى الهزل، ربما كنت أنظر إليها بنظرة غبية، لأنها أضافت (والنبرة لم تعد خفيفة)- لا تنظر إلى بهذا التعبير الوغد وأجبنى، هل

تساعدنى؟ واضح أنك لا ترغب وأنت تعرف أننا إن لم نرسله له فلن يرد علينا.

قلت أنا (لم أفكر فى كلماتى فى البداية):

ـ وماذا؟ هل هناك خطورة فى ألا ترسليه إليه؟ من؟ فكرى جيدا. من هو؟ وما أهمية ألا نرسله له؟ وإلا لا نستطيع أن نقول ذلك له، فهو بالنسبة لك لا أحد على الإطلاق، ولا استطعت حتى الآن أن تشاهدى وجهه.

عادت هى إلى استخدام صيغة الجمع، "إن لم نرسله له"، كانت قد قالت، اعتبرت أن مشاركتى أمر مفروغ منه، وربما لم يكن مبررا أن تستخدم هذه الصيغة، منذ أن ذهبت أنا إلى كينمور ستيشن وإلى أماكن أخرى، وحتى مدخل فندق بلاثا، وأيضا أنا استخدمتها فى أشياء مشابهة، ربما بسبب العدوى منها، "لو لم نرسله له"، "ورغم أننا لم نرسله له". قالته دون أن تنتبه.

ـ له أهمية بالنسبة لى، وهو خطير بالنسبة لى.

أشعلت التليفزيون، لقد كان وقت بث برنامج "Family Feud" كان برنامجًا يوميًا، والصور تساعد على تخطى العقبات التى تواجه الشخصيات، وربما كانت تهدف إلى إسكات الكلمات، ومن المستحيل عدم النظر من وقت لآخر لشاشة فى حالة عمل.

ـ لماذا لا تحاولين التوصل إلى لقاء؟ اكتبى له من جديد، ربما يجيب، رغم أنك لا ترسلين له ما يطلب.

ـ لا أريد إضاعة الوقت، هل ستساعدنى أم لا؟

لم تكن نبرتها خفيفة على الإطلاق هذه المرة، كانت آمرة أو ربما أقرب إلى ذلك، نظرت إلى الشاشة. قلت:

ـ افضل الا أفعل ذلك.

نظرت هى أيضا. قالت:

ـ ليس لدى أى شخص آخر لأطلب منه ذلك.

بعدها بقيت هى صامتة طوال الليلة. ولكن ليس برفقتى، ولكن بين المطبخ وغرفة نومها، عندما كانت تمر كانت تفوح منها رائحة "تروساردى".

لكننا التقينا خلال عطلة نهاية الأسبوع فى البيت أكثر. كما كان يحدث عادة (كان الأسبوع السادس من إقامتى هناك، وكانت ساعة العودة إلى مدريد تقترب، إلى بيتى الجديد مع لويسا، كنت أهاتفها مرتين فى الأسبوع، لم نكن نتحدث عن أى شىء، تلك المكالمات السريعة والعاطفية بعض الشىء، إضافة إلى أنها عابرة للقارات) وعادت برتا السبت إلى الإلحاح، "يجب أن أصور هذا الفيديو"، قالت، "عليك أن تساعدنى".

كانت فى تلك الأيام قد زاد عرجها أكثر من المعتاد، كما لو كانت تريد لفت انتباهى بطريقة لا واعية، كان الأمر عبثيا، لم أجب وهى واصلت: "لا أستطيع أن أطلب هذا من أى شخص آخر"، كنت أفكر، الشخص الوحيد الذى كنت أثق فيه هو خوليا، لكن هى لا تعلم أى شىء عن هذا الموضوع، تعرف حكاية مكتب العلاقات وإنى أنشر إعلانات شخصية وأخرج من وقت لآخر مع أشخاص لا نتواصل بعدها أبدا، ولكنها لا تعرف أنى أرسل تسجيلات وأستقبل

تسجيلات. أو أننى أمارس الجنس مع أحد، ولا تعرف أى شىء عن "الشخص المعروف جدا"، أما أنت فتعرف كل شىء منذ البداية، إلى درجة أنك شاهدت وجهه، فلا تجبرنى على أن أحكى كل هذا لشخص آخر، فالناس عادة ما تنتهى إلى إشاعة ما تعرف من أسرار، وأنا سأشعر بالحرج لو عرف الزملاء هذا، عليك أن تساعدنى". توقفت للحظة وترددت فى الكلام وأخيرا قالت (الرغبة عادة أكثر بطئا من اللسان): "على أى حال أنت شاهدتنى عارية من قبل، أنت شاهدتنى عارية، وهذا يتطلب منك الاستجابة".

"أى علاقة بين الأشخاص عبارة عن تراكمات من المشكلات، والصراع، وأيضا إهانات" فكرت، "كل الناس يجبرون كل الناس"، فكرت، "هذا الشخص المدعو "بيل" أجبر برتا، وبرتا تحاول أن تجبرنى، تصارع بيل، وأيضا أهان برتا حتى قبل أن يتعرف عليها، وربما لم تنتبه هى إلى ذلك أو أنها لا تهتم بذلك، وتتعايش داخل هذا الوضع. وتتصارع برتا معى لإقناعى، كما فعلت مريم مع جييرمو ليتزوجها، وربما فعل جييرمو هذا مع زوجته الإسبانية حتى تموت فى النهاية، إنه يصارع من أجل موتها. وأنا تصارعت وأجبرت لويسا، أو أن لويسا فعلت هذا معى، الأمر لا يبدو واضحا، وضد من تصارع أبى، أو من أهانه وأجبره، أو أنه كيف حدث أن فى حياته ميتتين، ربما تصارع من أجل واحدة، لا أريد أن أعرف، والعالم مريح عندما لا تعرف أى شىء، أليس من الأفضل أن نكون جميعا فى هدوء، ولكن حتى لو بقينا فى هدوء فإن توجد مشاكل، ونتصارع ونهان، ونجبر أنفسنا أيضا. وأحيانا نجبر أنفسنا بأنفسنا، إنه إحساس بالواجب، وربما كان واجبى مساعدة برتا فيما تطلب، يجب منح الأهمية لما يشعر به الأصدقاء، ولو رفضت مساعدتها

فإننى أوجه إليها إهانة، أى رفض عادة ما يكون إهانة وصراعًا، وحقيقة أيضا إننى شاهدتها عارية، ولكن حدث هذا قبل زمن طويل، أنا أعرف هذا ولكنى لا أتذكره، لقد مرت خمس عشرة سنة وهى الآن ناضجة وعرجاء، كانت حينها مراهقة ولم يكن قد وقع لها الحادث، وكانت ساقاها متساويتين، ترى ما الذى دفعها إلى هذا، لم نذكر أبدا ماضينا القصير، القصير فى حد ذاته، فى مواجهة الحاضر الممتد، أنا أيضا كنت مراهقا، وهذا حدث وربما لم يحدث، تماما مثل كل شىء، لماذا أن نفعل أو لا نفعل، لماذا نقول نعم أو لا، ولماذا نجهد أنفسنا ربما أو أحيانا، لماذا القول، ولماذا الصمت، ولماذا الرفض. لماذا لا نعرف أى شىء إن لم يكن ما يحدث قد حدث، لأن لا شىء يحدث هكذا على التواصل. فلا شىء يبقى أو يستمر أو نتذكره هكذا بلا توقف، ما يُعطى مطابق تماما لما نأخذه، وما نجريه مطابق تماما لما نتذوقه، نسكب كل ذكائنا وكل أحاسيسنا فى كل ما يعنينا ويعطينا توازننا، أو ما هو موجود، لكل هذا نحن مفعمون بالندم وبالفرص الضائعة، بالقبول والموافقة والفرض المنتهزة، بينما الحقيقة أنه لا شىء مؤكد وكل شىء فى طريقه إلى الضياع. ترى هل دائما وأبدا لا شىء مؤكد".

- "حسنا، لكن فلنفعل هذا بسرعة، الآن" قلت لبرتا. "علينا الإسراع" واستخدمت صيغة الجمع فى جملى، التى كانت مبررة بشكل كامل.

-"هل ستفعل هذا لى؟" قالت هى بامتنان واضح وفجائى وارتياح.

- "قولى لى ما يجب أن أفعله وسأفعله. لكن بسرعة، هيا، جهزى نفسك، كلما أسرعنا فى البداية وانتهينا كان أفضل".

اقتربت برتا منى وقبلتنى على وجنتى. ثم خرجت إلى الصالون وذهبت بحثا عن الكاميرا، لكنها سرعان ما عادت إلى الغرفة حيث أحضرتها، لكنها اختارت كمشهد للصورة فى غرفة نومها، السرير غير المرتب، كنا نتناول الإفطار، وكنا لا نزال فى الصباح.

ذلك الجسد لم يكن هو الجسد الذى أتذكره أو لا أتذكره، وإن كنت فى الحقيقة لم أنظر إليه سوى من خلال عين الكاميرا، لتحديد الإطار والاقتراب منها طبقا لما تطلبه هى، كما لو كانت مشاهدة هذا الجسد بشكل غير مباشر تمنع من تأمله، فى كل مرة نوقف فيها التصوير لبضع ثوان ولنفكر فى وضع جديد أو تغيير اللقطة (كنت أغيرها أنا فيما هى تفكر) كنت أنظر إلى الأرض أو للخلفية، نحو الجدار والمخدة، بعيدا عن هيئتها، بنظرتى التائهة، جلست برتا أولا إلى جوار قوائم السرير، كما فعل بيل ببرنسه الأزرق الفاتح، وفى هذا أيضا قلدته برتا.

كانت قد ارتدت برنسها (كان أبيض اللون) بعد أن طلبت منى أن أنتظرها حتى تستحم، وخرجت بالشعر مبتلا، وملتفة بالبرنس، وفتحته فيما بعد قليلا، وجعلته ينزلق حتى الجذع، وكان الحزام لا يزال مربوطا، لم أتذكر أنا تلك النهود النامية والمكتملة مع مرور الزمن وربما بسبب الاحتكاك. ما كان يمكننى أن أصدق أنها محقونة بشىء ما. كانا كما لو قد تحولا أو أصبحا نهدين مكتملين منذ أن تركت رؤيتهما، ولهذا لم أشعر بأننى غير صريح ولكن اهتززت أمامهما (ربما كأب ترك رؤية ابنته عارية عندما كبرت الطفلة ويراها فجأة فتاة ناضجة، بسبب حادث أو كارثة). جسدها كامل، هو ما كنت أراه عبر العدسة، كان أقوى من ذلك الذى كنت

أعانقه فى مدريد قبل خمس عشرة سنة، ربما كانت تمارس السباحة أو الجمباز خلال الأعوام الاثنى عشر التى قضتها فى أمريكا. هذا البلد الذى يهتم سكانه بشكل أجسادهم. هذا فقط. وإضافة إلى فورانه فقد كان أكبر سنا، اللون قاتم كقتامة جلد الفاكهة عندما تميل إلى النضج، والتجعيدات عند المنحنيات وفى الوسط والأجزاء المشدودة التى تبدو عليها كظلال لا تُرى إلا عند الاقتراب منها (المساحات المشدودة تبدو أقرب إلى البياض، كما لو كانت مرسومة على لوحة بفرشاة أكثر دقة)، والنهدان القويان كانا متباعدين أكثر مما يجب، وصدرها أكثر اتساعا، لا يمكنه أن يحتمل بعض الحمالات.

كانت برتا قد تركت خجلها جانبا، أو هذا ما بدا لى، وأنا لم أفعل هذا من جانبى، كنت أبذل جهدا للتفكير بأننى كنت أصور هذا لتراه عيون أخرى، عينا بيل أو جبيرمو، عينان نفاذتان محتجبتان للشخص الساكن فى فندق بلاثا. بى اتش، نظرته النافذة وفى الوقت نفسه تائهة من سترى ما كنت أراه، ولها كانت هذه الصور موجهة، وليس لى فأنا لم أكن أراها رغم أننى كنت أصورها من الزاوية التى اختارها أنا وهو ما يجب أن يراه هو (وأيضا يجب أن تراه برتا). ما سوف يشاهده هو على شاشته فيما بعد، وليس أكثر من هذا، وهو ما نقرره نحن، وما نسجله ليخلد فيما بعد ولفترة قصيرة.

كانت برتا قد جعلت برنسها ينزلق حتى وسطها، وكان الحزام لا يزال معقودا، والسيقان مستترة بذيل البرنس، فقط الجذع كان مكشوفا، (لكنه كان مكشوفا بشكل كامل). كنت أصور وجهها بشكل عابر، فى أى لحظة يتحرك فيها الفيديو ويصل إليه، ربما كنت أغطى على جمال الوجه (الأنف والعينين والفم والجبهة والوجنتين،

والوجه كله) بالجسد المجهول، والجسد الأكثر نضجا والأكثر قوة، أو ربما كان منسيا فقط.

لم تكن تشبه لويسا، الجسد الذى كان موجودا وقتها والذى اعتدته حاليا. رغم أننى انتبهت فى تلك اللحظة إلى أننى لم أدقق فى جسد لويسا على الإطلاق بهذه التفاصيل، ومن خلال كاميرا، جسد برتا هذا كان كخشب ندى تطعنه سكاكين، أما جسد لويسا فقد كان كرخام ترن عليه الخطوات. كانت أكثر شبابا وأقل إنهاكا، أقل تعبيرا وأقل لمسا.

لم نكن نتحدث بينما كنت أصور، كان الفيديو يسجل الصوت، وربما لهذا لم يكن مسليا ولم تكن برتا تشعر بالارتياح، وبالنسبة لى لم يكن كذلك على الإطلاق، فالأصوات كان يمكن أن تخفف وقع ما يحدث، فالحكى يخفف من وقع الحدث، توقفنا قليلا، أعدت متابعة ما صورناه، كل هذا استغرق وقتا قصيرا جدا، كان يجب أن نسجل دقائق قليلة فقط، ولكننا لم نكن قد انتهينا بعد.

فى كل مرة كنت أنظر أكثر من خلال عينى بيل ولكنى كنت أرى برتا من خلال عينيه وليس من خلال عينى، ولا يستطيع أحد أن يتهمنى بأننى نظرت من خلال تلك النظرة، ولا أننى دققت فيها بنظرتى كما قلت من قبل، لأننى لم أكن أنا بالضبط بل كان هو من ينظر إليها من خلال عينى، عيناه هو أما عيناى أنا فقد كانتا تائهتين، كانت عيناى فى كل مرة أكثر نفاذا. لكنها هى كانت تجهل هاتين العينين، ولم نكن قد فرغنا بعد.

"الفرج"، قلت لبرتا، كيف تجرأت على أن أقول هذا لها، لكننى فعلتها. "ينقصنا الفرج"، قلت لها، واستخدمت صيغة الجمع لأدخل

نفسى فى الحدث، أو ربما للتخفيف من وقع ما كنت أقول. هما كلمتان فقط. وبعدها أربع، بإعادة تكرار الأوليين فى الجملة الثانية (ربما كنت أتحدث من خلال فم بيل) لم تجب برتا، لم تقل أى شىء، لا أعرف إن كانت تنظر إلى، أنا لم أكن أنظر إليها (فى تلك اللحظة لم أكن أصور) كنت أنظر إلى الخلفية، نحو الجدار والمخدة، والتى يرى فيها المرضى والمتزوجون حديثا نهاية العالم، وأيضا العشاق.

فكت الحزام، وفتحت البرنس على مستوى الفخذين ولكن ليس من الأمام ولا أقل من هذا، الباقى، سقط كقشرة رقيقة زرقاء شاحبة مخفية الأطراف (أو كانت قشرة بيضاء)، ولقطة بعيدة ثم لقطة أكثر قربا. لقطة أكثر قربا وأخرى بعيدة، وأنا صورت ثوان من الفيديو، تخليدا قصيرا لها. ستقوم برتا بعمل نسخة لها. كانت قد قالت لى هذا، وعلى الفور أغلقت البرنس على جسدها، عندما كنت قد سجلت نهاية سيقانها وانسحبت بالكاميرا بعض الشىء، فكرت أن أثر جرحها كان محمرا، ظللت دون أن أنظر إليها، وكنت مازلت أريد أن أقول لها شيئا، لم نكن قد انتهينا بعد، كان ينقصنا شىء مما طلبه بيل أو جاك أو نيك، كان ينقصنا تصوير الساق. أشعلت سيجارة وعند إشعالها سقطت جمرة على السرير غير المرتب. لكنها سقطت مطفأة ولم تحرق الشرشف. وحينها توصلت إلى أن أقول لها، أو قاله لها بيل أو قاله جييرمو بصوتنا الذى يشبه المنشار، "الساق" قلناها معا، قلت لها "ينقصنا تصوير الساق" قلنا، "تذكرى أن بيل يريد أن يراها".

إذا كنت أتذكر الآن كل هذا فسببه ما حدث فيما بعد، بعد ذلك بقليل وفى نيويورك. لأنه يشبهه فى مظهر من مظاهره (ولكنى أعتقد أنه يشبهه فقط فى مظهر واحد، أو ربما فى اثنين، أو ثلاثة) فيما حدث بعدها بوقت متأخر قليلا بعد أن عدت أنا إلى مدريد مع لويسا وأصبحت أكثر قوة، وربما شعرنا به كأكثر من كارثة رافقتنى منذ يوم الزفاف ولم يغادرنى هذا الإحساس بعد (ليس بشكل كامل، وربما لا يغادرنى أبدا)، وربما كان يتعلق بقلق ثالث، شىء مختلف عما جربته من قبل خلال رحلة شهر العسل (وبشكل خاص فى هافانا) وربما قبلها، إحساس غير مريح ومع ذلك يشبه المظهر الثانى، ومن المحتمل أن يكون من صنع الخيال أو مُتخيل بالكامل أو موجود فعلا، الإجابة الشافية عن السؤال المرعب عن القلق المبدئى ليست كافية، "والآن ماذا؟" إنه سؤال تكون الإجابة عليه مرة وأخرى، ولكنه يظل يظهر بشكل دائم، أو يستعيد نفسه أو دائما ما يكون موجوداً هناك، ويختفى خلف كل إجابة، تماما كحكاية "البذرة الطيبة" التى جرى حكيها لكل الأطفال لتخويفهم، والتى كانت تحكيها لى جدتى الهافانية خلال الأمسيات التى كان يتركنى فيها أبى معها، أمسيات تنقضى بين الأغنيات والألعاب

والحكايات والنظرات العابرة إلى صور من ماتوا، أو فى النظرات التى يجرى فيها الزمن الجارى. "هل أحكى لك حكاية "البذرة"؟"، كانت جدتى تقول بطيبة كبيرة، "نعم"، كنت أجيبها أنا مثل كل الأطفال. "لا أقول لك لا نعم ولا لا، بل إن أردت يمكننى أن أحكى لك حكاية البذرة الطيبة"، تواصل جدتى ضاحكة. "لا"، أبدل أنا الإجابة مثل كل الأطفال. "لن أقول لك نعم ولا لا، بل إن أردت أن أحكى لك حكاية البذرة الطيبة"، وتواصل الجدة ضحكتها، وهكذا حد التعب، مستغلة أن الطفل لن يقدم لها أبدا الإجابة المنتظرة "أريدك أن تحكى لى حكاية البذرة الطيبة"، يكون التكرار لمجرد الإنقاذ، أو أن الطفل لا يعثر عليها لأنه يظل يعيش بين الـ"نعم" والـ"لا"، ولا يتعب من ربما أو من المحتمل. ولكن ذلك السؤال الآخر فى ذلك الوقت والآن يكون أسوأ، وتكرارا لا يؤدى إلى شىء، كما لم يكن أو لم يجبه ولا أنهاه عند إعادة أبى إلى الكازينو فى شارع القلعة رقم ١٥ عندما وجهه إلىّ بصوت مرتفع، وكنا وحدنا فى إحدى الغرف بعد الزفاف. "هذا ما أقوله أنا"، كانت هذه إجابتى. "والآن ماذا؟". كانت هذه الطريقة الوحيدة للتهرب من ذلك السؤال وليس تكراره، وهو ألا يكون موجودا وليس طرحه فقط ولا السماح لأحد بطرحه على أى شخص، ولكن هذا مستحيل، وربما لهذا السبب، للإجابة عليه يجب اختلاق مشكلات ومعاناة وضغوط والاشتباه والتفكير فى المستقبل المجرد. التفكير فى عقل مريض أو متمارض بالعقل، "so brainsickly of things" كما قالوا لماكبث ألا يفعل، رؤية ما هو غير موجود لكى يوجد، الخوف من المرض أو الموت، أو الإهمال أو الخيانة، وخلق حالة من القلق، حتى لو كان عبر شخص متطفل. حتى لو كان بشكل رمزى، وربما كان هذا هو

السبب الذى يدفع إلى قراءة الروايات والحكايات ومشاهدة الأفلام، البحث عن الرمز، البحث عن الاعتراف، قول أشياء غير مكتملة الهيئة، حكى الأشياء بشكل غير واضح ومختلط، ورفضها تقريبا. وكل ما يُقال يتحول إلى واقع أو قريب منه حتى لو كان غير حقيقى. فالحقيقة لا علاقة لها بأن الوقائع حقيقية أم لا، ولكن أن تظل تلك الوقائع خافية ولا تعرف ولا تقال، لأنه عندما يجرى حكيها أو إعلانها أو إبرازها، حتى لو كانت فى الواقع الأكثر واقعية، فى التليفزيون أو الصحف، فيما يطلقون عليه الواقع أو الحياة أو حتى الحياة الواقعية، ستشكل جزءا من الرمز، وحينها لا تصبح أحداثا، بل ستتحول إلى اعتراف. فالحقيقة لا تعود إلى السطوع أبدا، كما يقول الشكل. لأن الحقيقة الوحيدة هى التى لا تُعرف ولا تُنقل، والتى لا تُترجم فى كلمات ولا صور، المخفية والتى لا يُبحث عنها، وربما لهذا كثيرا ما يحكون كل شىء حتى لا يحدث أى شىء على الإطلاق، بمجرد أن يجرى حكيه.

ما حدث على إثر عودتى من نيويورك لا أعرف تماما كيف كان، أو من الأفضل القول، ربما قد لا أعرف ما حدث خلال غيابى حتى مرور عدة سنوات، فقط كل ما أعرفه أنه خلال ليلة مطيرة، بعد مرور أسبوع من عودتى من نيويورك، وأنا مع لويسا فى البيت، وبعد مرور ثمانية أسابيع من العمل والإقامة مع برتا، استيقظت وتركت المخدة والسرير وذهبت إلى الثلاجة، كان المناخ باردا، أو ربما منحتنى الثلاجة هذا الإحساس، ثم ذهبت إلى الحمّام، وارتديت معطفا منزليا (كانت لدىّ رغبة فى ارتداء البرنس كمعطف، ولكنى لم أفعل) وعلى التوالى، بينما كانت لويسا تدخل بدورها إلى الحمّام لتغتسل، توقفت أنا لحظة فى الغرفة التى أعمل

فيها وطالعت بعض النصوص واقفا، وفى يدى كوب كوكاكولا ومستيقظا تماما.

كان المطر يتساقط كما كان يتساقط كثيرا فى مدريد الخالية. كان متناغما ومتكاسلا ودون رياح تغير اتجاهه، كما لو كان يعرف أنه سوف يستمر أياما وليست لديه نزوة غضب ولا سرعة. نظرت إلى الخارج، نحو الأشجار ونحو أطواق مصابيح الشارع المنحنية التى تضىء المطر المتساقط، فتجعله يبدو فضيا. وحينها شاهدت هيئة شخص ما عند الناصية التى توقف عندها فيما بعد عازف الأرغنيو العجوز والفتاة ذات الضفيرة والطبق، عند تلك الناصية التى تُرى فقط جزئيا من نافذتى، هيئة شخص ما، على الاختلاف عنهم، كان يدخل فى إطارى البصرى بشكل كامل لأنه كان يحتمى من المطر، أو ليس كثيرا، كان تحت إفريز المبنى الذى لم يكن يحرمنى من رؤية الضوء والمواجه لنا، والذى كان يحتمى تحت جدرانه، بعيدا عن الإسفلت، من المستبعد أن تصدمه سيارة، ولم يكد يكون هناك مارة، وأيضا كان يحتمى بقبعة، وهو ما يبدو غريبا فى مدريد وخاصة فى يوم مطير، يرتدى القبعات عادة بعض كبار السن، مثل رانز، أبى، تلك الهيئة (يمكن رؤيته فى الحال) لم تكن هيئة رجل كبير السن، لكنها هيئة رجل لا يزال شابا وطويلا.

حافة قبعته والعتمة والمسافة لا تسمح لى برؤية وجهه، أى أن أدقق فى ملامحه (رأيت البقعة البيضاء لوجه مضبب، ووجه بقى بعيدا عن قوس الضوء الأقرب إليه) وهو بالضبط ما جعلنى أتوقف لأدقق فيه لأن وجهه كان مرفوعا وينظر باتجاه نافذتى، أو تقريبا، إلى ما تبقى إلى يسارى وهى نافذة غرفة نومنا، الرجل، من مكانه، لا يمكنه رؤية أى شىء من داخل الغرفة، الشىء الوحيد الذى يمكنه

رؤيته ـ ظلالنا ـ وربما كان ينظر ـ إن كان فيها ضوء أم لا، أو ربما ـ فكرت ـ رؤية ظلالنا، هيئة لويسا وهيئتى، إن كنا نتقارب كثيرا أو نتباعد، لا أتذكر جيدا، وربما كان فى انتظار إشارة ما، من خلال الضوء الذى يشتعل وينطفئ، كما فى العينين، الإشارات كانت لغة منذ أزمنة غابرة، فتح وإغلاق العينين وتحريك المشاعل عن بعد.

الحقيقة إننى تعرفت عليه على الفور رغم عدم رؤية ملامحه، الأشكال الطفولية لا تخطئها العين منذ أول لحظة فى أى مكان وفى أى زمن، حتى لو كانت قد تغيرت أو نمت أو أصابتها الشيخوخة. ولكنى غبت للحظات قبل أن أتعرف على تلك الهيئة، وأن أتعرف على أن الواقف تحت قوس الضوء والمطر هو كوستاردوى الفتى، ناظرا باتجاه نافذتنا، كما فعلت مريم تقريبا أو كما فعلت أنا قبل أيام. كوستاردوى هنا، على ناصية بيتى. فأنا لم أتوقف كعاشق، ولكن نعم ربما فى البحث عن هدف كوستاردوى، أن نطفئ أنا ولويسا الضوء نهائيا حتى يمكنه أن يتخيل أننا نمنا ويولينا ظهره، وليس فى مواجهتنا أو ربما أن نتعانق مستيقظين.

"ماذا يفعل كوستاردوى هناك". فكرت، "هل هى صدفة، وأن المطر فاجأه عندما كان مارا فى شارعنا، ويقف محتميا تحت إفريز المبنى المواجه، ولا يجرؤ على الاتصال أو الصعود، الوقت متأخر، ولكن هذا لا يمكن أن يكون، إنه هناك ينتظر، منذ بعض الوقت، وهذا يبدو من طريقته وكيفية رفع ياقة الجاكيت، وإغلاقها ممسكا بها بيديه المعروفتين بينما يرفع عينيه المتباعدتين السوداوين الكبيرتين، تبدوان بلا رموش ناظرا إلى غرفة نومنا، ماذا ينظر، عن ماذا يبحث، ماذا يريد، لماذا ينظر، أعرف أنه جاء مع رانز خلال غيابى، لزيارة لويسا خلال عدم وجودى، جاء به أبى، فيما يسميه

المرور بالبيت، زيارة والد الزوج وصديق له ومن المعتاد أنه صديقى، ربما وقع فى حب لويسا، لكن مثله لا يقع فى الحب، ولا أعرف إن كانت هى تعى ذلك، إنه أمر غريب فى ليلة مطيرة، وبعد أن عدت أنا، يغرق فى المياه بالشارع مثل كلب. كانت هذه أفكارى الأولى السريعة المشوشة.

سمعت كيف أن لويسا تخرج من الحمّام وتعود إلى غرفة نومنا. نادتنى من هناك باسمى وقالت لى (جدار يفصلنا والبابان المؤديان إلى الممر كانا مفتوحين) "ألا تأتى لتنام؟ هيا. الوقت متأخر". كانت نبرة صوتها طبيعية جدا ومتحمسة فى مثل كل تلك الأيام منذ عودتى، مر الآن أسبوع، كما كانت نبرة صوتها قبلها بدقائق عندما كانت تقول لى أشياء حميمة عن المشترك والمشاركة فى المخدة. وبدلا من أن أقول لها ما كان يحدث، وما كنت أراه، امتنعت، كما امتنعت عن الخروج إلى الشرفة والنداء على كوستاردوى باسمه وسؤاله مباشرة: "إيه، ماذا تفعل أنت هنا؟" نفس السؤال الذى سألتنى إياه مريم دون أن تعرفنى، كيف يتوجه الواحد منا إلى شخص معروف وتوجد بيننا ثقة. وأجبت دون مواربة (تردد الشك، رغم إننى حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف) "أطفئى الضوء إذا كنت تريدين، فأنا لم يغالبنى النعاس بعد، سأراجع عملا لبعض الوقت"، "حسنا، لكن لا تتأخر كثيرا" قالت هى، وشاهدت كيف أنها تطفئ النور، شاهدته عبر الممر.

أغلقت أنا بابى باحتراس ومباشرة أطفأت الضوء، أضأت اللمبة الصغيرة فى الغرفة التى أعمل بها لمراجعة النصوص، وحينها عرفت أن كل نوافذنا بقيت مظلمة. عدت للنظر إلى نافذتى، كان كوستاردوى الابن لا يزال يواصل النظر إلى أعلى، الوجه المتطلع،

البقعة البيضاء تتطلع إلى سماء قاتمة، ورغم إفريز المبنى كان المطر يضربه، وربما كانت تتساقط قطرات منه على الوجنتين ممتزجة بعرق وليس بدمع، وقطرة المطر التى تسقط من الإفريز تسقط دائما فى المكان نفسه فترق الأرض إلى أن تخترقها فاتحة فيها حفرة وربما مجرى مائيا، حفرة ومجرى كما لدى برتا الذى رأيته وسجلته ومثل لويسا الذى دخلت فيه، قبل دقائق من الآن.

"سيذهب الآن"، فكرت، "عندما يرى الأضواء مطفأة سيذهب، كما غادرت أنا انتظارى عندما شاهدت أضواء بيت برتا مطفأة، قبل فترة قليلة من الآن، وحينئذ كانت تلك إشارة متفقًا عليها، وأيضا أمضيت فترة منتظرا فى الشارع، كما يفعل كوستاردوى الآن. كما كانت مريم قبل زمن، فقط فى حالة مريم لم تكن تعرف أنها كانت مُراقبة من أعلى بوجهين، أو ببقعة بيضاء وأربعة عيون، عينا جييرمو وعيناى، وفى حالة لويسا فهى لا تعرف أنهم يتجسسون عليها من الشارع دون أن يروها، وكوستاردوى يجهل أن عينى تراقبانه من السماء القاتمة، من أعلى، بينما يتساقط المطر الذى يبدو كزئبق أو فضة تحت أضواء أعمدة الإنارة. فيما نحن الاثنان كنا نعرف، برتا وأنا فى نيويورك، حيث كنا كل فى مكانه، أو أمكننا أن نعرف.

"الآن سيذهب"، فكرت، "يجب أن يذهب حتى يمكننى أن أعود إلى غرفة نومى مع لويسا وأتخلص من وجوده. لا أستطيع أن أغمض عينى ما لم أضم لويسا النائمة من ظهرها وأنا أعرف أن كوستاردوى لا يزال هناك فى الأسفل. أنا شاهدته خلال طفولتى مرات كثيرة ينظر من نافذة غرفتى، كما أنظر أنا الآن، وأتطلع إلى الخارج وأرغب فى مشاركة العالم الذى يخصنى والذى يفصله

شرفة وشىء من الزجاج. يولينى ظهره بعنقه الحليق أو يقلدنى فى غرفتى، كان طفلا مخيفا وهو الآن رجل مخيف، إنه رجل يعرف منذ اللحظة الأولى من يجب القفز عليه ولأى هدف، فى محل عام أو فى حفل أو حتى فى الشارع وأيضا لا شك فى بيت زاره، أو جاء إليه، وربما كان هو من يخلق الفرصة والموقف، فى حضور لويسا ولكن ليس قبل سفرى، على عكس برتا، فإن الذى وقع قبل وصولى وخلال فترة وجودى وسيحدث حتى بعد رحيلى، أنا متأكد، أنها سوف تواصل رؤية بيل، الذى اسمه جييرمو، مؤكد أنها عادت لرؤيته، أو ربما يكون جييرمو قد عاد إلى إسبانيا مثلى بعد أشهر عمله، ومن ثلاثتنا ستكون برتا وحدها من بقيت، يجب أن أهاتفها، أنا ذهبت لكنى ظللت منغمسا فى حكايتها، صيغة الجمع لا يمكن تجنبها، ولا يمضى وقت حتى تظهر فى جميع الأنحاء، ما الذى يريده كوستاردوى منا الآن، ماذا يبحث لنا".

أنا لا أريد ولم أبحث عن أى شىء عندما كنت أنتظر خارج بيت برتا، لأنه أمر طارئ، وهو ما لم نكن قد حسبنا حسابه، كانت نهاية الأسبوع السابع من أسابيعى الثمانية فى مشروعى العملى، وهو التالى الذى حكيته والذى قمت فيه بتصوير الفيلم القصير الذى لا يتعدى دقائق معدودة، وخلال الأيام السابقة من ذلك الأسبوع قبل الأخير كان البريد قد انتظم، وكنا أرسلنا الفيديو يوم الاثنين (دون أن تطبع منه برتا نسخة لها) وجاء بنتيجة إيجابية، أو أن بيل رأى أنه جذاب بشكل كبير حتى يقبل المخاطرة، وكان قد أجاب فقط برسالة خطية قصيرة، دون أن يعتذر عن عدم الإجابة بشىء مشابه، ودون أن يكشف عن وجهه بعد، لكنه طلب موعدا للقاء فى يوم السبت التالى، ومظروفه لم يصلنا حتى الجمعة، كان

واثقا أنه حتى ذلك اليوم لم تكن برتا قد مرت على صندوق بريدها، فى أولد تشيلسى ستيشن كل مساء طوال أيام الأسبوع، بعد خروجها من العمل، رسالة بيل الخطية كانت لا تزال باللغة الإنجليزية، كما هى دائما. ولكنه كان إسبانيًا بشكل لا تخطئه العين، أن يقوم بضرب موعد على هذا النحو. فى المساء وفى اليوم التالى ليلا، "أنا سأتعرف عليك" قال، فى بار اواك بفندق بلاثا، وهو مكان لضرب مواعيد سابقة على الذهاب إلى المسرح أو للذهاب لتناول العشاء أو حتى للذهاب إلى الأوبرا، دون أن يعرف أنها تعرف أيضا أنه المكان الذى ينزل فيه، هذا ما حدث، حيث كانت توجد مخدته. وهذه الليلة كانت برتا على موعد للعشاء مع صديقتها خوليا وأناس آخرين فى موعد تم الاتفاق عليه قبلها بأسابيع، وأنا أيضا كنت سأرافقها، وقررت أنه من الأفضل ألا تعلن عن غيبتها لأنهم قد يمرون على بيتها لرؤيتها لو ادعت المرض، وكان أنا، عندما وصلت إلى مطعم البويرتو، من قدم اعتذارها مدعيا إصابتها بوعكة وشعرت أننى دخيل بوصولى وحيدا، ولم أكد أعرف بعض هؤلاء الأشخاص.

قبل الخروج، بينما كنت أحلق ذقنى وأستعد، كانت برتا تتزين (ربما كنوع من الاعتياد) لتلتقى أخيرا "بيل" أو "جاك" أو "نيك"، وكنا نتقاسم مرآة الحمّام فى صمت، والحمّام ذاته، كانت هى قلقة وأنا كنت أشم رائحة "تروساردى"، "ألم تنته بعد؟" قالت لى فجأة عندما شاهدتنى أنتهى من الذقن، "لم أكن أعرف أنك ستخرجين الآن وفورا"، أجبت، "كان يمكننى أن أحلق ذقنى فى غرفتى"، "لا، لن أخرج قبل ساعة من الآن"، كانت تلك إجابتها بجفاء، ومع ذلك كانت مرتدية ملابسها بأناقة كبيرة ولم يبق سوى أن تضع المساحيق،

شىء، كما أعرف أنا، كانت تفعله بشكل سريع، (ترتدى حذاءها بأسرع من ذلك، ربما كانت أقدامها نظيفة جدا). لم أكن قد عقدت ربطة العنق عندما عادت إلى الدخول إلى الحمّام مرتدية ملابس مختلفة، وليست أقل أناقة، "آه، يا لك من جميلة"، "أنا مثيرة للاشمئزاز"، أجابت هى، "لا أعرف ما يمكننى أن أرتضيه، ما رأيك"، "ربما كنت أفضل من قبل، وإن كنت هكذا تبدين جميلة جدا"، "قبل؟ لم أكن قد غيرت ملابسى حتى الآن" قالت، "ما كنت أرتديه من قبل كان للبقاء فى البيت لبعض الوقت، وليس للخروج هذا المساء"، "آه، كان جيدا"، أجبتها أنا بينما كنت أنظف العدسات برباط العنق الملتف حول رقبتى.

خرجتُ وبعد دقائق عادت من جديد بفستان مختلف، أكثر إثارة إن كان لتلك الكلمة معنى، من المؤكد أن لها معنى لأنه ليس من الغريب استخدامها لوصف ملابس النساء، وتوجد فى جميع اللغات التى أعرفها، واللغات لا تخطئ عادة بشكل جماعى، نظرت هى فى المرآة عن بعد لترى نفسها بشكل أكثر اكتمالا (لا توجد مرآة فى البيت تعكس الجسد بكامله، انزحت أنا جانبا وتوقفت عن عقد رباط العنق)، ثنت إحدى ركبتيها ومسدت بيدها على الفستان القصير والضيق قليلا، كما لو كانت تخشى بروزا متخيلا يكشف عن عجيزتها، أو ربما كانت تعدل من وضع ملابسها الداخلية عبر القماش الذى يغطيها. كانت مهتمة بشكلها وهى مرتدية الفستان. لقد شاهدها "بيل" عارية، وإن كان ذلك على الشاشة.

- ألا تخافين قليلا - قلت لها.

- إلى أى شىء تهدف؟

ـ شخص مجهول، لا أحد يمكنه أن يتوقع، لا أريد أن أبدو وغدا، لكن، كما قلتِ أنتِ، العالم ملىء بأنواع كثيرة من البشر، والذين يمكننا أن نلتقى بهم فى الشارع.

ـ معظم هؤلاء الناس يعملون فى "حقل معروف"، ونراهم يوميا فى الأمم المتحدة والعالم كله يقابلهم فى الشارع، إضافة إلى أن الأمر سيان بالنسبة لى، لقد اعتدت هذا، لو كنت خائفة ما عرفت أحدا على الإطلاق، ودائما ما يمكن التراجع، ويكون من سوء الحظ لو وقع سوء، حسنا، ليس دائما، وأحيانا يكون الوقت قد فات.

كانت تراقب نفسها مرة بعد أخرى، من الأمام، وبنظرة جانبية، ومن الجانب الآخر، ومن الظهر، ولكنها لم تكن تسألنى إن كانت أفضل من قبل أم أنها أفضل الآن، وأنا لم أكن راغبا فى التدخل دون أن تطلب منى ذلك، وطلبت منى:

ـ أنا مقززة جدا ـ قالت.

ـ لا تحاولى، أنت فى هيئة حسنة جدا، قبل أيام اعتقدت أنك ستنتهين إلى النحافة الكاملة ـ قلت لها وأضفت فى محاولة لإبعاد تفكيرها عن اعتبارات لا قيمة لها ـ أين تعتقدين أنه سيأخذك؟

بللت مشطا صغيرا فى مياه الصنبور ومشطت حواجبها نحو الأعلى لتمنحها تلاصقا.

ـ مع الأخذ فى الاعتبار أنه لا يداور وواعدنى فى الفندق، علىّ أن أفترض أنه يريد أن يأخذنى مباشرة إلى الغرفة. ولكن ليس لدى أى نية لبقائى دون عشاء هذه الليلة.

ـ يمكنه أن يكون قد جهز لطلب العشاء فى الغرفة، كما يحدث فى أفلام الإغراء.

ـ لو حدث هذا يكون ذكيا، تذكر أننى لم أشاهد بعد وجهه. وربما حتى لا أجلس لتناول مشروب معه.

بعد رؤيتى له ـ كانت برتا تشجع نفسها، كانت غير واثقة، تريد أن تفكر وقتيا أن الأشياء قد لا تمر كما يجب. وأنها يجب أن تكون مقتنعة، أى، أن تقع تحت الإغواء. كانت تعرف ما يحدث لأن الأمر متعلق فى مجمله بموقفها هى، وكانت تحت سيطرة الإغواء حتى من قبل أن يكتب لها "نيك"، باستعدادها لتقبل العرض لأنه أفضل ما يمكن أن يقنعها، ولهذا سرعان ما أضافت، كما لو كانت لا تريد أن تخدع نفسها أمامى ولو للحظات.

ـ آه، لا تقلق إن لم أعد، ربما لا أعود للنوم هنا.

خرجت أنا من الحمّام وأنهيت عقد ربطة العنق فى غرفتى، بمساعدة مرآة يد صغيرة، وكنت جاهزا تقريبا للخروج، وموعدى الذى كان موعدها هى يحين قبل موعدها، ارتديت الجاكيت ووضعت المعطف على ذراعى، عدت مرة أخرى إلى باب الحمّام لأودعها، والآن دون أن أجرؤ على عبور عتبة الباب، كما لو كانت بعد التزين لم أعد أملك الحق فى أن أودعها رغم حفاظنا على القواعد الاجتماعية بيننا، بين صديقين تعانقا فى اليقظة قبل خمسة عشر عاما.

ـ هل يمكنك أن تقدمى لى جميلا؟ ـ سألتها فجأة بإطلالة من رأسى إلى الداخل، (فجأة لأننى لم أكن قد قررت أن أسألها، وكنت لا أزال أفكر فيه قبل أن أحدثها)

تركت هى النظر إلىّ (كانت تبحث عن نقاط غير موفقة فى ملابسها عبر دبابيس فى مواجهة المرآة، المرآة كلها لها) قالت:

ـ ماذا تريد؟

عدت إلى التفكير مجددا، وعدت إلى الكلام قبل أن أحل المسألة فى ذهنى (كما يحدث عندما أترجم وأحيانا أتقدم قليلا عن الكلام المترجم لأننى أتنبأ بما سوف يقال) وبينما كنت لا أزال أفكر "لو أننى طلبت منها هذا ربما تطالبنى بإيضاحات".

ـ هل يمكنك أن تحاولى الحديث معه عن اسم مريم، وحاولى أن تعرفى رد فعله، وتحكى لى ما يحدث فيما بعد؟

شدت برتا شعرة من حاجبها بقوة وكانت تمسك بها من خلال الملقاط قبل أن أحدثها، والآن تنظر إلى.

ـ اسم مريم؟ لماذا؟ ماذا تعرف؟ هل هى زوجته؟

ـ لا، لا أعرف أى شىء، فقط كانت تجربة، مجرد فكرة.

ـ دعنى أرى ـ قالت هى، وحركت إصبع السبابة فى يدها اليمنى عدة مرات كما لو تريد أن تسحبنى نحوها، أو كما لو كانت تريد أن تقول: "افهمنى" أو "اشرح لى" أو احك لى". كان نوعا من التخبط.

ـ فى الحقيقة لا شىء، لا شىء، فقط مجرد شك، إنه مجرد تخيل من جانبى، وأيضا لا وقت الآن نضيعه، يجب أن أصل فى الموعد المحدد لتنبيههم لغيابك، وسوف أقص عليك ذلك صباح الغد، إذا تذكرت وأمكنك ذلك، يمكنك أن تذكرى هذا الاسم فى الحديث، ليس مهما كيف، قولى له إنك ألغيت موعدا للعشاء مع صديقة اسمها هكذا، أى شىء، فقط ذكر الاسم. ولكن لا تلحى عليه.

تهتم برتا بما هو غامض، وكل الناس يحبون إجراء تجارب والتوصل إلى نتائج، حتى لو لم يكونوا يعرفون لأى هدف.

ـ حسنا ـ قالت ـ سأحاول أن أفعل ذلك، هل يمكنك أنت أن تقدم لى جميلا؟

ـ ماذا؟ ـ قلت.

تحدثت هى دون تفكير، أو ربما كانت قد فكرت فيه من قبل وتوصلت إلى نتيجة.

ـ هل لديك واق ذكرى يمكنك أن تتركه لى؟ ـ قالت بسرعة وبفم هامس بينما لم تكن تنظر إلى (كانت تضع الروج على شفتيها بقلم صغير وبحرص شديد).

ـ ربما كان لدى بعضه فى حقيبة أدوات الحلاقة ـ أجبت بشكل طبيعى جدا كما لو كانت تطلب منى مشبكا، وكانت لديها مشابك على الحوض، لكنها طبيعية مصطنعة فلم أتمكن من تجنب إضافة- كنت أعتقد أنك تأملين فى بعض لقاءاتك ألا تحمليها فى يوم من الأيام.

انطلقت برتا فى الضحك وقالت:

ـ نعم، لكنى لا أريد المخاطرة ألا يكون هذا الشهير لا يحملها معه.

كانت ضحكتها تعكس بعض السعادة، كما كان فى ترنيمها الذى توصلت إلى سماعه (كانت تمشط شعرها أمام المرآة، وحيدة، دون حضورى معتمدة على حافة أحد الأبواب غير باب غرفة نومى) بينما كنت أتوجه نحو باب الخروج، ضحك وترنيم النساء

المحظوظات، اللاتى ما زلن شبابا ولسن جدات أو أرامل، أو عوانس، هذا الغناء الذى لا قيمة له وغير الموجه إلى أحد، ولا يحكم عليه أحد، ولم يكن الآن مدخلا للنوم ولا تعبيرا عن التعب، ولكنها الضحكة البلهاء أو تعبيرا عن مقدم ما هو مرغوب، أو ما هو معروف مسبقا.

لكن حدث شيء غير متوقع، بعد أن فكرت فيه فيما بعد، إنه لم يكن شيئا غير محتمل، عدت أنا من عشائى فى حوالى الثانية عشرة، وكما كنت أفعل دائما قبل خلودى إلى النوم، جلست أمام التليفزيون وبدأت فى مطالعة القنوات التى تبث فى العالم خلال غيابى، كنت أفعل هذا عندما انفتح باب الشارع الذى أغلقته دون مزلاج قبل دقائق وظهرت برتا، لم تضع المفاتيح فى حقيبتها، احتفظت بها فى يدها، كانت تعرج أقل من أى وقت مضى، أو كانت تحاول ألا تعرج، كان معطفها مفتوحا من الأمام، لاحظت أنها لم تكن ترتدى آخر فستان شاهدتها به فى الحمّام، ترى كم مرة بدلت فساتينها قبل ذهابى، فستان آخر مغر وجميل وينعكس هذا على ملامح وجهها (أو كانت ملامح خوف أو ضيق أو أنه الليل، إنه وجه ليلى).

- لحسن الحظ أنك لم تذهب إلى سريرك بعد - قالت.

- لقد وصلت حالا. ماذا حدث؟

- بيل هناك فى الأسفل، لا يريد أن نذهب إلى الفندق، حسنا، وحتى لم يقل لى إنه ينزل فى فندق، المهم أنه لا يريد أن نذهب حيث يقيم، يريد أن يأتى إلى هنا، قلت له لدىّ صديق مقيم لبضعة أيام، فقال إنه لا يريد شهودا، حسنا، هذا طبيعى، أليس كذلك؟ ترى ماذا يمكننا أن نفعل؟

كانت قد استخدمت صيغة الجمع بلطف الآن، وإن كانت هذه الصيغة الجمعية لا تضمنى أنا بل تضم بيل، الذى ينتظر فى الأسفل، وربما تضم ثلاثتنا.

- نفعل ما كنا نفعله عندما كنا طلابا، مفترض - قلت أنا واقفا ومتذكرا صيغة جمع أخرى لنا وحدنا فقط، ما كان حادثا فى الماضى - سأذهب لأتنزه قليلا.

لم تشك فيه، بل كانت تنتظر ذلك، لم تحتج، كانت تطلب ذلك.

- سيكون وقتا قليلا - قالت - ساعة أو ساعة ونصف، لا أعرف، فى الطريق الرابع، إلى الأسفل قليلا، هناك مكان لتقديم الأطعمة السريعة يفتح طوال أربع وعشرين ساعة، ستراه، إنه كبير الحجم، حسنا، الوقت ليس متأخرا، وهناك الكثير من الأماكن لا تزال مفتوحة. هذا لن يضايقك أليس كذلك؟

- لا، بالطبع لا، خذى راحتك والوقت الذى تحتاجينه، من الأفضل ثلاث ساعات؟

- لا، ليس إلى هذا الحد، يمكننا أن نتفق على شىء، سأترك مصباح هذه الغرفة مضاء، ويمكن رؤيته من الشارع، عندما يذهب هو سأقوم بإطفائه، ومن تحت يمكنك رؤية أن البيت يغرق فى الظلام وحينئذ يمكنك الصعود، اتفقنا؟

- حسنا - قلت - وإن كانت لديه رغبة فى النوم هنا؟

- لا، هذا مؤكد أنه لن يفعل، خذ معك شيئا للقراءة - قالت هذا كأم.

ـ سأشترى صحيفة الغد، أين هو؟ ـ سألت ـ تذكرى أنه شاهدنى، وإن رآنى الآن أخرج وتعرّف علىّ، فلن يكون الأمر طيبا.

اقتربت برتا من النافذة واقتربت أنا من خلفها. نظرت إلى اليسار وإلى اليمين ولمحت بيل، إلى اليمين. "إنه هناك"، قالت مشيرة بإصبع السبابة، كان صدرى يلمس ظهرها، كان ظهرها يتنفس بعنف، ربما من السرعة أو الضيق، أو الخوف، أو لأن الوقت كان ليلا، كانت الليلة ضاربة إلى الاحمرار وملبدة بالغيوم، لكن لا يبدو أنها ستمطر على الإطلاق، شاهدت هيئة بيل، على الناصية وبعيدا إلى حد ما عن بوابة بيتنا، كان ينتظر، بعيدا عن قوس الضوء الوحيد الذى يدخل فى مجال رؤيتنا (تعيش برتا فى شارع من البيوت المنخفضة وفى الطابق الثالث، وليس فى شارع من ناطحات السحاب).

ـ لا تقلق ـ قالت ـ سأهبط أنا معك لأنبهه. هو أول المهتمين بألا يراه أحد، اذهب أنت إلى اليسار عند خروجك وكفى، فهو لن يستدير حتى أنبهه أنا. مؤكد أنك غير منزعج؟ ـ وداعبت برتا وجنتى، كانت رقيقة معى كما هى عادة النساء عندما ينشغلن بحلم ما، حتى لو كان لن يمتد إلا للحظات أو أنه انتهى بالفعل.

خرجت وتصعلكت لبعض الوقت. دخلت عدة حوانيت، لا تزال مفتوحة، كل شىء مفتوح فى تلك المدينة، كانت برتا قد فكرت فجأة كإسبانية، ربما لأنه كان ينتظرها أحدهم وتتحدث مع الآخر، فى سرعة اشتريت صحيفة "نيويورك تايمز" ليوم الأحد، الأكبر حجما خلال الأسبوع، واشتريت حليبا للبيت لأنه كان قد نفد، ودخلت إلى محل لبيع الأسطوانات واشتريت أسطوانة، كانت تحوى الموسيقى

التصويرية لفيلم قديم، لم تكن موجودة فى قرص مدمج، فقط فى أسطوانة سوداء قديمة بعض الشىء، كان اليوم السبت، والشوارع مليئة بالناس، وشاهدت المدمنين والمجرمين المستقبليين عن بعد، دخلت مكتبة ليلية واشتريت كتابا يابانيا يحمل عنوان "house of the Sleeping Beauties" وهذا عنوانه بالإنجليزية، لم يكن العنوان يعجبنى ومع ذلك اشتريته بسبب هذا العنوان، وبدأت أجمع بين يدى حزما صغيرة، وضعتها جميعا فى كيس بلاستيكى، كيس الأسطوانة، الأكبر بينها وألقيت بالباقى فى سلة مهملات، لأنها كانت من ورق وليس لها أيد يمكن الإمساك بها، وغير مريحة لأنها تملأ اليد وتشغلها بالكامل.

لقد كنا فى ليلة عرس بيل وبرتا، كانت هذه الليلة تُقام بينما كنت أنا أتصعلك لقضاء الوقت فى أنحاء المدينة، قتل الوقت كما يقولون، شاهدت محل الأطعمة السريعة الذى ذكرته برتا، الحقيقة أننى توجهت إليه دون تفكير، بسبب ذكره، لم أكن قد دخلت بعد، كان يجب الحجز قبل الدخول لأنه على عكس المحال الأخرى يفتح أبوابه أربعا وعشرين ساعة، كان يمكن أن أحتاجه، قرأت اللافتة، لم تعد السماء ظاهرة بين المبانى، الضوء قوى والزوايا حادة جدا، كنت أعرف أنها حمراء ولكنها لم تمطر بعد، ظللت أتمشى دون أن أبتعد كثيرا وأمضيت الوقت، الوقت يبدو حاضرا جدا عندما تقتله، كل ثانية تتخذ بعدا لا نهائيا، وكما لو كانت حصوات تتساقط من الأيدى إلى الأرض، ساعة رملية، ويبدو الزمن حجريا ومحطما، يبدو حاضرا وماضيا معا، ينظر إلى مرور ما مر بالفعل من الزمن، لن يكون على هذا النحو بالنسبة لبرتا وجييرمو، لأن كل شىء كان واضحا منذ الرسالة الأولى، وكل شىء متفق عليه، وآخر خطوة تم

الاتفاق عليها خلال العشاء، ترى إلى أين ذهبا، للتحدث قليلا دون اهتمام لنفاد الصبر، تصنع إبداء الاهتمام خلال الحديث، إنها مزحة، ملاحظة الفم، وتقديم النبيذ، الظهور بمظهر المتحضر، إشعال السجائر، الضحك، والضحكة تكون أحيانا مقدمة للقبلة، والتعبير عن الرغبة، تكون أداة توصيله، دون أن نعرف لماذا، وتختفى الضحكة فيما بعد خلال القبلة، لا تكاد توجد ضحكة أبدا خلال العناق مستيقظا على المخدة، وحينها لا يمكن ملاحظة الأفواه (الفم الملىء يحمل معنى الكرم) ويتحول إلى الجدية خلال البسمة، الانتظار، التأمل والتوقف، التنفس بارتياح، الضحكة قصيرة، وأحيانا تكون الأصوات كذلك، تصمت الأصوات الواضحة أو تتحدث بأفواه نشطة أو متقطعة، لا يوجد شىء يحتاج إلى الترجمة.

وأخيرا فى حوالى الثانية والنصف شعرت ببعض الجوع، كان عشائى قد مر عليه وقت طويل، عدت إلى المكان المفتوح طوال أربع وعشرين ساعة وطلبت ساندوتشا، وبيرة، وفتحت "نيويورك تايمز" الضخمة وقرأت الصفحات الدولية، والرياضة وبدأت أشعر بصعوبة تضييع وقت طويل، لم أكن أرغب فى العودة قبل مرور ثلاث ساعات التى عرضتها على برتا، وكما لو كنت أعرف أنه ربما كان بيل قد ذهب، وربما انتهت الجدية وأيضا الضحكات، لأنه عندما يكون هناك اتفاق على كل شىء فإن التنفيذ يكون أحيانا قصيرا ولا يتأخر كثيرا. فالرجال غير صبورين ويرغبون فى المغادرة. فالسرير سرعان ما يقلقهم ورؤية الشراشف والبقع وباقى الأشياء الأخرى والجسد غير المتناسق الذى يراه الآن ولا يرغبون فى التمعن فيه (كانوا يعانقونه من قبل، يصبح الآن مجهولا لهم) مشهد تكرر كثيرا

فى السينما والفن التشكيلى نرى أن المرأة تغادر السرير، ولم نشاهد الرجل مطلقا أو فقط فى حالة أن المرأة قد ماتت كما فى "Holofernes" المرأة الجثة، ربما تكون برتا الآن وحدها وتنتظر عودتى أو تشتاق لعودتى، تنتظر يدى الصديقة على كتفها، وألا تشعر أنها مجهولة ولا بقايا امرأة، دفعت الحساب وخرجت، وعدت ببطء نحو الشارع، باتجاه البيت.

كان هناك قليل من الناس، لا يسهرون هنا كثيرا مثل مدريد، فهنا ليلة الجمعة مجرد هذيان، وأيضا ليلة السبت، ولم يعد فى تلك المدينة غير سيارات التاكسى. كانت الساعة الثالثة وعشرين دقيقة عندما وصلت إلى النقطة التى كان يقف فيها بيل منتظرا أن أخرج تاركا الشقة، بعيدا عن البوابة الرئيسية كثيرا، وبعيدا جدا عن الضوء الوحيد الموجود، والآن من على الرصيف كنت أشاهد أضواء أخرى على مسافات معينة، فى تلك الشوارع التى بدأت البلدية فيها تضىء الطرق الواسعة. من هنا لم يكن رؤية ضوء الصالون ممكنا، تقدمت بضع خطوات، إنه فى الطابق الثالث، اقتربت لأكون فى المواجهة فشاهدت أن الضوء لا يزال مشتعلا، لم يذهب بيل بعد، لا يزال هناك، فلم يعد يرى فى برتا جسدا غريبا، وحينها لم أتحرك، وإنما قررت مواصلة الانتظار فى الشارع، وكان الوقت متأخرا للبحث عن فندق، كان يجب أن يخطر هذا على بالى من قبل، وشعرت بعدم الرغبة فى العودة إلى محل الأطعمة السريعة، فلم أعد أشعر بالجوع والعطش ولم تكن لدى رغبة فى التصعلك أكثر من ذلك.

تذكرت الممثل جاك ليمون فى ذلك الفيلم الذى يعود إلى سنوات الستينيات، لم يستطع الدخول إلى شقته على الإطلاق،

وقفت إلى جوار عمود الإنارة، ملتصقا به كسكير الحكايات الساخرة، وعلى الأرض كيسى البلاستيكى المزدحم بكرتون الحليب وفى يدى الصحيفة لأقرأها على ضوء الإنارة. لكنى لم أكن أقرأ، كنت أنتظر كما كانت تفعل مريم، فقط الفارق بيننا أننى لم أكن مهتما بمنظرى خلال فترة الانتظار وكنت أعرف الوضع بالضبط، أى، لماذا ولأى سبب كنت أنتظر، لم أكن غاضبا من أحد، كنت فى انتظار إشارة فقط، كنت أنظر بكثرة نحو النافذة، كما كان ينظر كوستاردوى الآن نحو غرفة نومى، كنت أحرس ليلة عرس بيل وبرتا المزيفة، مثل تلك الحماة الكوبية فى الأغنية والحكاية التى تقول إنها سهرت على ابنتها مع الغريب الذى تحول فى الصباح إلى ثعبان (أو كان ذلك خلال الليل، ليلة العرس، واستنجدت الابنة ولم يسمعها أحد، فقد خدعها زوج الابنة وأقنع الحماة بندائها "يا حماتى") وترك أثرا من الدم على الشراشف، أو ربما كان دم الفتاة العذراء، اللحم يتغير، أم أن الجلد ينفتح شيئا كجرح، وبرتا لن تترك دمها الليلة.

عرف رانز ثلاث ليال من الأعراس، ثلاثة أعراس حقيقية، يمكن معرفة أسرار بعضها، قديما، كان الضوء يظل مضاء ربما لزمن أطول. تبقت خمس عشرة دقيقة لتحين الساعة الرابعة، الحديث والتكرار والاستمرار ولم تعد هناك ضحكات، أو أن "بيل" قرر أن يبقى لقضاء الليلة هناك، لم يكن محتملا، فلم يعد يسمع ولا حتى هسيس المارة فى الشوارع.

وفجأةً أصابنى القلق على برتا، "ألا تشعرين بقليل من الخوف"، كنت قد قلت لها، "سوء الحظ قد يأتى أحيانا"، كانت قد

أجابت هى، الناس تموت، يبدو هذا مستحيلا لكن الناس تموت كما ماتت خالتى تريسا، والمرأة الأولى لأبى، أيا من تكون، فلم أعد أعرف أى شىء عنها، مؤكد أننى لم أكن أرغب فى ذلك، ولويسا نعم كانت تريد، كانت لويسا مهتمة، من يعرف إن كانت لويسا لم تكن بعيدة عن الخطر، أبعد من المحيط تماما كزوجة جييرمو المريضة التى يتجاهلها، وبينما كنت أخشى فجأة على برتا التى كانت قريبة منى، فقد كان صالونها هناك مضاء، علامة، فيما كان ضوء غرفة نومى كما تركته أنا، وضوء غرفتها لا يمكن معرفة حالته، لأن غرفة نومها غير مطلة على الشارع، وهناك حيث تكون مع "بيل" وصوته المنشارى، والصوت غير الواضح الآن.

ويما أننى كنت مع لويسا قبل دقائق قبل ذهابى إلى الثلاجة (الأصوات غير الواضحة) والنظر فيما بعد عبر نافذة غرفة مكتبى، إلى الخارج، نحو ناصية بيتى الجديد والتى يتوقف عندها الكثير من الناس، والأرغنيو وسيدة بضفيرة، وشخص يبيع وينادى على الزهور، وأيضا كوستاردوى بوجهه اللحوح المتجه نحو الأعلى، لم أهبط تلك الليلة لأقدم له ورقة نقدية حتى يترك المكان، فلم يكن يحدث ضوضاء، لم يكن ممكنا أن أتأكد منه، لم يكن يفعل أى شىء، فقط كان ينظر نحو الأعلى تحت هطول المطر، وحيث لم يكن ممكنا أن يعرف ما يجرى بداخلها بسبب الارتفاع، فقط يرى الضوء والذى لم يعد مشتعلا، فقد كانت لويسا قد أطفأته بينما كنت أكذب عليها وأتابع ما يجرى فى الخارج دون أن أنتبه للعالم، وعالم مشترك مع المخدة منذ أن تزوجت، وربما قبل ذلك. هل كان هناك شخص آخر فى هذا العالم أو المخدة خلال غيابى، شخص ما يعرف كيف يدفع إلى انتهاز الفرصة والهدف؟

أرعبتنى الفكرة ولم أود التفكير فيها، والسر الذى لا يُكشف عنه لا يؤذى أحدا، عندما يأتمنونك على سر أو يكون لديك سر لا تقوله لأحد، هذا ما قاله لى أبى بعد أن قال لى "والآن ماذا؟"، والآن ماذا، أسرارها ما كان يمكن أن تكون لو أننى لم أكن أعرفها، قلت لنفسى، لكننى لم ألاحظ على لويسا أى تغيير نحوى، وحتى لو كان هناك، ما يجب أن أخشى شيئا، لأننى لا أوجد فى البعيد عبر المحيط بل أنا هنا قريب منها، فى الغرفة المجاورة، ويمكننى أن أكون قريبا منها بسرعة، داعما لها، عندما يذهب كوستاردوى.

لم أحك للويسا أى شىء، لا شىء عن "بيل" ولا جييرمو، ولا شىء عن البرنس والمثلث المكشوف فى الصدر المشعر، لا شىء عن الفيديو ولا الصوت المنشارى، لا شىء عن الساق ولا ذلك الانتظار فى ليلة السبت تلك، كل هذا لم يكن سرا فى حد ذاته أو أمكن الا يكون، ولكن ربما كان سرا لأننى حافظت عليه سرا طوال أسبوع بعد عودتى، السر ليست له ملامح خاصة، تحدد ملامحه الإخفاء والصمت، أو الاحتراز، أو أيضا النسيان، لا تعليق ولا كلام لأن السماع هو الأكثر خطورة، ولا يمكن تجنبه، وحينها فقط تقع الأحداث، عندما لا تُروى، لأن روايتها يعنى إبعادها وإبعاد الوقائع.

والأزواج عادة ما يحكون كل شىء يقع لأى منهما، لكنهما لا يحكون ما هو خاص بهما ما لم يعتقدان أنه لا يخصهما، وحينها ينطلق اللسان. "I have done the deed"، وفى هذه الجملة العابرة يكمن القلق أو رفض هذا الحدث أو المغامرة. "أنا فعلت الفعل"، تجرأ ماكبث على قول ذلك، قاله فور قيامه بالفعل، من يجرؤ على أكثر من هذا، ليس فعله ولكن قول إنه فعل الفعل، الحياة أو الأيام المقبلة ليست متعلقة بما تفعله، بل بما يُعرف عنه،

ما يعرف عما فعلته، وعما ليس يعرف لأنه لم يكن هناك شهود فسكت عنه. ربما يجب قبول الخداع، لأنه جزء من الحقيقة كحقيقة الخداع نفسه، وتفكيرنا ضبابى ولا يسمح بعد بوجود ردود فعل، وبالنسبة له يجب أن تكون هناك دائما مناطق من الظلال ويفكر دائما بعقل مريض.

خشيت على برتا، لقد مرت أربع ساعات، وفجأة خشيت أن يكون قد قتلها، الناس تموت، الأناس الذين نعرفهم يموتون حتى لو بدا لنا ذلك مستحيلا، لا يعرف أحد أنه يجب إطفاء النور كإشارة متفق عليها، وليس مطلوبا من القاتل أن يفعل ذلك عندما يذهب، والضوء كان يجب أن يطفأ بالضبط بعد ذهابه، وحتى تنبهنى وتقول لى "اصعد"، وربما كان ضوء غرفتنا له معنىً عند كوستاردوى، أن يراه، ورسالتى كانت "اذهب"، أخذت كيسى من على الأرض، وبدأت فى عبور الشارع ببطء شديد، لكى أصعد دون انتظار أكثر من هذا، خطوت أربع خطوات ولم تمر من هناك أى سيارة منذ فترة طويلة، كانت قد بلغت الرابعة والعشرين دقيقة، إنها ساعات أكثر من اللازم لبقاء غريبين معا.

كنت فى منتصف الشارع، كنت أعبر عندما ظهرت سيارة تاكسى كانت قادمة ببطء، كما لو كان سائق التاكسى يبحث عن الرقم القريب منه، وصل السائق إلى محاذاتى، ونظر إلىّ بعدم ثقة (الصعاليك والمدمنون يحملون عادة أكياسا من البلاستيك، أما السكارى فهم يحملون أكياسا من الورق الخام بلا يد) عندما دقق فىّ بشكل أفضل وشاهد خطواتى الجادة أشار إلى بعلامة استفهامية برأسه وسألنى عن رقم بيت برتا، بالكاد فهمته، ربما كان إغريقيا أو لبنانيا أو روسيا كمعظم سائقى التاكسى فى هذه

المدينة، كل الناس تقود، "هذا هو"، قلت له، مشيرا نحو البوابة التى لا يظهر رقمها بالليل المضبب والذى لا توجد فيه سوى لمبة إضاءة واحدة ومنعزلة.

وسرعان ما ابتعدت، ابتعدت عن دائرة الضوء كما لو كانت قد انتابتنى حركة سريعة للاستمرار فى طريقى، لقد كان ذلك التاكسى الذى طلبه "بيل" تليفونيا ليعود إلى فندق بلاثا، ربما كان على وشك الذهاب وسينطفئ الضوء، لو كانت برتا لا تزال على قيد الحياة، جثة أم لا، لقد مرت ساعات طويلة أكثر مما كان منتظرا، بقيت على مسافة معينة، ولكن ليس بعيدا عن النقطة التى كان يقف فيها هذا الشخص الشهير قبل أن يصعد بلا شهود، سمعت صوت الكلاكس بصوت قصير وحاد، بما يعنى "اسمع"، أو "أنا هنا"، أو "اهبط"، على الفور انفتحت البوابة وشاهدت خروج بنطلون وطنى، وعليه معطف أزرق كالذى شاهدته بالأمس، كانت السماء لا تزال ضاربة إلى الاحمرار، وربما كانت تتجه إلى الحدة، سمعت باب التاكسى يغلق، وكان الموتور فى وضع السير، مر بجانبى بسرعة متزايدة، أنا كنت موليا ظهرى، عدت بعدها على إثر خطواتى إلى أن وصلت إلى عمود الإنارة، وكان ضوء الصالون الآن مطفأ، لقد تذكرتنى برتا، وكانت لا تزال على قيد الحياة، وغرفتنا أيضا كانت مطفأة، كنت قد أطفأت ضوء الغرفة التى أعمل فيها، وأطفأت لويسا ضوء غرفة النوم، قبلها بقليل، كانت قد مضت بضع ثوان.

كانت السماء لا تزال تمطر زئبقا أو فضة تحت الأضواء، كانت ليلتنا برتقالية. نظر كوستاردوى فيما بعد نحو الأعلى ببقعته البيضاء، "اذهب" قلت له أنا بعقلى المريض، حينها رفع يده إلى القبعة، وكان يمسك بالأخرى ياقة الجاكيت، وغادر الإفريز واستدار

على الناصية واختفى من دائرة بصرى، غارقا فى الماء كعاشق، أو مثل كلب.

من لم تنتبه شكوك؟ من لم يشك فى أفضل أصدقائه؟ من لم يجد نفسه مخدوعا وموشى به فى طفولته؟ فى المدرسة يجد الواحد منا ما لا يتوقعه بعد دخوله عالم صراع المصالح، عالم الاعتماد على الآخرين وعالم التخوين، عالم الصمت وعالم الشراك، والخداع، وأيضا ستجد أى رفيق يقول: "لقد كنت أنا من فعلها". إنها أول طريقة للاعتراف بالمسئولية، إنها المرة الأولى التى يجد الإنسان نفسه مجبرا على قول وسماع: "I have done the deed"، وبعدها، كلما استمر فى النمو ويصبح العالم أقل لأنه ليس بعيدا عن إمكانياتنا، يقول ويسمع هذه الجملة أقل كلما تقدم به العمر.

فلغة الطفولة سرعان ما تختفى، وتنسحب منها الجمل القصيرة والبسيطة، ولكن لا تفارقنا تماما تلك الجمل الخادعة والعبثية والتى نشعر بها كمحاولات قتل، ولكنها تظل حية فى النظرات، فى الحركات والإشارات، فى العلامات والأصوات (فى النطق والتعامل) والتى يمكن أيضا أن تكون ويجب أن تكون قابلة للترجمة لأنها كانت واضحة فى كثير من الأحيان، وهى التى فى الحقيقة تقول شيئا وتشير إلى حقيقة الوقائع (الكراهية الفجة والحب النقى)، دون معاناة كلمة ربما أو أحيانا، دون اللف والدوران الذى يلف الكلمات هروبا من المواجهة والتى تهدف إلى الاعتراف والحكى والاتصال إلى هدف خاطئ أو تخفى أو تتخلى عن المسئولية، ولكن الحقيقة فإن توازن الأشياء والتى تكون أفعالا لا تخطئ ولا يمكن خلطها بأشياء أخرى.

تقبيل أو قتل شخص ما ربما تكون أشياء متناقضة، ولكن الكلام عن القبلة والكلام عن الموت يتشابهان ويرتبطان معا على الفور، لأنهما يشكلان رمزا. فى حياة البالغين، التى تسيطر عليها الكلمات، لا يُسمع فيها لا نعم ولا لا، لا أحد يقول: "كنت أنا من فعلها" أو "لم أكن أنا من فعلها"، ولكن كل هذا سيظل واضحا، وبشكل دائم تقريبا، "لم أكن أنا من فعلها"، والبطولات تتحول إلى المزيد التى تضخم قائمة الأخطاء.

من الذى لم يخالجه الشك، ومن خلال الشك يمكن اتخاذ موقف من اثنين، وكلاهما عديم الفائدة: التساؤل أو الصمت، ولو تساءل وأُجبر على الإجابة ربما يسمع "لم أكن أنا"، ويجب التدقيق فى ما لا يقال، فى النبرة والنظرات المتهربة، وذبذبات الصوت، فى المفاجأة والغضب المصطنعين ربما. ولا يمكن نسيان طرح السؤال. لو صمتنا عنه، يظل هذا السؤال نقيا ومستعدا دائما، وإن كان الزمن أحيانا يجعله غير قائم وغير محبب، ويظل غير مقبول دائما، كما لو كان كل شىء منتهى الصلاحية ويدفع إلى الابتسامة عند الحديث عما وقع قبل زمن، ويصبح الزمن كله غير مشوق.

وإذا صمتنا يجب أن نعدل من طريقة طرح التساؤل والتخفيف من الشك، أو التخلى عن طرحه والتخفيف عن الجانب الثانى وهو ما يصبح مستحيلا معه التأكد من الشك. فلا أحد يعرف أى شىء عما لا يراه حاضرا أمامه، ولا حتى يمكنه تصديق ما يبدو مختلطا وغير واضح، وفى المدرسة يُقال "لقد كنت أنا"، عندما لم يكن هو، فالناس تكذب تماما كما تموت، يبدو هذا مدهشا ولكن لا شىء يمكن أن يُعرف أبدا، أو هذا ما أعتقده أنا.

ولهذا يبدو من الأفضل عدم معرفة أى شىء، ولا سماع الأصوات التى تحكى ونصبح أمامها غير قادرين على الفهم، تلك الأصوات الحكائية التى نملكها جميعا وتعود إلى الماضى البعيد أو القريب وتكشف عن أسرار لم تعد مهمة ومع ذلك تسير مع الحياة أو تأتى مع السنوات المقبلة، وفى معرفتنا بالعالم والأشخاص، لا يمكن الوثوق فى أحد بعد سماعه، كل شىء محتمل، وهو أكبر خطأ وأكبر دناءة فى الأشخاص الذين نتعرف عليهم، كما فينا نحن أنفسنا. وكل العالم ينزع إلى الحكى بلا توقف ويخفى بلا توقف خلال ممارسته للحكى، فقط لا يحكى ولا يخفى ما لا يُقال. لكن هذا، ما يتم السكوت عنه، ويتحول إلى سر، وأحيانا يأتى اليوم الذى يُحكى فيه كل شىء.

أنا لم أنطق بشىء، لم أتساءل وأطرح السؤال بعد، كلما مر الزمن يصبح طرحى للسؤال أصعب، يمكننى تمرير يوم كامل دون كلام، ويمر يومان، وأسبوع، وبعدها تتراكم الأشهر بلا توقف، ويتأخر التعبير عن الشك، هذا إن لم يزد الشك، وربما كان يُنتظر أن يتحول إلى ماض، إلى شىء بلا قيمة وربما يجعلنا نضحك.

ظللت لأيام طويلة أتطلع عبر النافذة قبل أن أدخل السرير، كنت ألقى نظرة من نافذة مكتبى، باتجاه الناصية، فى الأسفل، ولكن كوستاردوى لم يظهر هناك مرة أخرى فى الليالى التالية، والمرة التالية التى شاهدته فيها كان فى بيتى نفسه، فى الأعلى، للحظات. كان أبى قد جاء فى حوالى الثامنة والنصف ليتناول كأسا مع لويسا ومعى قبل ذهابه لست أدرى إلى أى حفل عشاء والذى كان كوستاردوى مدعوا إليه أيضا، ولهذا السبب جاء الفتى ليرافقه

فى حوالى العاشرة. جلس لبضع دقائق، تناول كوبا من البيرة ولم ألاحظ عليه أى شىء، كانت هناك علامات قليلة تدل على التعامل الحميم بينه وبين لويسا، ولكن من خلال والدى، كانا قد تعارفا أثناء غيابى، وكان معهما فى المرتين أو الثلاث، هذا هو كل شىء، أو هكذا بدا لى. وكانت هناك مشاعر حميمة أكثر وضوحا بين رانز ولويسا، هما نعم التقيا على انفراد وبشكل متكرر، كان أبى قد رافقها فى مشترياتها لبيتنا، ورافقها إلى العشاء أو الغداء، وقدم لها نصائح (إنه رجل ذواقة، وخبير فى الفن)، وكان واضحا أنهما يتبادلان الاحترام، ويستمتع كل منهما بحديث الآخر.

تحدث أبى عن كوبا خلال تلك الزيارات، ولكن لم يكن هناك أى شىء غير عادى فى هذا، وأكثر من هذا، إنه بلد كان يتحدث عنه كثيرا، ومعرفته به لم تكن قليلة، منذ زواجه من ابنتين لأم هافانية وحتى بعض عمليات التبادل التجارى التى كنت أنا على علم بها. كان قد ذهب إلى هناك فى العام ٥٨، قبل أسابيع من سقوط "باتيستا"(*)، وتنبأ بما كان سيحدث، وكان قد اشترى جواهر ثمينة بأسعار زهيدة ولوحات فنية ذات قيمة عالية لعائلات كانت تستعد للهرب. بعضها احتفظ به (قليل) وأخرى تم بيعها إلى بالتيمور وبوسطون وماليبو، أو باعها فى مزادات فى أوروبا (والجواهر ربما صهرها بعض الصاغة المدريديين، وبعضها ذهبت فى شكل هدايا).

كان هذا من الأشياء التى تفاخر بها، ويعلن ندمه على أنه لم ينتبه إلى نبوءاته بحدوث ثورات أخرى ولجوء أغنيائها، "الأغنياء،

(*) باتيستا (١٩٠١ ـ ١٩٥٩) الديكتاتور الذى كان يحكم كوبا وأنهت حكمه ثورة فيديل كاسترو عام ١٩٥٩.

عندما يهربون من أرض المعركة، لا يريدون ترك أى شىء لأعدائهم من خلفهم"، كان يقول بابتسامته الدائمة الساخرة على شفتيه الأنثويتين. "وقبل أن يتركوا شيئا بين أيديهم يقومون بحرقه، أو تدميره، ولكن الأثرياء يعرفون جيدا أن الأفضل بيعها". وحينها ذهب إلى كوبا بافتراض أنه كانت لديه علاقات هناك وربما صداقات، وأنه قد ذهب إليها من قبل، لكن فترات بقائه فى تلك القارة كانت تتداخل مع بعضها، والزيارات كانت تتداخل فى حكاياته (هو نفسه من كان يخلطها مع بعضها البعض)، كثيرا ما ذهب لتقديم الاستشارات للمتاحف الأمريكية، ومن رحلاته المحتملة إلى كوبا كان الواضح منها فقط ما تم قبل الثورة، (بالنسبة للأبناء، من ناحية أخرى، فقد كان يحكيها عشوائيا حسب تنامى أعمارهم وتنامى اهتماماتهم، كان يحكيها قليلا وبقفزات زمنية، وبالنسبة له فإن حياة الأبناء الماضية تبدو متداخلة فى أفضل الحالات).

أيا كان الأمر، فإن صداقاته فى الجزيرة كانت قد ضاعت بالتبؤ عام ٥٩، وهو العام الذى شهد انتهاء الامتيازات، ومن الغريب أننى لم أشاهده يتعامل أبدا مع اللاجئين الكوبيين فى إسبانيا، أو هم لا يأتون إلى البيت أو لم يقدمنى لهم. ومنذ ذلك الحين لم يعد إلى هناك، وهو ما جعل رانز، كلما تكلم عن كوبا الآن، فإنه يفعل ذلك بلا خبرة بالقضية.

لكن فى تلك المرة كانت طريقته فى الكلام رائعة ومختلفة، كما لو كان وجود لويسا جعل لحضورها ثقلا دفعه إلى تغيير لهجته وتلذذه المؤكد خلال الحديث معها على انفراد، وعن النبرة القديمة، والأكثر سخرية، والتى دائما ما استخدمها معى، سواء فى الطفولة أو بعد النضج، وعندما خرجت لويسا من الغرفة لبعض الوقت

لتتحدث فى التليفون، تغيرت طريقة أبى فى الحديث والتعليق، وربما انقطعت. كما لو كان قد انتبه إلى أننى كنت حاضرا هناك، وبدأ يطرح علىّ أسئلة بخصوص زيارتى إلى نيويورك وكان قد طرحها علىّ فور عودتى (بعد ثلاثة أيام كنا نتنزه معا فى الانتشا) والإجابة عليها كان يعرفها ولم تكن تهمه.

ورغم أننى كنت أمامه، فقد كان يتوجه بحديثه إلى لويسا، وما أن عادت حتى عاود تعليقاته بطريقة حيوية غريبة، رغم أن رانز كان حيويا طوال حياته كلها. ربما كانت ضحكات لويسا الأنسب له، ربما كانت تضحك فى اللحظة المناسبة (نعم هو ذا، فى اللحظات التى يحددها هو) وربما كانت تستمع إليه كما يرغب أو ربما كانت توجه إليه الأسئلة المناسبة، أو ببساطة كانت هى الشخص الذى يرغب فى التعرف عليه وأن يحكى لها كل شىء. شخص جديد يمكنه أن يحكى له حكايته دون قفزات وبانتظام، لأنها كانت تبدى اهتماما منذ البداية وليس هناك حاجة إلى انتظار نموها.

حكى لنا أبى عددا من المواقف الطريفة لم تكن معروفة لى. كحكاية المزيف الفينيسى الذى كان يزيف تماثيل العذراء الصغيرة التى تنتمى إلى العهد الرومانى بحفرها على العاج، وما أن ينتهى منها بصبر وحذق، كان يضعها فى حمالات صدر زوجته الكبير، ما بين فارق النهدين (كان نهداها كبيرين) ويدفعها إلى التنفس بعمق فتمنح تماثيله بريقا رائعا.

أو حكاية مدير أحد البنوك فى بوينوس أيريس، الذى كان عاشقا للفن، أصر على عدم تصديقه واشترى منه لوحة مزيفة لكوستاردوى الأب حملها رانز معه إلى هناك بطلب من إحدى

العائلات البخيلة التى كانت تريد فقط نسخة جيدة من أعمال "اجريس" التى كانت معجبة بها جدا. وقبل أن يسلمها لهم شاهدها المدير فى إطارها بغرفة رانز بفندق بلاثا، بوينوس ايريس، فوقع فى غرام اللوحة ولم يرغب فى سماع أنه معجب بلوحة مزيفة، وشرح له أبى مرة وألف مرة أصل اللوحة والهدف من تزييفها، وأن الأصل موجود فى متحف مونتاوبان، لكن مدير البنك أصر على أنه يريد أن يخدعه وأنه بذلك يرتكب فعلا غير أمين، وطلب شراء اللوحة وعلى رانز أن يحصل على أخرى لزبائنه، وأن هذه اللوحة هى الأصل أما الموجودة فى متحف مونتاوبان فهى المزيفة. "فى هذه الحالة" قال أبى إن هذا ما قاله له، وإنه لم يكن قادرا على إقناعه: "لو أن حضرتك اشتريت اللوحة على أنها الأصلية، عليك أن تدفع لى سعر اللوحة الأصلية"، هذه الجملة التحذيرية تحولت بالنسبة لمدير البنك إلى علامة على أن اللوحة أصلية، "لم يكسب كوستاردوى فى حياته كلها أموالا كما كسب فى هذه القطعة وحدها"، قال أبى، "وإنه من المؤسف أننا لا نجد دائما مصرفيين يثقون فى آرائهم بشكل أعمى، ودفعنى إلى استخدام هذه الطريقة فى الترويج للوحاتنا المزيفة.

وأضاف بدهشة ضاحكا فى الوقت الذى قالت فيه لويسا: "ولماذا لم تعد تعرف عنه بعد ذلك أى شىء، أعتقد أنه كان من الأفضل لك. وأرجو الا يتهم احد هذا المصرفى بأنه بدد أموال البنك"، كان أبى يتلذذ بالكلام مع لويسا وهى كانت تستمتع بحواره أيضا. ولكن متعته هو كانت أكبر، واعتقدت أنه يمكنها أن تحصل منه على المعلومات التى تريدها هى، وهذا لم يكن محض صدفة فى تفكيرى، ولكن بتفكيرى فى أنها كانت تريد أن تعرف منه ما لم

أكن أريد أن أعرفه عنه. فيما أعتقد، ورغم أننى لم أتوقف عن التفكير فيه، فلم أكن قد تخليت تماما عن معرفة حقائق حياته، وربما كنت أتخلى عن ذلك فى بعض الأحيان، وربما كنت أشك، ولا أريد أن أتعايش مع الشكوك المتعددة فى وقت واحد، خاصة تلك الشكوك التى لم تعد ماضيا بعد، تلك الشكوك التى نجد أنفسنا مجبرين على التحرك وتخيفنا وتهدد مستقبلا محددا، بل وتغذى شكوكا أخرى، والتى لا مناص عنها فى حالة مواجهة تلك الشكوك.

وأعتقد أننى تخليت عن أى شكوك حول لويسا، وفى الوقت نفسه تعززت لدىّ الكثير من الشكوك حول أبى، وربما كانت لويسا فى تلك الأمسية، قبل أن يضرب كوستاردوى جرس الباب بقليل. كانت قد أخذت على عاتقها أن تذكرنى بصوت مرتفع، لأنه خلال الضحكات والبسمات والطرائف الغريبة التى كانت بالنسبة لى شيئا جديدا، قالت لرانز بنبرة إعجاب، منادية إياه بلقب "حضرتك"، كما كان يحب أن ينادونه دائما.

- الحقيقة أنا لا أندهش أن تتزوج حضرتك ثلاث مرات، فحضرتك نبع لا ينضب من الحكايات المدهشة، وبالتالى لقضاء وقت ممتع معك- وأضافت على الفور، كما لو كانت تريد أن تمنحه الفرصة للإجابة على الجزء الثانى من السؤال، إن لم تكن لديه رغبة فى الإجابة على الشطر الأول منه (علامة على الاحترام) - هناك رجال كثيرون يعتقدون أن النساء فى حاجة إلى الشعور بأنهن محبوبات ومحط الاهتمام، وحتى مدللات، والأهم بالنسبة لنا نحن النساء هو احتواؤنا، أى، دفعنا إلى عدم التفكير كثيرا فى أنفسنا، وربما كان هذا أحد الأسباب التى تدفعنا إلى الرغبة فى إنجاب

الأبناء، وحضرتك مؤكد تعرف هذا جيدا، وإلا ما كان يمكن أن تحبنا كثيرا.

لم أعتبر نفسى معنيا بالموضوع، على العكس، رويت أنا للويسا حكايات كثيرة قليلة التصديق، وإن كنت قد لزمت الصمت حتى تلك اللحظة عن "بيل" وبرتا، وكان يمكن أن تمتعها كثيرا، ولكن هذه الحكاية أيضا كانت حكايتى وربما لهذا السبب قررت الصمت. وحكاية جييرمو ومريم لزمت الصمت عنها أيضا إلى أن أشارت إليها لويسا، وعرفت أنها خاصة بها هى أيضا. وفى اليوم الذى تعارفنا فيه لزمت الصمت أو بدلت معنى الحديث عند ترجمتى الكلام بشكل مختلف، وبعض تلك الأشياء التى قلتها (وبشكل خاص ما يخصنا نحن) وكنت قد اعتقدت أنها أفكار سيئة أو معتقدات غير شريفة، فى تلك المرة، مع ذلك، عملية الرقابة التى مارستها أنا لم تؤثر على لويسا التى تفهمتها كثيرا وربما كانت تعرف أكثر منى. كلتا اللغتين، وكانت هى "أحمر" الصمت والكلام بشكل تدخلى فى المستقبل.

اعتقدت أن تلك الفضيلة التى تصف بها لويسا أبى كانت تنطبق أيضا على كوستاردوى الفتى: كان يحكى، عندما يريد، وأنا شخصيا حكى لى أنه كان يسلى أبى، وحكى لى أنا أيضا حكايات كثيرة خلال الطفولة وفى سنوات المراهقة، وحكى لى مؤخرا حكاية عن رانز وخالتى تريسا وامرأة أخرى لا تربطنى بها علاقة قرابة، وبمعنى أصح عنى أنا شخصيا (وربما كانت تلك الحكاية حكايتى، وربما كانت تريد لويسا أن تسمعها، من كوستاردوى الفتى).

لم تتجمد ضحكة رانز، بل استطالت لأكثر من المطلوب، كما لو كان يريد كسب الوقت ويقرر أيًا من كلمات لويسا يجيب عليها وكيف (لم يجب على كل شيء أو لا شيء). ضحك عندما لم يكن هناك مجال لذلك، حتى إلى ما لا يقبل الترجمة، وأصبحت الاستطالة خارج السيطرة، وفيها يمكن أن يكون معناها.

- لم يفرمن بى إلى هذه الدرجة- قال أخيرا بنبرة مختلفة جدا عن نبرته المعتادة، كما لو كان لا يزال مترددا، لو كان يجيبنى أنا ما تردد ولا أطال ضحكته لثانية واحدة (كلتا العلامتين كانتا علامة على الاحترام، احترامه للويسا) - وعندما غرمن بى كنت أستحق ذلك - أضاف ودون أن تبدو جمله متسقة مع جمله المحببة، أنا كنت أعرف كلامه جيدا لأميز ما يجب أن تكون أى منها.

كانت لدى لويسا الشجاعة لتصر، متراجعة عن احترامها له بعض الشيء (وربما كانت طريقة لتحذيرى أن تحقيقها قد بدأ وإنه لا يمكن وقفه، مهما كان موقفى، وأن الحكاية يمكن أن تكون حكايتها ما لم أتحمل مسئوليتى، وبدأ رانز أن يكون كذلك، وربما كانت هذه علامة أخرى على الاحترام، احترامها لى، وهو انتظارها حتى أكون موجودا لتبدأ تحقيقها، كمن يفضل التنبيه: "منذ هذه اللحظة لن أعول عليك فى هذا".

- لكنى فهمت، بغض النظر عن كونك حماى، حضرتك كنت متزوجا من شقيقتها. لا يمكن أن يكون هذا سهلا، عندما تحبه الأختان، ومن يعرف من النساء الأخريات اللاتى عشقن حضرتك قبلهن.

كانت نبرة كلام لويسا ساخرة، خفيفة، والتى تستخدم عادة فى الحديث إلى كبار السن عندما تكون هناك رغبة للترويح عنهم ورفع معنوياتهم، نبرة لطيفة كان يستخدمها رانز نفسه، مع آخرين ومع نفسه، ربما لرفع معنوياته، ومع ذلك لم تكن إجابته على هذا النحو، نظر إلىّ بسرعة بنظرته الحارقة، كما لو أراد التأكد من أن المعلومات التى حصلت عليها لويسا حصلت عليها منى، وليست مختلفة عما لدى، وهذا ما كان يجب أن يكون، لم يكن غريبا، بالنسبة لما يتعلق بالآخرين فإن كل شىء يُحكى على المخدة، ولكنى لم أجب عليه بأى إشارة، قال بعدها:

- لا تصدقى، الشقيقات الصغيرات عادة ما يجذبهن ما يجذب الكبار، ولا أعتقد أن تكون هذه الحالة قد حدثت معى، ولكنها فى ذاتها ليست حكاية تستحق الاهتمام، بل على العكس.

- وقبل ذلك؟ - عادت تلح لويسا، وكان واضحا أنها لم تنتظر منه أن يحكى لها أى شىء، لا شىء مهم على الأقل، كان رانز على وشك الذهاب إلى دعوة على العشاء، كان كمن يمهد الطريق، وليعلن شيئا عن المستقبل القريب، أنا كنت مندهشا، سواء لإلحاحها أو لرد فعل أبى، تذكرت ذلك اليوم الذى كاد أن يطردنى فيه من المطعم عندما حاولت سؤاله عن الماضى، (أريد أن أتناول طعامى فى هدوء، وفى هذا اليوم، وليس فى يوم مر قبل أربعين عاما)، لقد كان ماضيا أقل قدما من الذى تتساءل عنه لويسا الآن. عاد رانز إلى النظر إلىّ، كما لو كان يشك فى أننى كنت مصدر هذه المعلومات، أو أننى لم أعرف فى الواقع ما حدث، أنا لم أشر إليه بأية علامة، استعاد نبرته المعتادة وأجاب بإشارة مبالغ فيها بيده التى تمسك بالسيجارة:

ـ من قبل؟ قبل ذلك قديم جدا إلى درجة أننى لم أعد أتذكره.

حينها رن الجرس، وبينما كانت لويسا تقف للذهاب لفتح الباب، وأثناء سيرها باتجاه الباب لتستقبل كوستاردوى الفتى (إنه كوستاردوى، أليس كذلك" قال أبى بينما كانت هى تبتعد فى الممر، فى زيارته لنا) وكان لديه الوقت بعد، ليقول: "مطلوب استرجاع الذاكرة، اطرح السؤال وستجيبنى فى يوم آخر، فى يوم نكون فيه وحدنا".

شرب كوستاردوى بيرته وكان قليل الكلام خلال اللحظات القليلة التى مكثها فى البيت، ربما مثلى، ربما كعاشق. وحذاؤه لم يحدث ضجة رغم نعله القريب من المعدن، كحذاء "بيل" تقريبا، والذى سمعت رنينه الأنثوى على رخام محطة البريد ولكن ليس على أسفلت شارع برتا، عند خروجه واستقلاله التاكسى، كما لو كان الحذاء أيضا يصر على الحفاظ على السر.

كم من الأشياء التى تمضى دون أن تُقال طوال الحياة أو التاريخ أو الرواية، أحيانا دون تعمد أو دون طرحها. أنا لزمت الصمت فقط بعد أن عددتها، ولكنها تسببت فى الإحساس بالقلق والتفكير الكارثى الذى يرافقنى منذ زواجى، منذ عام تقريبا. وبهتت الآن وربما تنتهى إلى الاختفاء، لفترة من الزمن، كانت لويسا قد أسكتتها، وأيضا أمام برتا وأمام أبى، وبالطبع فى العمل وأمام كوستاردوى أيضا. العشاق يصيبهم الصمت بشكل متكرر، حتى الطامعين فى الحب، يحافظ على صمته من لديه شىء ويمكنه أن يخسره، ليس من فقده أو على وشك أن يكسبه، تحدثت برتا عن "بيل" بلا توقف، على سبيل المثال، وعن جاك وعن نيك بينما هى لم

تكن قد حصلت على شكل محدد ولا رؤية الوجه ولم تكن قد كسبتهم بعد (يجرى الحديث عن الوعود، وليس عن الحاضر ونعم عن المستقبل، المحدد والمجازى وعن الفقدان أيضا، إذا كانت الوعود حديثة). لكنها سكتت فيما بعد، بعد ساعاتى الأربع الطويلة من التصعلك والمشتريات والتبرم والانتظار وعثرت عليها مستيقظة وليس فى غرفة نومها، كانت ترتدى معطفا منزليا. كانت وحيدة حينها، ولكنها كانت تواصل الحفاظ على عدم عرجها كما شاهدت بعد ذلك، نعم هذا، لم تعد إلى ما كانت عليه عندما كانت وحيدة، ولا حتى بالثقة التى كانت بيننا، ليس سهلا، وليس سريعا.

لم أشعل الضوء الذى أطفأته قبل قليل لتنبهنى وتقول لى "اصعد"، لأننى لم أكن أحتاج إليه، كانت ممددة على الأريكة، أمام التليفزيون الذى كان ضوؤه يكفى ليضىء لنا، ومع فيديو "بيل" القصير معروضا على الشاشة، مرة أخرى، والآن بعد أن أمكن استكمال الصورة بذاكرتها حديثة العهد، والآن وأخيرا تمكنت من معرفة مع من تتعامل بعد أن كان مجرد مثلث مشعر يبرز من البرنس الأزرق الباهت، من أعلى إلى أسفل. عندما دخلت ولم أشعل الضوء، كان صوت الواعظ أو صوت المطرب الضعيف، الصوت المنشارى يتكرر بالإنجليزية من الشاشة. "أنتن النساء يهمكن الوجه، العينان،" هكذا كان يقول، وبالنسبة للرجال الوجه والجسد. أو الجسد بوجه، هذا هو الحال"، أوقفت برتا الفيديو عندما شاهدتنى، وقفت وقبلتنى وقالت "آسفة، لقد جعلتك تنتظر كثيرا". "لا يهم" قلت أنا "لقد أحضرت الحليب، كان قد نفد، وسأذهب لأتركه فى الثلاجة حالا". ذهبت إلى الثلاجة وهناك لم أترك الحليب فقط، بل أخرجت من الكيس البلاستيكى كل الأشياء

الأخرى التى اشتريتها، الكتاب اليابانى والصحيفة وموسيقى "الحياة الخاصة لشرلوك هولمز". كنت عادة أفعل كل هذا، وأيضا عندما أعود من السفر فإن أول شىء أقوم به تفريغ الحقيبة فى الدولاب، للإسراع فى النسيان بأننى سافرت، نسيان الرحلة، وأن يبدو كل شىء ساكنا.

ألقيت بالكيس إلى سلة المهملات، حتى أسرع من نسيان المشتريات والنزهة، عدت إلى الصالون وفى يدى كنزى الصغير، لم تكن برتا هناك، وظل التليفزيون مشتعلا، عبارة عن برنامج بضحكات ميكانيكية والذى حل محل الفيديو. سمعتها فى غرفة نومها، كانت تقوم بتهويتها، وتعيد ترتيب السرير أو تغير الشراشف، وصولى لم يكن قد ترك لها الوقت الكافى لفعل ذلك، لكن هذا لم يكن السبب، أو على الأقل لم يكن الشىء الأخير، لأنها عندما خرجت لم تكن تحمل بين يديها كومة من الملابس، بل كانت يداها فى جيوب المعطف المنزلى، معطف حريرى بلون السلمون، وتحته فيما أعتقد لا شىء، ربما كانت تفضل النوم برائحة بيل فى الشراشف، عندما يريد الواحد منا الحفاظ على روائح بشكل دائم عادة ما تختفى بسرعة. لم تعد هى تفوح برائحة تروساردى، كانت تفوح برائحة جيرلاين عندما مرت إلى جوارى، شاهدت الزجاجة (كانت العلبة مفتوحة) على الطاولة التى اعتدنا ترك البريد عليها، والتى تركت عليها صحيفتى وكتابى والأسطوانة. الزجاجة التى عاصرت أنا شراءها. كانت الأثر المادى الوحيد الذى يدل على أن "بيل" كان فى الشقة."

كيف الحال؟" سألت، فلم يكن ممكنا عدم السؤال، كان كل شىء منظمًا تقريبا، وإن كان عادة ما تكون هناك أشياء لترتيبها

فى البيت، "حسن، وأنت؟، ماذا فعلت فى كل هذا الوقت؟ يجب أن تكون ميتا من النعاس، أيها المسكين". حكيت لها سريعا تصعلكاتى وليس تبرمى، وأريتها مشترياتى، ولم أحدثها عن انتظارى، لم أعرف عن أى شىء آخر أسألها، كان يبدو عليها تبرم الخجل الذى لم تشعر به طوال الأسابيع السابقة، (شاهدته فى المهملات عندما ألقيت بالكيس هناك، اثنان، تحت الكيس البلاستيكى ولن يظهرا فى الزيارة المقبلة فى سلة المهملات، إنه الإسراع فى النسيان، أحيانا لا يجب الإسراع فيه، هناك أشياء تخفى أشياء بالتراكم كما فى سلة المهملات، والدقائق التى تأتى لا تحل فقط محل ما سبقتها بل تنفيها).

يا له من وقت مضى منذ كنت أتناول العشاء مع أصدقائها وصديقاتها، مع خوليا، هى لم تعد تتذكر، لم تسألنى عنهم، وأنا لم أكن أميل إلى استعادتهم فى الحوار القصير الذى دار بيننا قبل الذهاب إلى السرير، مهما كان الوقت متأخرا. الوقت متأخر حتى لو كان يوم سبت، يجب أن ننام، والنسيان فى الأحلام، أو كما تفعل برتا الاحتفاظ بالذكرى. ولكن أنا كنت أريد أن أعرف على الأقل بعض ما حدث، لأن تلك الحكاية كانت أيضا حكايتى، وفى الوقت نفسه لم تكن (وبعدها أريد أن أعرف، وإن كنت بعيدا عن مخاطرها). لقد تصعلكت طوال أربع ساعات تحت السماء الخفية فى الشوارع الضاربة إلى الاحمرار، وانتظرت واقفا ثلاث مرات على الرخام فى كينمور ستيشن، وسرت على إثر خطواته المعدنية حتى فندق بلاثا، وتركته يرانى، وسجلت شريط فيديو، وربما أستحق أنا معرفة أى شىء دون انتظار مرور الزمن.

"حسنا، احكِ لى"، قلت، "لا، ليس هناك شىء يمكن حكيه"، قالت هى، كانت حافية ومع ذلك لم تكن تعرج، كانت نظرتها منومة قليلا، أم أنها فقط كانت منومة، كان يبدو عليها الهدوء، كمن يتأمل بهدوء ودون أن يثقل عليها التأمل. كانت تبدو عليها ابتسامة متقطعة، بلهاء، كمن يتذكر بضبابية وتلذذ. "لكنه كان إسبانيًا، أليس كذلك؟" قلت أنا، "نعم إنه إسبانى" أجابت، "كنا نعرف هذا". "هل كان اسمه "بيل" أم أنه يتسق مع هذا الاسم؟ ولم تقولى لى ماذا يعمل؟". "لم نتحدث عن هذا"، وأشارت إلى البرنامج المسجل عليه ضحكات ميكانيكية، الذى كانت تتابع سماعه بصوت خفيض. "لا أعرف حتى الآن" أجابت برتا، "هذا سيتوقف على ما يحدث من الآن فصاعدا"، "هل اتفقتما على اللقاء مجددا؟"، "نعم، المفترض أن هذا حدث. وتوجد صناديق البريد، وهو يمكنه أن يهاتفنى، لقد أعطيته رقم التليفون.

" كانت برتا تبدو متحفظة كعاشقة لا ترغب فى مشاركة أحد الحوار، تخفى وتحتفظ لنفسها، بما كان يمكنه أن يكون كذلك، كان الأمر غبيا، ربما كانت متلهفة وربما لم تكن تريد الكلام الآن، فى أعقاب ذهابه قبل قليل بعد أربع ساعات طوال من الرفقة، الحقيقة إنها كانت أربع ساعات وربع، فقد تواعدا فى الثامنة والنصف، من المحتمل أنها ترغب فى التفكير على انفراد، فيما حدث، وإثراء الذكرى التى تركها "بيل" بعد خروجه من الباب وأنها بدأت المسيرة البطيئة نحو النهاية، وربما لهذا السبب وضعت الفيديو الذى قطعت مشاهدته.

"ربما تتحدث غدا" فكرت أنا، ربما تكون غدا على استعداد أكثر للحديث وأن تحكى لى، هذا لا يعنى أنه يهمنى كثيرا، وأيضا

صحيح، إن مهمتى قد انتهت، ويجب أن أتعامل بجدية مع ما نتعامل معه هى بجدية، ومساعدتها فى الوصول إلى من تريد أن تصل إليه والاحتفاظ به لو أمكن. هذا هو كل شىء. وفترة بقائى هنا تكاد تكون قد انتهت، سوف أذهب خلال أسبوع واحد وربما لا أعود إلا بعد مرور عام، وحينها سيصبح عليها هى أن تحكى لى كل شىء كحدث يتعلق بالماضى، شىء لا قيمة له ولا يدل على عبقرية ويثير ضحكاتنا، ويجعلنا نشعر كما لو لم نشارك نحن فيه أو نفعل هذا، وهو كشىء ربما يمكن حكيه بالكامل، منذ بدايته حتى نهايته، وليس كما هو الآن، حيث لا يزال يحدث، ولا تُعرف نهايته.

لكنى كنت أعرف أنه لا يمكننى الذهاب إلى السرير دون أن تحكى لى شيئا أكثر من هذا وأن أسألها عن أشياء أخرى، على الأقل أسألها عن شيئين. "هل كان معه واق ذكرى؟ قلت لها، فى الظلام بدا لى أن برتا ابتسمت، كانت تنظر إلىّ بالخجل الذى بدا على وجهها عندما طلبته منى، وأيضا ـ أنا أعتقد، شاهدت فقط من خلال الكاميرا ـ عندما صورتها. قالت "لا أعرف؟" "لم أمنحه الوقت، قبل أن يتمكن من إخراجه كنت قد أخرجت ما معى، ما أعطيتنى إياه، أشكرك"، "والشكر" مؤكد أنه كان مفتعلا. "ومريم؟ هل تمكنت من سؤاله عن مريم؟، لم تعد برتا مهتمة بهذا الموضوع، ولذا فقد نسيته، أبدت إشارة كما لو كانت تريد القول "هذا حدث منذ سنوات بعيدة"، وربما اسم مريم ضاع منذ بداية السهرة ولم يعد يمثل أى جديد، "نعم" أجابت، "لقد ذكرت هذا الاسم كما لو كان اسم صديقة من إسبانيا. ولكن لم يبد عليه أنه يعنى أى شىء بالنسبة له، ولم ألح، فقد قلت لى أنت ألا ألح"، والآن لم تسألنى ما

هذا ولا أنها تشك أو تعرف لم تقل لى "اشرح لى" أو "احك لى"، لقد مرت ساعات كثيرة محت الذاكرة أو الفكرة.

عادت إلى الاسترخاء على الأريكة، محتمل أنها كانت متعبة من الليلة الطويلة من التعارف والحفاظ على عدم العرج بالسير حافية، شاهدت قدميها مرفوعتين على الأريكة، أصابعها طويلة، أقدام جميلة، نظيفة بالنسبة لـ"بيل" ـ لم تسر على الإسفلت ـ تدفع إلى الرغبة فى لمسها، كنت قد لمستها قبل زمن طويل مضى، (بتذكرى ذلك كان يجب أن أقوم بالإشارة نفسها: "لقد مر على هذا زمن طويل)، لا تزال الأقدام نفسها، حتى بعد الحادثة، ترى كم خطوة سارت، وكم مرة جرى لمسها خلال خمس عشرة سنة، ربما لمسها "بيل" قليلا من قبل، وربما بلا انتباه بعد طردى إلى الشارع.

عن أى شىء تحدثت مع هذا الشهير، ربما تحدثا عنى، وربما حكت له برتا كل تاريخى لمجرد الحديث عن أى شىء، على المخدة يجرى خيانة ونكران الآخرين، ويجرى الكشف عن أكبر الأسرار وتُقال فقط الآراء التى تجذب من يستمع إليها، ويجرى التخلى عن الأشياء الأخرى لعدم أهميتها، كل ما هو لا علاقة له بهذه المساحة يتحول إلى شىء لا قيمة له، فى هذه المنطقة يتم التخلى عن الصداقات وقصص الحب السابقة وأيضا القصص الحاضرة.

فكرت كيف يمكن أن تكون قد أنكرتنى لويسا لو كانت قد تقاسمت مع كوستاردوى المخدة، لقد كنت بعيدا، فى بلد يقع خلف المحيط، تكون ذكراى ممحاة ورأسى غائبًا، دون أن أترك أثرا طوال ثمانية أسابيع، كانت فيها هى قد اعتادت النوم بشكل مختلف، متعارضة على السرير، لم يكن هناك أى شخص منذ زمن، ومن لم

يوجد يصبح من السهل نزع الأهمية عنه، على الأقل كلاما، من خلال التعليق، بنفس الطريقة بالنسبة لجييرمو لم يكن صعبا أن يتحدث كثيرا عن زوجته المريضة التى توجد فى قارة أخرى، عندما يعتقد أنه لا أحد يسمع، من الغرفة المجاورة بالفندق فى هافانا، تحت القمر المضىء والشرفة المواربة، الحديث عن قتلها أو تركها تموت على الأقل. "إننى أدعها تموت"، كان قد قال. "لا أفعل أى شىء لمساعدتها، إننى أدفعها إلى الموت"، وفيما بعد، آخذ منها القليل مما تبقى لها من رغبة فى الحياة، ألا ترين أن هذا يكفى؟، ولكن مريم لا يبدو لها أن هذا يكفى، مر عليها زمن طويل من الانتظار، والانتظار أكثر شىء يصيب بالإحباط ويجعل الإنسان يتبدل ويتخذ مواقف معادية أى "ستكون أنت ضحيتى" أو "أنت لى"، أو "معى إلى الجحيم"، أو "سأقتلك بنفسى".

يبدو الأمر كنسيج ضخم دون تفصيلة واحدة ولا تزيين وبلا امتداد، كسماء خفية، أو ضاربة إلى الاحمرار بلا زوايا تحدها، كشىء متكامل لا حدود له وثابت لا يمكن التفريق فيه بين الخطوط، وليس هناك سوى تكرار، ولكنه ليس تكرارا ينتهى مع الزمن، وليس مسموحا به فقط بل يستمتع به، وليس مسموحا به فقط بل ضرورى، (الواحد منا لا يمكنه أن يقبل أشياء معينة لا تقبل التكرار) بل إن التكرار يستمر وبلا توقف، صفير لا ينتهى أو بتوازن مستمر يصدر عنه، لا شىء يكفى حين نكون فى انتظار حدوثه، وهناك شىء يجب تخفيفه من خلال الحد المرهف أو شىء يجب أن يحترق بالجمر أو الشعلة، لا شىء كاف بعد الإبعاد والإهمال، وبعدها فقط يمكن قبول الخطوة التالية المبنية عليه، التسامى والإهمال، موت من جرى إبعاده عن حدود المخدة.

إنه القمر المضىء، والشرفة المواربة، وحمالات الصدر الرفيعة، والمنشفة المبللة، والبكاء فى الخفاء فى الحمّام، والخصلات أو التجاعيد على الجبهة، والمرأة النائمة والمرأة التى على وشك النوم، "عليك أن تقتلها"، هذا ما كانت قد قالته مريم، وكان جيرمو قد أجابها، متأففا من زوجته المريضة والموجودة عبر المحيط وكان متقززا كأم تجيب بأى شىء، دون تفكير فى الإجابة، من السهل الحكم بالموت شفاهة، لن يحدث أى شىء، فالجميع يعلم أنه غير مسئول عما يقول وإن كان القانون أحيانا يعاقب عليه، اللسان فى الأذن، واللسان لا يقتل، ولا يقوم بالفعل، لا يمكنه: "حسنا، حسنا، سأفعل ذلك، والآن واصلى دغدغتى"، وكانت هى قد ألحت فيما بعد بنبرة محايدة إن لم تكن متخاذلة: "إن لم تقتلها سأقتلك أنت. ستكون لديك ميتة، هى أو أنا".

"أرجو ألا تكونى قد قلت له إننى تابعته، حقيقة؟"، سألت برتا. "لا، هذا لا، ربما أذكر له ذلك فيما بعد إن لم تهتم بالأمر، لكنى حدثته عنك، وعن استنتاجاتنا وافتراضاتنا"، "وماذا قال هو؟"، "لا شىء، كان يضحك"، "لقد تحدثتما عنى، إذن"، "حسنا، حكيت له القليل، نحن فى النهاية طردناك إلى الشارع حتى يصعد هو، كان من الطبيعى أن يكون لديه فضول لمعرفة شىء عن الشخص الذى سبب له بعض المتاعب"، كانت إجابة برتا تبدو اعتذارا لم يكن مطلوبا فى ذلك الوقت. إن لم يكن سؤالى قد تسبب فى شعورها بالذنب عن ذلك "حينئذ" لإنهاء الحديث، مؤكدة ما حدث، لم تكن برتا ترغب فى الحديث، واصلت الإجابة بلا رغبة حتى لا تبدو غير مهذبة، أو لتعوضنى قليلا عن صعلكتى الليلية.

انفتح المعطف قليلا، شاهدت نهديها جزئيا من خلال الفتحة وشاهدتهما كاملين من خلال القماش الحريرى، النهدان نفسهما اللذان لم أرغب فى النظر إليهما خلال التصوير، وكانت لدى رغبة لمشاهدتهما الآن، رغبة فى غير زمنها. كانت ترتدى ملابس مثيرة. كانت مجرد صديقة، لم ألح.

ـ حسنا، سأذهب لأنام، الوقت متأخر جدا. قلت.

ـ نعم، أنا أيضا سأذهب حالا ـ أجابت هى ـ ما زال علىّ أن أرتب بعض الأشياء.

لقد كذبت كما سأكذب فيما بعد على لويسا فى الجانب الآخر من المحيط، عندما لم تكن لدى رغبة للنوم لأراقب كوستاردوى من النافذة، لم يكن هناك أى شىء لأفعله، سوى أن آخذ زجاجة الكولونيا من على الطاولة، كانت العلبة مفتوحة، أخذت كتابى، وأسطوانتى، والصحيفة، لأذهب بهم إلى غرفة نومى. وكنت لا أزال أرتدى المعطف.

ـ ليلة طيبة ـ قلت لها ـ تصبحين على خير.

ـ تصبح على خير ـ أجابت برتا.

ظلت فى مكانها، مستلقية فى الأريكة أمام الضحكات الميكانيكية، متعبة، بقدميها المرفوعتين ومعطفها شبه المفتوح، وربما بتفكيرها فى المستقبل الجديد والذى لم يخدعها حتى هذه الليلة، أو ربما لم تكن تفكر. فكرت أنا للحظة فى الحمّام، بينما كنت أغسل أسنانى وكان ماء الصنبور يخفف من حدة الأصوات، بدا لى أنها كانت تترنم بأغنية بشكل غير واع، بتقطعات من يترنم دون أن ينتبه لما يفعل. بينما تدغدغ من بجوارها، رغم أن برتا لم تكن

تنظف نفسها (ربما كانت تريد الاحتفاظ بالرائحة) ولم يكن بجوارها أحد، وما كانت تترنم به كان باللغة الإنجليزية، كان هكذا: "In dreams I walk with you. In dreams I Wolf to you" كانت بداية أغنية معروفة وقديمة(*)، ربما من خمس عشرة سنة.

لم أمر بالصالون مرة أخرى فى تلك الليلة، نزعت ملابسى، ودخلت السرير دون رائحة تذكر، كنت أعرف أننى لن أتمكن من استجلاب النوم حتى يمر وقت أطول من المعتاد، أعددت نفسى للأرق، كنت قد تركت الباب مواريا كما هى العادة، حتى يدخل الهواء (والنافذة مغلقة إجباريا فى شوارع نيويورك، فى الطوابق المنخفضة) وكنت حينها أكثر يقظة من أى وقت آخر طوال الليلة بكاملها ولم يكن هناك أى صوت، عدت لسماع الصوت الذى يدندن بانخفاض شديد، من خلال الحائط، إنه صوت "بيل"، أو صوت جييرمو، إنه صوت يتذبذب كمرور جندول، صوت منشار يكرر جمله المتقطعة بالإنجليزية من خلال الشاشة. التأثير كان كئيبا. "نعم هو ذا، إن لم أشاهد نهديكِ وفرجك وسيقانك بما يقنعنى أن الأمر يستحق المغامرة. لو إننى مازلت أهمك، ربما لا ترغبين فى الاستمرار فى هذا، ستفكرين أننى وقح، وقاس، وعنيف، فأنا لست قاسيا. لا أستطيع أن أضيع الكثير من الوقت. لا أستطيع أن أضيع الكثير من الوقت.

(*) مقطع من اغنية "In dreams" لروى اوربيسون Roy Orbison

ثمانية أسابيع ليست بالوقت الكثير، لكنها أكثر مما تبدو لو أضفنا إليها ثمانية أخرى والتى بدورها تنفصل عنها بأحد عشر أسبوعا، أو اثنا عشر، رحلتى التالية ذات الأحد عشر أسبوعا كانت إلى جنيف فى شهر فبراير، وكانت الأخيرة، لم تكن كذلك لفترة طويلة، فلا معنى أن نتزوج أنا ولويسا لنعيش منفصلين إلى هذا الحد، ولا أستطع أن أتابع تغيراتها الأمومية أو أعتادها. وأن تكون لدى شكوك أتخلى عنها فيما بعد، وأتساءل إن كنت أنا قد تغيرت أيضا، أنا لا أشعر بهذا، من المؤكد أنه حدث لأن متابعة تغييرات لويسا الظاهرية (وضع الكتافيات والتسريحة والقفازات ولون الروج)، ولأن تغيير بيتها وافتتاحه الفنى مر عليه زمن، وتغيير العمل، عملى أنا ازدادت وتيرته، وعملها هى انخفضت وتيرته أو انتهى تقريبا (إنها تبحث عن عمل فى مدريد، بشكل دائم).

ومنذ أن ذهبت أنا إلى نيويورك إلى أن عدت من جنيف، نعم إنه هذا، ما بين منتصف سبتمبر وحتى نهاية مارس تقريبا، انتقلت هى للعمل فترة واحدة فقط، ولم يمتد عملها لأسابيع بل لأيام فقط، وكان انتقالها إلى لندن بديلا عن المترجم الرسمى لصاحبنا

المعروف الذى يحتل منصبا مرموقا، (لقد أصبح هذا المنصب له مترجم رسمى مخصص لخدمته فقط، واحتل المنصب شخص ذو اسم غير ثابت ـ رغم أنه مترجم كفء ـ ومنذ أن احتل المنصب أصبح يسمى بلقبه فقط (دى لا كويستا أو دى لا كاسا)، كان يقوم برحلة خاطفة (صاحب المقام الرفيع وليس المترجم) ليواسى رفيقته التى تم عزلها من منصبها حديثا وفى طريقه يتحدث مع من خلفوها الذين يقول عنهم ممثلنا إنهم يتحدثون دائما مع البريطانيين عن جبل طارق والأيرا[1] وإيتا[2].

ولويسا لا تحكى حكايات قليلة التصديق ـ ولكن أنا لا أحتاج هذا منها ـ وحكت القليل عن اللقاء، أريد أن أقول إنها حكت لى، لأنه من المفترض أن المترجمين الفوريين والمحلفين أو من يقومون بعمل الترجمة التتبعية، يصمتون فى الخارج عن كل ما جرى فى داخل غرفة مغلقة ويعتبرون ممن يحافظون على الأسرار. ولكن لى أنا نعم يمكنها أن تحكى لى: "لقد كان شيئا مثيرا"، قالت لى، مشيرة إلى الحوار، الذى جرى فى المقر الرسمى الذى كانت تستعد المسئولة البريطانية لمغادرته خلال أيام قليلة: كانت هناك صناديق محزمة بأربطة، "كما لو كانت تريده أن يراها خارج السلطة وكصديقة قديمة دون تحمّل أية مسئولية أو سلطات، كمن تريد أن تقدم له مثالا عما هو قادم"، لم تكن هناك سوى لحظة عابرة لحوار شخصى حول ما جرى بينهما فى اليوم الذى تعرّفت أنا فيه على لويسا، وأن المسئولة الإنجليزية عادت إلى ذكر كلام شكسبير،

(١) منظمة المقاومة المعادية للوجود البريطانى فى أيرلندا

(٢) منظمة إيتا الانفصالية التى تطالب بانفصال إقليم الباسك عن إسبانيا.

وكانت إشارتها إلى "ماكبث" من جديد، والتى يبدو أنها قرأتها وشاهدتها على المسرح بشكل متكرر:

"هل تذكر حضرتك؟" كانت قد قالت له "ما يقوله ماكبث ما أن سمع باغتيال دونكان؟. إن مقولته شهيرة "أعتقد أننى لا أتذكر ذلك الآن، ولكن لو ذكرتنى..." كان قد اعتذر مسئولنا "يعتقد ماكبث أنه سمع صوتا يصرخ: "Macbeth does morder SleepK the innocent Sleep" لقد كان هذا، وأضافت السيدة، "ما شعرته أنا بإقالتى غير المنتظرة، شعرت أننى مغتالة أثناء نومى، فأنا البريئة فى نومى على ثقة عمياء بأننى محاطة بأصدقاء، وأن الناس تحرسنى، وكان هؤلاء الأصدقاء أنفسهم، مثل ماكبث وجلاميس وكاودور(*)، الذين طعنونى أثناء نومى. إن أسوأ الأعداء هم الأصدقاء، يا صديقى"، لقد حذرته دون أن تكون هناك حاجة إلى ذلك، وأنه يترك طريقا مزروعا بأصدقاء لا وجود لهم، "لا تثق حضرتك أبدا فى أن من تجده الأقرب إليك، وهؤلاء الذين يبدون لا حاجة لك لإجبارهم على ما نريده. أنا لن أنام، فسنوات الأمان تدفعنى إلى هذا، لقد اعتدنا الشعور بأننا غير معرضين للخطر، لقد تناومت وأنا متأكدة أنه لن يحدث معى ولو لحظة واحدة، والآن ترى ما حدث لى"، وأشارت المسئولة السابقة إشارة ذات معنى إلى الصناديق المغطاة المحيطة بها، كما لو كانت تعبيرا خاصا بها، ونقاط الدماء المنثورة من حولها. بعدها بقليل غادرها زميلها الإسبانى ليلتقى بمن احتل مكانها، أو هو الأمر نفسه، مع "ماكبث" و"جلاميس" و"كاودور".

(*) شخصيات فى مسرحية "ماكبث" الشهيرة للمسرحى البريطانى الأشهر شكسبير.

كان هذا العمل الوحيد الذى قامت به لويسا بعد فترة طويلة من البطالة، ولكن لا شك أنها لم تبين أنها غير نشطة، فالبيت أصبح يتحول يوميا إلى أكثر من بيت، وتحولت مع مرور الوقت إلى أكثر من زوجة ابن، وإن كنت أنا فى غير حاجة إلى ذلك منها.

ليس لى فى جنيف أى صديق أو صديقة يعيش هناك فى شقة بشكل معتاد، ولذلك فإن عملى هناك خلال أسابيع الترجمة فى لجنة حقوق الإنسان، أقضيه فى شقة مفروشة صغيرة مستأجرة، ولا يوجد فيها أى تسلية تزيد عن التنزه فى المدينة الخالية مساء، والذهاب إلى السينما لمشاهدة الأفلام المترجمة إلى ثلاث لغات، أو لتناول طعام العشاء مع الزملاء أو مع أصدقاء قدامى لأبى، (ربما كان يتعرف على أناس فى كل رحلاته) أو مشاهدة التليفزيون. مشاهدة التليفزيون إجبارية دائما فى كل الأماكن، وهو الشىء الوحيد المتوفر دائما.

إذا كانت الأسابيع الثمانية فى نيويورك كانت محتملة بل تبدو لطيفة ومركزة بسبب القرب من برتا وحكاياتها (والتى كما قلت إننى أتشوق إليها وأحتفظ لها بذكريات دائمة) فإن أسابيعى فى جنيف تبدو أكثر قسوة. وهذا ليس لأن العمل لم يكن يهمنى، ولكن لأن الأكثر تعذيبا من العمل ليس العمل فى حد ذاته، ولكن ما نعرف أنه ينتظرنا بعد خروجنا من العمل، حتى لو اختزل فى البحث فى صندوق بريد، هناك لا ينتظرنى أى شىء ولا أى شخص. مكالمة هاتفية قصيرة مع لويسا، والتى لا تفيدنى جملها القصيرة والمشبوبة إلا فى احتمال القلق لساعات عدة، ربما ساعتين، وبعدها عشاء سريع فى أكثر الأحيان فى شقتى، والتى تنتهى إلى أن تظل

محتفظة برائحة الطعام الذى أكلته، لا شىء معقد، ولا شىء لذيذ، ولكنه مع ذلك يظل يفوح، لأن المطبخ فى المساحة نفسها التى يوجد فيها السرير، خلال العشرين أو الثلاثين أو حتى الخمسة والثلاثين يوما التى جاءت بعدها لويسا لتزورنى فى إحدى نهايات الأسبوع الطويلة (كل مرة أربع ليالٍ).

فى الحقيقة لا معنى لانتظار أن يحدث هذا أو أن تبقى هذا الوقت القليل، لأنها لم تكن مرتبطة بأى عمل لا يقبل التأخير، ولا بساعات محددة، ولكن كما لو كان هناك إحساس بأننى أنا أيضا سأترك هذا العمل الوقتى الذى يجعلنا نسافر ونقضى خارج بلادنا وقتا طويلا. وما يجعله أكثر أهمية - الأكثر أهمية من الحكم علينا بالرحيل الدائم، وهو ما لا معنى له - الاستعداد الدائم للبقاء، والذى يدفعنا فى النهاية إلى التفكير فى البقاء الدائم. ويبدو كما لو أنها اتخذت الخطوة النهائية لوضعها الحالى وتظل فى حالة تغيير لحياتها المرتبطة بحياتى فى العزوبية كما لو كانت هى من تزوجت وأنا لم أتزوج بعد، وكما لو كان عملها فقط انتظار عودة الزوج المرتحل وفيما أنتظر أنا تاريخ زواجى، حسمت لويسا أمرها وبدلت حياتها، أما حياتى - عندما أكون فى الخارج - فلا تزال على حالها وتجرى كما كانت فى السنوات الماضية.

فى إحدى زياراتها خرجنا للعشاء مع صديق لأبى، أكثر شبابا منه ولكنه أكبر سنا منى أنا (يكبرنى بخمس عشرة سنة) كان يقضى فى جنيف ليلة عابرة فى طريقه إلى لوزان أو لوسيرن أو لوجانو، ومن المفترض أن لديه أعمالا غامضة أو قذرة فى المدن الأربع . رجل ذو نفوذ، رجل فى الظل كما كان أبى عندما كان يمارس عمله فى متحف البرادو، وذلك لأن البروفسور فيلالوبوس

(هذا اسمه) معروف بشكل أفضل (لجمهور مثقف جدا) بسبب دراساته عن الفن التشكيلى والمعمار الإسبانيين فى القرن الثامن عشر. هذا رغم طفوليته، ومعروف بالنسبة لدائرة أصغر أقل ثقافة، فهو أحد افضل الأكاديميين والسياسيين فى مدن مثل برشلونة ومدريد وميلان وأشبيلية وروما وأستراسبورج، ورغم هذا ليس له نفوذ فى جنيف ولا فى ألمانيا أو إنجلترا، كما هو مطلوب لشخص مثقف ونشط جدا، ومع مرور السنوات دخل حقولا دراسية بعيدة عن مجالاته، وكان رانز يحترمه جدا، وكما يقول إن ذلك بسبب دراسته الرائعة عن بيت ولى العهد فى الأسكوريال، هو ما لم أقرأه ولن أقرأه أبدا.

يعيش هذا البروفسور فى كتالونيا وهو سبب كاف حتى يزور أبى كلما مر بمدريد لمتابعة أشغاله فى العاصمة الملكية. ولكنهما يتبادلان عادة الرسائل بشكل متواصل، ورسائل البروفسور فيلالوبوس كما هى رسائل رانز مكتوبة بطريقة أدبية رائعة ومعبرة، إنه رجل على سبيل المثال لا يقول إطلاقا "نحن مستعدون"، فى مواجهة حالة تعثر أو العكس. ولكنه يقول "على استعداد أن نكون" ولم أشاهده فى حياتى، ولكن هذا المساء من يوم الاثنين اتصل بى بطلب من أبى حتى لا يشعر بالوحدة فى غرفته بالفندق، ورغم أن هذا لا يسرنى حتى لا أضيع ليلة من ليالى لويسا، وربما لهذا السبب لم تكن لدينا ارتباطات.

لم يرغب فيلالوبوس فى دعوتى فقط، بل فى إبهارى، ربما أراد أن يبهر لويسا أكثر منى، كان طوال الوقت يحاول لفت النظر، كما يبدو أنها عادته، منتقدا المهنة التى اخترتها أنا أو التى انزلقت

نحوها. "إلى أى مستقبل أنت ذاهب فى هذا المجال؟، قال لى بطريقة متعالية (كانت شفتاه مرطبتين بشكل طبيعى، لكنه كان قد شرب الكثير من النبيذ) وكما لو كان الأب، (أصدقاء أبى يعتقدون أنهم ورثوا تعامله معى كابن) بالنسبة للويسا على العكس تماما، لم ينتقدها لسيرها فى طريق خاطئ، ربما لأنها لم تعد تمارس الترجمة الفورية، أو ربما لأنها فى أعماقها لم تكن تؤمن بالسير فى أى مهنة، كان لطيفا، وخبيرا بشكل متكلف، جذابا، واثقا من نفسه وأمينا، لا يحب أن يفاجئه أى شىء، ولديه أسرار لا تنتهى، وأنه على علم بكل ما يحدث فى العالم، سواء بالأمس أو منذ أربعة قرون.

فجأة، وفى أثناء تناول الحلوى، سقط فى حالة من الصمت، كما لو كان قد حل عليه التعب أو غرق فى تفكير عميق، ربما كان تعسا، وتذكر شيئا بشكل مفاجئ. على أية حال فإن ذلك الرجل كان يجب أن يكون موهوبا لينتقل من تفكير إلى آخر بسرعة خارقة دون أن يبدو عليه أنه يتصنع، "ما أهمية كل هذا؟" تحول الحوار إلى حوار بيزنطى (وكان هو متحملا الجانب الأكبر، بسبب إمساكه بزمام المبادرة) بينما كانت تغيب نظرته، وممسكا بملعقة الحلوى بيده ويرفعها إلى أعلى.

- هل حدث شىء؟ - سألته لويسا ووضعت أصابعها على ذراعه.

خفض البروفيسور فيلالوبوس من وضع الملعقة وقطع بها جزءا من الحلوى قبل أن يجيب، كما لو كان فى حاجة إلى هذه الحركة ليخرج من داخله المدهش.

ـ لا، لا شيء، ماذا يمكن أن يحدث لى؟ قولى لى، يا عزيزتى، ـ وحاول أن يبدى أن صمته كان مصطنعا. بعدها استعاد نفسه وقال بشكل وعظى ـ إن من هو حماك الآن هذا لم يبالغ عندما حدثنى عنك. اطلبى منى ما تشائين وأنا أنفذ لك طلباتك.

كان قد شرب كثيرا. ضحكت لويسا بقهقهة واحدة ميكانيكية وقالت له:

ـ منذ متى أنت تعرفه؟

ـ رانز؟ قبل أن يعرفه ابنه نفسه، زوجك الجالس معنا هنا ـ لم أكن أعرف هذا بالضبط، فالواحد منا عادة ما لا يلتفت إلى ما حدث قبل ميلاده، كيف تكون علاقات صداقة والديه. البروفسور، عند ذكر أى خبر أو تعليق يعلن أنه على علم به قبل أى شخص آخر. أضاف متوجها إلىّ أنه حتى عرف أمى وخالتى تريسا قبل أن يتعرف عليهن أبى ـ كنت أعرفهم جميعا بعض الشىء، بالنسبة لأبيك كنت أعرفه فقط عن بعد، أنت لا تعرف كيف مات جدك؟

ـ على إثر أزمة قلبية، فيما أعتقد.

أشرت. الحقيقة إننى لا أعرف بالضبط، لقد مات قبل مولدى بقليل، وهذا من الأمور القليلة التى لا يهتم الإنسان بها عادة.

ـ ليس صحيحا يا فتى ـ قال البروفسور ـ كل شىء مهم، قد تخسر كثيرا من جراء هذه اللامبالاة، من الناحية الطبية لقد مات نتيجة أزمة قلبية، نعم، لكن فنيا كيف يموت الإنسان وهذا هو الأهم، لقد مات مهموما، تحت ضغط الخوف، والذنب يتحمله أبوك، كل الميتات سببها شىء وليس المرض فى حد ذاته.

إضافة إلى هذه الأسرار التى لا تنتهى فإن البروفسور فيلالوبوس كان يحب توجيه الضربات الصغيرة التى تترك أثرا، سواء كانت سرا أم لا.

ـ الذنب يتحمله أبى؟ لماذا أبى تحديدا؟

ـ كان مرعوبا منه منذ موت خالتك تريسا بعد زواجه منها بقليل. كان ينظر إليه على أنه شيطان، هل تعرف ما حدث؟ لا؟

لم يكن البروفسور متكلفا كما فعل كوستاردوى. كان مباشرا فى كلامه، بالنسبة له لم يكن لديه شك فى أن كل شىء يستحق الاهتمام، أو أن المعرفة لا يمكن أن تكون مؤذية، ولو نتج عنها أذى يجب تحمله. فكرت حينها ـ كانت خاطرة سريعة ـ أنه سيأتى اليوم الذى أعرف فيه، كما لو كانت الحكايات النائمة طوال زمن سيأتى وقتها الذى تستيقظ فيه، ولا يمكن مواجهة وصولها بأى حال من الأحوال، ربما يمكن تأخيرها لبعض الوقت، قليلا فقط، ولكن بلا نتيجة. "أنا لا أعتقد فى أن أى شىء يمكن أن ينتهى فى زمن محدد"، كانت لويسا قد قالت لى ذلك فى السرير تماما قبل أن يحتك ذراعى بنهدها، "كل شىء موجود هناك، فى انتظار أن يتركوه ليعود"، لقد عبّرت عنه بشكل جيد، فيما أعتقد. ربما تأتى لحظة تتطلب أن تحكى الأشياء، أو الأشياء تحكى نفسها، ربما لتحصل على راحتها، أو لتأخذ طريقها إلى أن تكون خيالية.

ـ نعم، أعرفه، لقد انتحرت خالتى بطلقة واحدة، ـ واعترفت أننى أعرف شيئا بالفعل لم تكن لدى أدنى فكرة مؤكدة، فقط كانت هناك همسات متصاعدة، مررها كوستاردوى إلىّ، ومنى انتقلت إلى لويسا.

ظل البروفسور فيلالوبوس يشرب النبيذ وكان يأكل الآن بسرعة كبيرة، كان يمسك بالسكين كما لو كانت مشرطا طبيا من مشارط أبيه الطبيب، وبعد كل قضمة أو رشفة كان يجفف شفتيه المبتلتين بمنديل، ومع ذلك يظل الفم مبتلا بعد تجفيفه، وأيضا بالنسبة لهذا الحال أو فى الأخبار كانت معلوماته أكثر منى.

ـ كان أبواى هناك عندما حدث هذا، هذا ربما لم تكن تعرفه، كانا مدعوين لتناول طعام الغداء- كان قد قال "هذا ما لا تعرفانه"، كان قد استخدم صيغة الجمع كما يجرى فى أحوال المتزوجين ـ لقد عادا إلى برشلونة مرعوبين وسمعتهما يقولان، إن خالتك نهضت عن المائدة، وأخذت مسدس جدك وحشته بالرصاص وذهبت إلى الحمّام، وهناك أطلقت الرصاص على صدرها، لقد شاهدها أبواى ميتة، وكل عائلتها عدا جدك، الذى كان يقضى بضعة أيام خارج مدريد. فى بيت شقيقة له كانت تعيش فى سيجوبيا، أو فى الأسكوريال.

ـ كانت محظوظة، أو ربما تنبهت خالتك إلى هذا، ليس مؤكدا، جدتك، على العكس، لم تنس رؤية ابنتها المضرجة بدمائها على أرض الحمّام، وصدرها ممزق. لقد كانت طبيعية إلى حد ما خلال الغداء، حسنا، التزمت الصمت ولم تكد تأكل تقريبا أو تحكى أى شىء. كما لو كانت تعسة على غير انتظار، كانت قد عادت من رحلة شهر العسل قبلها بأسابيع قليلة أو شىء من هذا القبيل، ولكن أبواى استعادا هذا فيما بعد، وبينما كانوا يأكلون لم يشك أحد أن يقع ما حدث فيما بعد ـ وواصل بعدها فيلالوبوس حكاية ما لم أكن أريد أن أعرف، واصل حكيه طوال بضع دقائق، حكى بالتفصيل،

حكى، وحكى، ما كان لى أن أسمعه لو أننى ذهبت قبلها. لأنى وجدت نفسى مرغما على ذلك للمرة الثانية- وبعدها مرت فترة صمت، وأنهى التورتة، التى أوقف هضمها لبعض الوقت (الملعقة كانت السبب مجددا) بينما كان يروى التفاصيل طلب تورتة أخرى، كانت مجمدة فتهرأت، ولكن لا لويسا ولا أنا قلنا أى شىء، وبالتالى فقد وضع الملعقة فى الطبق، وعاد إلى البداية، كبروفسور- هل تتخيل أن رانز تزوج من أمك بعدها بقليل، وظل جدك يعيش فى حالة رعب حقيقى. يبدو أنه كان يضع يديه على جبهته كلما جاء ذكر أبيك. ولكن جدك كان صبورا، إضافة إلى أنه لم يشاهد ابنته خلال موتها، شاهدها فقط مدفونة. وعاش جدك من حينها كمن حكموا عليه بالإعدام دون أن يعرف موعد التنفيذ، وكان يستيقظ كل يوم متوقعا أن يكون تاريخ التنفيذ فى ذلك اليوم. المقارنة ليست جيدة لأى من الجميع، كان يخشى على موت ابنته، وهى كل ما تبقى له فى الحياة. لم يكن ينام، كان يقفز مرتعبا كلما رن جرس التليفون أو جرس الباب أو تصل رسالة أو تلغراف، رغم أن أبويك لم يسافرا فى رحلة شهر عسل. لأن الواقع لم يكن يحتمل مثل هذا. ولم يغيبا عن مدريد بينما كان هو على قيد الحياة. كما كان يقول أبى، لم يشاهد فى حياته أبدا حالة نادرة مثل حالة جدك الذى مات مهموما. والأزمة القلبية كانت فقط التعبير، الأداة، التى كان يمكن أن تكون شيئا آخر، كان يقول، وبعد مرور الوقت تحولت العلاقة بين العائلتين إلى الفتور، أنا استرجعتها مع رانز عبر قنوات أخرى، بعدها بسنوات. ما رأيك؟

تضمنت الجملة الأخيرة نبرة عدم الارتياح، كل الناس تحب أن تجرى تجارب وتأتى بأخبار، نادى البروفسور على الجرسون،

والغريب أنه بعد أن أكل التورتة، طلب طبقا من الجبن ومزيدا من النبيذ لمرافقته ـ أنا جائع، لم أتناول طعام الغداء اليوم ـ قال معتذرا.

لويسا وأنا شربنا فنجانى قهوة، كان هناك سؤالان لا بد من طرحهما، سؤالان رئيسيان من الصعب عدم طرحهما، إذا كنا نحن اثنين فمن يجب عليه طرح السؤالين؟ فى الواقع فإن السؤالين كانا لأبى، لكنه هو كان بعيدا جدا، ومعه لا يمكن الحديث عن الماضى البعيد، وربما يمكن الآن، وخطر على بالى أن رانز أرسل مع كوستاردوى ثم مع البروفسور فيلالوبوس ليخطرانى، وأن أستعد للحكاية التى يريد أن يقدم لى تفاصيلها، الآن، ربما لأننى كنت قد تزوجت للمرة الأولى، لقد فعلها هو ثلاث مرات وفى اثنتين منها كانت النتائج سيئة، كما قال لى الكل يومها والبروفسور كررها الآن، إنه كان سيئ الحظ جدا. ولكنه هو أيضا من أرسلنى إلى المسئول الإسبانى الكبير المتزوج من المرأة الطائشة، وهذا لم يحك لى أى شىء. تحدثنا لويسا وأنا فى وقت واحد تقريبا:

ـ ولكن لم انتحرت؟ قالت هى متخذة المبادأة نصف ثانية قبلى.

ـ من كانت المرأة الأولى؟ ـ قلت أنا بعدها بقليل.

قضم البروفسور فيلالوبوس قطعة جبن من النوع الكريمى. مسح قليلاً من بقايا الجبن على قطعة خبز محمص ورفعها إلى فمه ومزقها إربا. وظل جزء منها كبيرا وعصيا على المضغ بمضغة واحدة، سقطت حبات منها على ياقته وعلى مفرش الطاولة.

ـ لمَ انتحرت، لا أحد يعرف ـ أجاب بفمه الممتلئ، ولكن فى انتظام عادى، كما لو كان أمام تجمع طلابى فى الفصل الدراسى.

شرب الكثير من النبيذ ليساعد نفسه على الهضم ـ ولا حتى أبيك كان يعرف، كما قال، كانت المفاجأة كبيرة عندما وصل إلى بيت حماه كما كانت بالنسبة إلى كل الحاضرين أو لمن وصلوا بعدها، فكان ألمه أكبر من ذلك، قال إن كل شىء كان على أحسن حال، ولم يحدث أى شىء بينهما، وأنهما كانا سعيدين فى كل شىء، ولم يفهم أو تمكن من تفسير أى شىء. كانا قد افترقا فى الصباح دون أن يلاحظ هو أى شىء غريب، كان قد ودع كل منهما الآخر بجمل عاطفية تقريبا كما يفعل كل المحبين، مثل أى يوم آخر. كان اليوم عاديا، كما يمكنكما أن تقولاه ليلا أو صباحا. هذا لو كان حقيقة، ربما كانت قد انزعجت بعض الشىء طوال تلك السنوات، وربما لعبت أمك دورا مهما فى تغلبه على هذه الحالة. ربما تمكن رانز من البحث إن كانت خالتك تريسا كانت تعيش حياة مزدوجة ونصفها الانتحارى لم يكن يعرفه، هذه الأشياء تحدث كثيرا. ولو أنه توصل إلى شىء من المفترض أنه صمت ولم يكشف عنه. لا أعرف– جفف البروفسور فمه، والآن دون سبب، ربما تنظيف الفتافيت الجافة والرقيقة من بقايا الجبن.

ـ الياقة ـ أشارت عليه لويسا.

نظر البروفسور بفتور ودهشة. كانت ياقة من ماركة "جيجلى"، وغالية الثمن، نظفها بشكل ردىء، بتخبط، بللت لويسا حافة منشفتها بالماء وساعدته، بللت حافة المنشفة كما بللت أنا المنشفة فى غرفة فندق هافانا لأنعش وجهها هى، والعنق والصدر (كان قد التصق شعرها الطويل المهوش، وبعض الشعيرات المتطايرة كانت تتعامد على وجهها كما لو كانت تجاعيد رفيعة قادمة من المستقبل فظللتها لبضع لحظات).

ـ هل تعتقد أن هذا لن يترك أثرا؟ ـ سألت البروفسور. كان رجلا متصنعا، وأيضا مميزا رغم وجهه العريض.

ـ لا أعرف.

ـ لنختبره على هذا النحو ـ قال البروفسور، وإصبع السبابة ممتد فى إشارة عن عدم الارتياح إزاء الياقة الثمينة الصافية من ماركة "روميو جيجلى". مسح قطعة خبز بمزيد من الزبد والمربى المتعددة المذاق، شرب مزيدا من النبيذ واستمر، دون أن يقطع خيط الحديث ـ بالنسبة للمرأة الأولى، أنا لا أعرف الكثير عنها عدا أنها كانت كوبية، مثل جدتك. عاش رانز فى هافانا لفترة، كما تعرفون، سنة أو سنتين، فى سنوات الخمسينيات، أليس كذلك؟ فى منصب رسمى صغير بالسفارة، أليس كذلك؟ ملحق ثقافى، أنت، آه، معرفتك به جيدة دائما لأنك فكرت على هذا النحو كمستشار فنى لباتستا(*)، ألم يحك لك شيئا عن هذا؟

انتظر منى البروفسور شيئا بالتحديد، لكنى لم أكن أعرف أن أبى عاش فى كوبا. سنة أو سنتين.

ـ منْ يكون باتستا هذا؟ ـ سألت لويسا. إنها شابة ولا تهتم بالشأن العام وليست لديها ذاكرة جيدة، عدا بالنسبة للترجمة.

ـ لا أعرف ـ قلت أنا مجيبا على فيلالوبوس، وليمس عليها هى ـ أجهل أنه قد عاش فى كوبا.

(*) كان باتستا الدكتاتور الذى يحكم جزيرة كوبا إلى أن قامت الثورة التى قادها فيدل كاسترو عام ١٩٥٩.

ـ آه، ولا حتى هذا أثار اهتمامك ـ قال البروفسور بشكل غير لائق ـ حسن، إليك التالى، تزوج هناك بتلك المرأة، وأعتقد أنه تعرّف هناك على أمك، وعلى خالتك، اللتين كانتا تقضيان حينها بعض الأشهر فى كوبا برفقة جدك فى رحلة له لها علاقة بالميراث أو ربما لم يكن يرغب فى أن يصل إلى شيخوخته دون العودة لمشاهدة ملاعب طفولته، لا أعرف ما الذى كان بالضبط، عليكما الأخذ فى الاعتبار، إن كل هذا عبارة من مقاطع مجتزأة من أحاديث سمعتها عن أبوى منذ زمن بعيد، ولم تكن لها علاقة بى ـ اعتذر البروفسور فيلالوبوس، فهو لم يكن يتوقع كل هذا الاهتمام وكان يقلقه عدم التردد فى معلوماته، وكان يكره عدم الاكتمال أو الدقة، ما كان له أن يكتب أبدا أى شىء آخر سوى دراسات عن الأعمال والمراجع، والمراجع عادة لا تنتهى.

وضع قطعة شيكولا فى فمه، كانوا قد أحضروها لنا مع القهوة، لكن الحركة كانت مزعجة جدا (التقطها كما لو كانت حبة دواء) لم يكن قد أنهى الجبن بعد، وأعتقد أننى وجدت أنه خلط لا يجوز بين المذاقات، على أى حال، نقص الطبق بعض الشيكولا ـ أيا كان الأمر، أخذ جدك معه الطفلتين فى تلك الحقبة، لترافقاه ثلاثة أشهر أو هكذا. تعرف عليه أبوك بشكل سطحى، وخطوبته لخالتك بدأت بعد ذلك بوقت طويل، بالطبع بعد أن ترّمل وعاد إلى مدريد. فيما يبدو أنه كان فى وضع جيد، وكان هذا يبدو عليه، أرمل حزين، وفى الوقت نفسه ساخر، وهذا لا يمكن رفضه، كان حينها يطلق شاربا صغيرا، يبدو أنه قد حلقه بمناسبة زواجه الثالث ولم يعد كيف يتركه بعد الزواج الثالث. ربما كان وعدا، لكننى لا أعرف الكثير عن المرأة الأولى، ـ كان يبدو أن البروفسور كان متضايقا لأنه

لم يستعد لهذا الحوار، ولم يستعلم قبلها بشكل أفضل. ربما لم يكن يملك الاستعلام بشكل أفضل- وأنتما تعرفان ما حدث، عن الميتات التى تحل محل بعضها عند من يتحدثون قليلا، أو لا شىء على الإطلاق عمن حل محلها، أمام الأسرة أو أمام أشخاص معروفين فإن الأمر لا يتطلب تعديد الأحداث، ولكن نعم يمكن النظر إليه باعتباره من الأمور غير الطبيعية والغريبة، كانت أمك قد حلت محل خالتك تريسا، إنها أشياء تحدث، أليس كذلك؟ ويمكن النظر إلى الأمام وليس إلى الخلف، وتتغير الأمور كثيرا طبقا لما تختاره. حسنا، وما أردت قوله، من المفترض أنهم جميعا يعرفون الكثير عنها، ولكن لا أحد اهتم بتذكرها، هناك أناس من الأفضل ألا يكونوا قد جاءوا إلى هذه الحياة، ولكن لم يكن هناك من مفر لتذكرها عندما انتحرت خالتك، لقد تذكروها بشكل عابر وبالقدر الذى لا يمكن تجنبه، بسبب الترمل الثانى. فهى لم تلق المصير نفسه بحلولها محل أمك، إن الأخت الشقيقة لا تنسى أبدا مهما كان عدم الملاءمة للمكان الذى احتلته، بالنسبة لأى مجهولة أجنبية عن الأسرة يمكنها أن تنسى، لقد كانت أياما غير تلك التى نحياها ـ وهكذا أنهى البروفسور بما يشبه التخلص من عبء.

ـ دائما ما كان هناك صورة لخالتى فى بيت أبوى ـ أشرت أنا، ربما لإقناع فيلالوبوس، إن لم تكن لديه كل المعلومات، وربما يسعده أن يكون على حق فى كل حكاياته.

ـ هذا طبيعى ـ قال كما لو لم يكن لذلك أى أهمية، (ولكنه سعد أنه توصل إلى الحقيقة). أبعد طبق الجبن بمقدمة كوعه، ربما كانت هذه عادته. لكن لا، انهمك أكثر فى الشيكولا وطلب قهوة له،

بإبعاده الطبق لطخ كمه بشكل طفيف على الحافة القذرة. والآن ذراعاه متقاطعتان على الطاولة، ورغم هذا كان يبدو أنيقا.

ـ وبأى شىء ماتت؟ ـ سألت لويسا.

ـ من؟ ـ أجاب البروفسور.

ـ المرأة الأولى ـ قلت أنا، وأعتقد أنه بمجرد أن قلت ذلك انتبهت لويسا إلى أننى كنت أنا أيضا أقول شيئا آخر، شيئا مثل "يكفى هذا" أو "إلى الأمام" أو "أنتِ تكسبين" أو "نعم الآن". لكن هذا، نعم قلته لها، ولم أتوجه به إلى فيلالوبوس.

ـ يا أولاد، اسمحا لى، أنا لا أعرف هذا الموضوع جيدا ـ كان البروفسور غاضبا وشرب نبيذا، وعرف أنه على وشك تغيير الموضوع، لم يكن معتادا تكرار "لا أعرف" مرات عديدة. عاد إلى الاعتذار من جديد ـ علاقتى بأبيك يمكن أن نقول شخصية جدا، وإن كان بيننا احترام متبادل، فإن كل هذه الأشياء عرفتها عن طريق أبى، الذى مات قبل سنوات، لكننى لم أتحدث عنها مع رانز على الإطلاق.

ـ نعم، ألم تهتم بها ـ قلت أنا، لم أستطع تجنب أن أرد له إشارته المحرجة، كانت غير عادلة، ولكنه وضعنى فى هذا الحرج ثلاث مرات على الأقل.

نظر إلىّ البروفسور بسخط من خلال عويناته، لكنه سخط أبوى كمثل الأشياء الأخرى التى قالها لى. حسنا، كانت نظرته احترافية.

ـ أكثر منك يا فتفوتة. أكثر منك ـ شتيمته كانت قديمة وتعليمية وأثارت ضحكى تقريبا، ورأيت أن لويسا كان لديها رد الفعل نفسه ـ لكنى أعرف أين الحدود فى أى علاقة. أنا أتحدث

مع أبيك عن فيلانويبا[1] وعن فيلاباندا[2] ـ قال فيلالوبوس ـ وهو ما يجب أن تعرفه ولا تريد أنت أن تعرفه.

ـ أنا لا أعرف من هؤلاء؟ ـ قالت لويسا.

ـ ستعرفينهم فيما بعد ـ قال البروفسور كما لو كانت تلميذة غير صبورة يتركها لما بعد المحاضرة ـ ما أريد أن أقوله: تلك المرأة الأولى لا أعرف جيدا كيف ماتت. ولا ما اسمها، هناك فى كوبا، نعم أعرف. وبعد ذلك لا تهتما بما أقوله، لأننى غير متأكد من هذا ولا سمعته، ولكن لدى فكرة عن أن موتها كان فى حريق. بالطبع فكرة غير محددة ربما واتتنى من خلال فيلم شاهدته حينها، عندما كنت صبيا وأيضا سمعت أباك يتحدث عن ترمله الثنائى، بالنسبة لكما، أنتما الأكثر شبابا، لم يحدث لكما بعد، ولكن تأتى لحظة يمكن أن تختلط فيها الأشياء التى نشاهدها مختلطة بالتى نسمعها. وما حضرناه مع ما نعرفه، وما يجرى مع ما نقرؤه، فى الواقع إنه أمر إعجازى إن ما نعتبره عاديا هو ما نميزه، ونميزه بشكل جيد فى النهاية، وهو شىء غريب، كل الحكايات التى نسمعها طوال حياتنا ونراها، وكذلك السينما، والتليفزيون والمسرح والصحف والروايات تتراكم على بعضها وتصبح مختلطة. إنه مدهش أن معظم الناس يمكنهم أن يعرفوا ما جرى لهم فى الواقع. وما يبدو مستحيلا هو تمييز ما حدث للآخرين فى الماضى وهم يحكون لنا ما شاهدوه على أنه محض خيال، أو واقع لكنه سحيق،

---

(١) فنان أشبيلى كان متخصصا فى رسم اللوحات الدينية فى القرن السادس عشر.

(٢) عالم فى الحساب ومعمارى وخبير فى أمور الدين عاش فى إسبانيا فى القرن السابع عشر.

خيال يتعلق بأشخاص لا نعرفهم أو أشخاص من الماضى. نقول إنه بالتخلى عن هذا التطرف فإن الذاكرة الخاصة تظل بعيدة عن كل هذا الخلط. فالواحد منا يتذكر ما شاهده وسمعه شخصيا بشكل مختلف عما يتذكره عن الكتب والأفلام، لكن هذا الشىء لا يختلف كثيرا عندما يتعلق بشىء رأيته أو سمعته أو حضرته وعرفته، وبعده ما حكوه لنا. وهناك ما يخترعه الإنسان نفسه.

لم يعد البروفسور فيلالوبوس يعتذر عن أى شىء، بل يمتدحه. كان يبدل الموضوع، فقد سئم الموضوع السابق. حرك القهوة الجديدة بالملعقة، كان قد وضع فيها سكارين بعد ما أكل كثيرا. لم يكن سمينا، ولا نحيلا. وطلب من أحد الجرسونات المارين أن يأتى له بسيجار. "سيجار" قال له، وإن كان قد قالها له بالفرنسية وأنا ترجمتها.

ـ أنا أخلط بين الخطابات التى أترجمها فى حياتى. لا أتذكر أى شىء ـ قلت لأثنى عليه وأرد له شيئا من وقاحته غير المبررة.

ـ أى نوع من الحريق؟ ـ لم تدعه لويسا يغير الموضوع بعد.

ـ لا أعرف ـ قال البروفسور ـ ولا حتى أعرف إن كان هناك هذا الحريق المزعوم. حينها، عندما ماتت خالتك وتحدثوا عن هذا كثيرا، أصابنى الخوف من أن يحترق البيت ليلا فكنت أنام قلقا، إنه خوف طبيعى فى الطفولة أو كان كذلك فى زمنى، لكنى كنت أربط بينه وبين ما سمعته عن شخص ما احترق فى السرير بينما كان ينام. تلك الصورة المتخيلة مازلت أربط بينها وبين موت تلك المرأة الأولى لأبيك، لكنى فى الحقيقة لا أعرف لماذا، فأنا لا أتذكر أن أحدا قال شيئا عن هذا، لا شىء محدد عن تلك الميتة، لأنها على عكس انتحار خالتك كانت بعيدة عنا فى الزمن. ربما شاهدت هذه

الصورة فى فيلم كانت أحداثه تدور فى مكان استوائى، لقد أثر فىّ كثيرا وربطت بين الفكرتين، كوبا والنار، النار والمرأة الكوبية، خلال مراهقتى كانت هناك أفلام كثيرة تجرى أحداثها فى المناطق الاستوائية، كانت الموضة، بعد الحرب العالمية الثانية يبدو أن الناس كانوا يحتاجون إلى مشاهدة والتفكير فى أماكن تكون بعيدة عن مسرح القتال، أماكن مثل الكاريبى والأمازون.

بدّل البروفسور فيلالوبوس الموضوع تماما، ليس بقليل من الجهد، فكرت أنه كان قد سئم رفقتنا. الآن لا يجب الخوف من النار، لأن الجرسون جاء له بعلبة السيجار، اختار واحدا بلا تردد (كان يعرف الماركات) لم يتشممه (كان رجلا مهذبا، ولم يكن يضع فى يده خاتم زواج)، وضع السيجار فى فمه ـ الفم المبتل الممتلئ دائما، إنها الوفرة ـ وسمح بأن يقربوا من وجهه شعلة كبيرة لإشعال السيجار. كانت رائحة السيجار رديئة، لكنى لم أعد أدخنه، سحب البروفسور عدة أنفاس وبينما كان يفعل ذلك كانت عيناه زائغتان ودخل رأسه فى تفكير عميق وغامض، ولم تبدُ عليه الآن علامات عدم الجدية: عندما يبدو منهارا وصامتا يبدو شبيها بذلك الممثل الإنجليزى الذى انتحر فى برشلونة قبل سنوات، حيث كان يعيش فيلالوبوس، كان اسمه جورج ساندرس، إنه ممثل كبير(*). ربما عاد إلى تذكر أنه كان تعسا وأن هذا شىء لم يحكه له أحد، أو أنه قرأه، أو أنه اخترعه، أو أنه يشكل جزءا من أى مسلسل فنى.

ـ الأمازونات ـ قال والسيجار فى يده. وكانت شعلته تلمع.

(*) جورج ساندرس المولود عام ١٩٠٦ فى بطرسبورج من أبوين إنجليزيين، واختار مكان انتحاره عام ١٩٧٢ على شاطئ بحر مختلف، وكتب عنه خافيير مارياس مؤلف هذه الرواية مقالا عام ١٩٩٦ بعنوان "الرجل الذى كان يبدو أنه لا يريد شيئا".

في تلك الليلة تحدثنا لويسا وأنا بعد وصولنا إلى الشقة، وإن كان حديثنا قصيرا جدا، وفقط بعد دخولنا إلى السرير، بعد صمت دام مسيرتين بالتاكسي في الطريق إلى البيت. وإن كان لا معنى لحديثي عن هذه الليلة مرة أخرى، ولكن عن ليلة أخرى جاءت بعد ذلك بكثير، أو كما هو الأمر نفسه، منذ زمن مضى من قبل، بالضبط يوم عودتي من مدينة جنيف، بعد اكتمال- أو تقريبا - اكتمال أسابيعي الثمانية من الإقامة والعمل، بعد تلك الليلة التي لا معنى لحديثي عنها مرة أخرى، وربما نعم، لأنه كان في ذلك الوقت الذي تم فيه الاتفاق. أو ربما لا، لأن ما جاء بعد ذلك، بعد ثلاثة أسابيع، كان مزيجا بين الاتفاق والصدفة، صدفة واتفاق، وربما واحتمالات أيضا.

قدمت موعد عودتي أربعا وعشرين ساعة. حقيقة إنني حسبت بشكل خاطئ منذ البداية، دون أن أتذكر أحد أيام العطلات في سويسرا بسبب انتهاء عملي يوم خميس وليس الجمعة من الأسبوع الثامن. ولكنني انتبهت يوم الاثنين، وفي ذلك اليوم بدلت تذكرة السفر من السبت إلى الجمعة، وأيضا من الثلاثاء إلى الأربعاء،

ولكنى لم أبدل تذكرة الخميس، ولم أذكر أى شىء عن تغيير تلك التواريخ، من المفترض أننى كنت أريد أن أقدم لها مفاجأة صغيرة. ومفترض أيضا أننى كنت أريد أن أشاهد كيف يكون بيتى فى وقت غير متوقع لعودتى. ماذا تفعل هى، وكيف تكون بدونى، وأين كانت، وفى أى ساعة تعود، ومع منْ، ومنْ تستقبل فى البيت. ومن الذى كان عند الناصية، كنت أريد التخلص من الشك مرة واحدة، الواحد منا لا يريد أن يخايله الشك بينما يتعايش مع شخص آخر، حتى لو سألت وسمعتها تقول "أنا لم أذهب"، كما لو لزمت الصمت، الهدف دائما هو إضعافها. وهذا كان الصدفة.

الاتفاق هو العودة فى الساعة التى اعتادت فيها عودتى بعد قضاء ثمانية أشهر من القلق، منذ زواجنا وليس قبل ذلك، إنه يجمع كل هذا، لقد كان أبى نفسه هو من بدأ وحدد يوم زفافى، وبعدها بساعات قليلة فى كازينو شارع القلعة رقم ١٥، عندما انتحى بى جانبا وسألنى السؤال الذى طرحته على نفسى طوال الليلة السابقة التى أمضيتها مسهدا وربما هدأت قليلا خلال الحفل. لا، لا ليس هناك، لم أستطع ولا حتى بعدها، وظل القلق يتنامى خلال رحلة شهر العسل، فى ميامى ونيو أورليانز والمكسيك، وبشكل خاص فى هافانا، ربما لو لم تتوعك لويسا فإن الإحساس الكارثى كان يمكنه أن يختفى كاصطناع البيت، والذى فى كل يوم يمر يبدو لى أكثر طبيعية، وأنسى ما كان ليس لى وحدى من قبل.

لم يكن قد مر عام واحد، حدث الاتفاق خلال تلك الليلة التى لا يجب أن أستمر فى الكلام عنها، ورغم هذا فإننى سأقول شيئا. عند العودة إلى شقتى بعد وداع البروفسور فيلالوبوس عند باب

الفندق (لم يكن ثريا إلى حد مغادرة المكان بعد الرقصة المتشابكة، أو إننى تذكرت هذا بعد ذلك بلا راحة كافية) قالت لى لويسا فى الظلام، (قالته لى ورأسها على المخدة، كان سريرا بلحاف ولفرد واحد فقط، وإن كان عريضا بما فيه الكفاية لينام فيه اثنان إذا لم يحجما عن التلامس) "ألا تزال تريد أن تعرف؟"، هل لا تزال لا تريدنى أن أسأل أبيك؟"، أخاف أن أكون قد أجبتها بالتعبير عن شك آخر: "ألم تسأليه بعد؟ وأنتما تلتقيان كثيرا". لم تغضب لويسا، كلنا نتفهم وجود الشك، "لا، بالطبع لا"، قالت دون أن تكون نبرة صوتها معبرة عن الغضب، "ولن أفعل ذلك، إن لم تكن أنت تريد ذلك. إنه حماى، وبشكل خاص لأننى أحترمه جدا، لكنه أبوك. يمكنك أن تقول ما تريد".

حلت فترة صمت، لم يضغطنى، انتظرت، كنت منتظرا، لم نكن يرى أى منا الآخر، لم تكن هناك شراشف، ما تراه هى بوضوح أن تكون هى، وليس أنا، من يسأل رانز، كان هذا ليس بسبب الثقة فى أنه سيجيبها "أنا لن يحكى لى"، كنت قد قلت هذا مرة من قبل، مع أنها كانت قد قالت مرة: "أنا سيحكى لى" وكان ذلك فى النور وفى سريرنا وبثقة متبادلة. "من يعرف أنه انتظر كل هذه السنوات حتى تظهر فى حياته شخصية مثلى، شخصية يمكنها أن تلعب دور الوسيط بينك وبينه، فأنتم الأبناء والآباء متخبطون فيما بينكم، وأضافت بعد ذلك، وبثقة ومعرفة: "ربما لم يحك لك حكايته أبدا لأنك لم تكن تعرف كيف توجه إليه السؤال وأنت لم تفعل هذا بشكل جيد. أنا نعم أعرف كيف أجعله يحكى لى"، وكانت قد قالت أكثر من هنا، كانت قد قالت بعبقرية وتفاؤل: "كل شىء قابل للحكى، يكفى وضع البداية، كلمة بعد الأخرى".

كل شيء قابل للحكى، حتى ما لا يريد الواحد منا أن يعرفه ولا يسأل عنه، ومع ذلك يُقال ونسمعه.

قلت دون أن أراها: "هل من الأفضل أن تسأليه؟". لاحظت أنها لاحظت بقايا تردد فى صوتى، ومن المؤكد أنه لهذا السبب قلت أنا: "هل تريدين أن تكونى أنت فى المواجهة، أو أحكى لك أنا بعد ذلك؟" "لا أعرف" أجبتها، "ربما لا يريد هو أن يتكلم إن كنت أنا موجودا"، لمست لويسا كتفى، دون تدلل، كما لو كانت ترانى (تعرف كتفى، تعرف جسدى). أجابت: "لو كان مستعدا للحكى لا أعتقد أنه لن يفعل ذلك لهذا السبب. سيكون كما تريد يا خوان". لقد نادتنى باسمى، رغم أنها لم تشتمنى ولا كانت غاضبة ولا بدا أنها ستغادرنى. لكنها كانت تسبق أن ما ستحكيه لى هى عما سيحكيه لها رانز، حينئذ عليها أن تنقل إلى نبأ سيئا. لم تخرج من فمى كلمات معيبة، مثل "حسنا"، أو "هيا" أو "أنت تكسبين"، أو "نعم الآن"، بل قلت لها: "لا أعرف، لسنا على عجلة من أمرنا، يجب أن أفكر فيه". "سوف تخبرنى"، قالت هى، وسحبت يدها عن كتفى لتنام. كانت لدينا مخدة واحدة، وهذه الليلة لم نقل أى شيء آخر.

هناك مخدتان فى سريرنا، كما هو المعتاد فى السرير الزوجى، وهذا السرير كان جاهزا عندما عدت من جنيف، فى يوم سابق على اليوم الذى كانت تتوقعه لويسا. فى منتصف المساء، لقد وصلت متعبا كما يجب أن يكون من يأتى من المطار. فتحت الباب وعلى الفور، قبل أن أتبين إن كان هناك أحد فى البيت أم لا، وضعت المفاتيح فى جيب الجاكيت، كما كانت تضعها برتا فى حقيبة اليد حتى لا تنساها عندما تخرج من جديد. ناديت على اسم لويسا من عند المدخل ولم يكن هناك أحد.

تركت الحقيبة هناك والكيس لبضع لحظات وذهبت إلى غرفة النوم، حيث وجدت السرير مرتبا، بعدها ذهبت إلى الحمّام، كان الباب مفتوحا وكل شىء مرتبا، فقط أن فم الدش كان ساقطا وليس معلقا ولم يكن يرى سوى المناشف وبرنس لويسا، كلها لونها أزرق قاتم، ومناشفى ذات اللون الأزرق الشاحب مثل برنس "بيل"، والذى كان فى الواقع يخص فندق بلاثا، وكانت لا تزال كلها فى الدواليب، حيث ظلت هناك منذ ذهابى. انتبهت إلى أننى لم أكن أعرف بالضبط أى الدواليب هى، فأنا مازلت لا أعرف كل شىء فى بيتى، والذى كان يتغير طوال فترة غيابى، وإن كنت أنتظر ألا يحدث أى تغيير فيه لفترة زمنية طويلة.

مررت إلى المطبخ وشاهدته نظيفا، وكانت الثلاجة نصف ممتلئة، لويسا نظيفة، ومنظمة أيضا، لم يكن هناك حليب، لن أهبط لشرائه، وكانت فى الصالون قطعة أثاث لا أعرفها، وكرسى رمادى لطيف غيّر من شكل المشهد عن ترتيبه الأصلى لرانز عندما كان يستقبل زيارات. كان الكرسى مريحا، جربته للحظات، فى الغرفة التى تعمل فيها لويسا عندما تعمل فى شىء لم يكن هناك أى شىء يدل على أنها كانت تعمل فى أى شىء خلال الفترة الأخيرة. (ربما تصبح فى يوم من الأيام غرفة لأى طفل)، ولم يكن هناك أى تغير فى الغرفة التى أعمل فيها.

شاهدت كومة من البريد تنتظر عودتى على الطاولة التى على شكل حرف "U" كانت كثيرة حتى ألقى عليها نظرة، كنت على وشك العودة إلى المدخل عندما لاحظت شيئا جديدا: كان على أحد الحوائط لوحة مرسومة كنت قد شاهدتها فى أوقات أخرى كان

يمكن أن يكون عنوانها، إن كان لها عنوان: "رأس امرأة بعينين مغلقتين". فكرت، لقد أهدانى أبى هدية أخرى، أو أنه أهداها للويسا وهى وضعتها فى غرفتى. وأخيرا عدت إلى المدخل، وكما كنت أفعل دائما عندما أصل إلى البيت أو إلى المكان الذى أقصده، أفرغت وبعجل، كما لو كان هذا جزءا من السفر ويجب أن تنتهى الرحلة، وضعت الملابس القذرة فى الغسالة، حيث رأيت بعض ملابس لويسا، يجب أن تكون خاصة بلويسا، لم أدقق، فقط فتحت باب الغسالة الصغير ووضعت ملابسى، ودون أن أديرها، لم أكن متعجلا وربما تريد هى أن تبرمجها.

بعد مرور بضع دقائق كانت حقائبى فارغة ومحفوظة فى الدولاب الذى أعد لها، وهو ما كنت أعرفه من قبل، (أعلى المعاطف فى الممر) وذلك لأننى كنت أخرجها من هناك عند استعدادى للسفر بعد زواجى. كنت متعبا، نظرت إلى الساعة، يمكن أن تصل لويسا فى أى لحظة أو تغيب ساعات، كانت الساعة تشير إلى منتصف المساء فقط، الساعة التى لا يبقى فيها أحد فى بيته فى مدريد، لا أحد يحتمل هذه الساعات، الناس تخرج بهستيرية وقلق وإن لم تعترف بذلك لتفعل أى شىء، للشراء فى الحوانيت، وفى المخازن الكبرى المزدحمة، فى الصيدليات، لتقوم بتوصيل أعمال لا فائدة من ورائها، لتشاهد الفاترينات، لشراء التبغ، أو لاستلام الأطفال عند خروجهم من المدارس، لتشرب شيئا دون أن تكون عطشى، المدينة كلها فى الشارع أو فى العمل، إنه حمّام من البشر، لا أحد فى بيته، على عكس نيويورك، حيث يعود الجميع تقريبا من الخامسة والنصف، إلى السادسة، وفى السادسة والنصف تضع الناس أيديها فى صناديق البريد فى كينمور أو أولد تشيلسى ستيشن.

خرجت إلى الشرفة ولم أشاهد أحدا متوقفا عند الناصية، رغم وجود مئات السيارات والكثير جدا من السائرين، والجميع ينطلق من اتجاه إلى آخر ويشوشون على بعضهم البعض. دخلت إلى الحمّام، تبولت، غسلت أسنانى، عدت إلى غرفة النوم. فتحت دولابنا، وعلقت فيه الجاكيت الذى كنت أرتديه، شاهدت فساتين لويسا فى الجانب الخاص بها، وعلى الفور لاحظت فستانين جديدين، أو ثلاثة أو خمسة، قبلتها بشفتى الرقيقتين ولمستها بعاطفة مشبوبة، ألصقت وجهى فى القماش الملون وألصقت ذقنى بها قليلا (يجب أن أنظر إليها عند حلول المساء إذا خرجت) منعت ذقنى أن تنزلق الفساتين على خدى، شاهدت حلول المساء (كان اليوم السبت، والشهر مارس)، استلقيت على السرير، دون أن تكون لدىّ النية فى النوم، فقط لأستريح، لذلك لم أزحزح الشراشف (ربما لم تكن الشراشف جديدة، ربما كانت لويسا تفكر فى تغييرها غدا، قبل مجيئى) ولم أخلع حتى حذائى، استلقيت فى السرير مستعرضا وهكذا كان حذائى معلقا فى الهواء، دون خطورة من أن يلوث الغطاء.

عندما استيقظت لم يكن هناك ضوء يأتى من الخارج، أريد أن أقول كان الضوء ليليا، ضوء النيون وأعمدة الإنارة ليس ضوء المساء. كنت على وشك أن أنظر إلى الساعة لكنى لا أستطع رؤيتها إن لم أضئ اللمبة. مددت يدى لإضاءة لمبة الأباجورة الليلية لكنى سمعت أصواتا. كانت الأصوات تأتى من البيت، من الصالون، اعتقدت، وكنت لا أزال مشوشا ولكنى سرعان ما عدت إلى كامل وعيى، اعتادت عيناى الظلام، كان باب غرفة النوم مغلقا، ربما كنت قد تركته أنا هكذا، إنها العادة الليلية، وإن كانت قد مرت ثمانية

أسابيع منذ أن تركت تلك العادة، فى تلك الغرفة، كان أحد الأصوات للويسا، كانت هى من يتكلم فى تلك اللحظة، ولكن لم يكن ما تقوله واضحا. النبرة متقطعة، وتوحى بالثقة، وحتى بالعفوية. لقد عادت.

بحثتُ أنا عن الولاعة فى جيب البنطلون وأشعلتها لأنظر إلى معصمى الذى به الساعة، الثامنة وعشرون دقيقة، كانت قد مرت ثلاث ساعات تقريبا منذ وصولى. ربما شاهدتنى لويسا نائما ولم ترغب فى إيقاظى، فكرت، "تركتنى فى هدوء حتى أستيقظ وحدى"، لكن كان ممكنا أيضا أنها لم تنتبه إلى وجودى فى البيت. هى لم تكن معتادة دخول غرفة النوم عند عودتها من الشارع، إلا إذا كانت تريد أن تبدل ملابسها على الفور. لو كانت قد عادت برفقة شخص ما، تكون قد ذهبت إلى الصالون مباشرة، أو ربما مرت للحظات بالحمّام، وربما إلى المطبخ لتعد كأسا أو بعض الزيتون (كنت قد شاهدت زيتونا عندما فتحت الثلاجة).

لا أعتقد أنها فعلت ذلك عمدا، أعتقد، (أنا لم أكن أعرف أننى سأنام، ولكن هذا مؤكد)، ولكنى انتبهت إلى أنه لا يوجد فى البيت ما يشير إلى وصولى، فقد حفظت كل شىء فى مكانه كما اعتدت أن أفعل، وأيضا الحقيبة والكيس، وضعتهما بالضبط تحت المعطف فى دولاب المعاطف، يمر ضوء بمجرد فتح الباب، ولكنى لم أبحث عن برنسى ولا المناشف، لا تزال لا توجد فى الحمّام، كنت قد جففت يدى بمنشفة للويسا، وكنت أحتفظ بالهدايا معى، فى غرفة النوم، فقط كان هناك شىء واحد: حقيبة أدوات النظافة. قد أخرجتها من الكيس اليدوى وتركتها على كرسى فى الحمّام،

ومحتواها الشىء الوحيد الذى لم أضعه فى مكانه وفى أماكنه المعتادة. كنت قد فتحتها: نعم، لكنى أخرجت فقط فرشاة الأسنان، ولم أخرج حتى المعجون، استخدمت المعجون الموجود، هذا هو، إنه خاص بلويسا، كان الأنبوب حتى منتصفه.

ربما لا هى ولا من يرافقها انتبها إلى وجودى هناك، أنا جاسوس رغم أنفى (رغم أنفى حتى تلك اللحظة) فى بيتى الخاص. والآن تردد الصوت الآخر، ولكنه يتحدث بشكل منخفض، أكثر انخفاضا من صوت لويسا، ومن هذا الصوت لم أتبين ولا حتى نبرته وهذا شوشنى، كما حدث معى فى غرفة فندق هافانا وأيضا مرة فى أشبيلية - بلتيمور، لا أعرف، فى جزيرة، وفجأة داخلنى التعجل. كنت أعرف أننى سأعرف فى النهاية من فى الصالون مع لويسا، حتى لو كان سيذهب فى تلك اللحظة نفسها فما علىّ سوى أن أفتح الباب وأخرج لرؤيته، قبل أن يكون فى الخارج، منتظرا المصعد ليذهب، ولكن الاستعجال جاء نتيجة وعيى بأن ما لا أسمعه الآن لن أسمعه أبدا، لأنه لن تكون هناك إعادة، كما يستمع إنسان ما إلى شريط مسجل أو يشاهد فيديو ويمكن إعادته، دون أن يفقد كل مستخدم فهم المعنى نفسه، والسيئ هو عندما يحدث لنا شىء ولا يمكن أن نسجله، والأسوأ، فإنه لن يُعرف ولا يُرى ولا يُسمع أبدا؛ لأنه لا توجد طريقة لاستعادته بعد ذلك، فتحت باب غرفة النوم باحتراس شديد، دون أن أحدث أدنى ضوضاء، دخل ضوء بعيد عبر الفتحة التى كانت ضئيلة وعدت لأستلقى فى السرير، وحينها تعرفت على الصوت الذى كان يتكلم، وذلك بفضل هذه الفتحة الضئيلة، تعرفت على الصوت بتخوف وارتياح، إنه صوت رانز، صوت أبى، وبارتياح أكثر، وبتخوف أقل.

أنا لدىّ ميل نحو أن أتفهم كل شىء، كل ما يُقال وما يصل إلى سمعى، حتى لو كان عن بعد، حتى لو كان فى العديد من اللغات التى أجهلها، حتى لو كان همهمات غير مفهومة أو همسات لا يمكن التكهن بمعناها، حتى لو كان من الأفضل الا أفهمها، وحتى أيضا لو كانت كلماته تُقال عمدا لأسمعها، أو تُقال عمدا لكى أمسك بها. وما أن واربت باب غرفة نومى قليلا أصبحت الهمهمات مفهومة أو الهمسات مستقبلة، وكلاهما كان فى لغة أعرفها جيدا، لغتى، والتى بها أكتب وأفكر، حتى لو كنت أتعايش مع غيرها وأكتب وأفكر بها أيضا، ودائما لغتى أستخدمها أكثر، وما كان يقوله الصوت ربما لكى أفهمه، وربما يقوله لأسمعه، وبالضبط فى اللحظة المطلوب الإمساك بما يُقال. أو ليس هذا تماما.

وفكرت أن لويسا لم تمرر وجودى فى البيت بسهولة (حقيبة النظافة، وفرشاة الأسنان فى مكانها، والمعطف معلق، مؤكد أنها شاهدت شيئا من كل هذا) ولكن رانز نعم، ما كان لرانز أن يشاهد شيئا (ولو كان قد دخل إلى الحمّام فإن وجود حقيبة النظافة والفرشاة لا تعنى له شيئا)، وربما قررت لويسا أخيرا أن تتحدث مع أبى وتسأله عن نسائه الموتى، عن "بارياثول"، وتترك استيقاظى للصدفة وأن أسمعه بشكل مباشر أو أواصل نومى بعد تعب السفر من جنيف وألا أعرف إلا بشكل غير مباشر، ومن خلالها هى، وبكلمات أخرى (عبر الترجمة وربما الرقابة)، أو من الأفضل الا أعرف على الإطلاق، هذا إذا كانت قد تذكرت. وربما لم تكن تتجه نيتها نحو فعل هذا، وليس فى تلك الليلة أو المساء، حتى تصل إلى البيت وتشاهد حقيبتى، ومعطفى، وبعد ذلك، ربما، هيئتى النائمة على سريرنا.

وربما أطلت على الغرفة وكانت هى، ولست أنا، من كان قد أغلق الباب، حينها، عندما فكرت فى هذا فهمت أنه حدث على هذا النحو تقريبا، ولكن لأننى لم أفهم حتى تلك اللحظة لم يكن السرير مرتبا كما رأيته. رفع أحدهم الشراشف والبطانية والغطاء من أحد الجوانب وحاول أن يغطينى بها، بشكل عشوائى، من أقصى جوانبها البعيدة وحتى الأرضية وما يسمح به جسدى، ربما كنت أنا نفسى فعلت هذا خلال النوم، فكرت، ولكن لم يكن محتملا، وأبعدت هذه الفكرة على الفور، وسألت نفسى فورا متى حدث هذا، متى تم تغطيتى، عندما فتحت لويسا الباب وشاهدتنى ممددا، ونائما، وربما كان شعرى مهوشا، وبعض الخصلات تتقاطع على الجبهة كما لو كانت تجاعيد رفيعة قادمة من المستقبل وظللتنى فورا. (لم أكن قد خلعت حذائى، كان لا يزال فى قدمى والآن يدوس على الغطاء) وسألت نفسى أيضا كم من الوقت مر منذ جاءت لويسا ورانز إلى البيت، وكيف تحكمت هى فى الحوار وأدارته إلى اللحظة التى واربت فيها باب غرفتى ثم عودتى إلى السرير وسماع أولى كلمات رانز بشكل واضح (رغم المسافة)، وكانت تلك الكلمات على هذا النحو:

"انتحرت بسبب شىء كنت قد حكيته لها. بسبب شىء كنت قد حكيته لها خلال رحلتنا لشهر العسل".

كان صوت أبى ضعيفا، ولكنه ليس صوت شيخ، لم يكن فيه أى شىء من الشيخوخة على الإطلاق. كان الصوت مترددا، كما لو كان يتحدث دون أن يكون مقتنعا بالكلام، كما لو كان متنبها إلى أن الأشياء التى تُقال صعبة جدا (تكفى البداية، وتأتى كلمة بعد

الأخرى) ولكن من يسمع الكلمات لا يمكن نسيانها، ستعرف. كما لو كان هذا مسجلا.

"إنه لا يريد أن يحكيه لى أنا"، سمعت لويسا تقول. كان صوته حريصا لكنه طبيعى، لم يكن يبالغ فى التردد ولا فى لطافة أثره. كان يتحدث بلباقة، بل وأكثر من اللباقة.

"ليس لأننى لا أريد، بعد كل هذا، إن كنت أنت تريدين أن تعرفى هذا"، أجابها رانز. "وإن كانت الحقيقة أننى لم أقص هذا على أى شخص على الإطلاق، لقد احترست فى الاحتفاظ به سرا، كل هذا حدث قبل أربعين عاما، أى أنه كما لو لم يكن قد حدث، أو أنه حدث لأناس آخرين، وليس لى، وليس لتريسا، ولا حتى للمرأة الأخرى، كما أسميتها أنتِ، هن لا يوجدن منذ زمن طويل، ولا حتى ما حدث لهن، لا يعرفه أحد غيرى، ولا يوجد أحد غيرى ليتذكرهن وما حدث يبدو لى كتصاوير ضبابية، كما لو أن الذاكرة، تماما كما يحدث للعيون، تتعب مع الشيخوخة ولم تعد لديها القوة لترى بوضوح. ولا توجد عوينات للذاكرة المتعبة، يا عزيزتى".

اعتدلتُ، وأسندتُ قدمى على السرير، من حيث أتمكن من مواربة الباب أو إغلاقه فقط بمد يدى. رتبت السرير بشكل عفوى، أى، عدلت من وضع الشراشف، والبطانية وغطاء السرير لتصبح كما كانت فى وضعها الأول، وحتى ثنيت الشراشف والبطانية أيضا. كان كل شىء فى مكانه، وقليل من الضوء، يمر عبر الفتحة، ضوء الليل فى الخارج.

"لماذا حكاه لها، حينئذ؟"، قالت لويسا. "ألم تتخيل ما كان يمكن أن يحدث".

"لا أحد تقريبا تخيل هذا، خاصة عندما يكون فتيا، ويظل فتيا خلال زمن طويل أطول مما يعتقد. إن الحياة كلها تبدو كذبة، عندما يكون الإنسان فتيا، وأن ما يحدث للآخرين، التعاسة والعقبات والجرائم، كل هذا يبدو لنا بعيدا عنا، كما لو لم يكن، وحتى ما يحدث لنا يبدو لنا غريبا عنا بمجرد حدوثه، وهناك من يكون على هذا النحو طوال حياته، ويظل فتيا خالدا، إنها مأساة.

الواحد منا يحكى، ويتكلم، ويقول، فالكلام مجانى وتخرج الكلمات متدافعة أحيانا، دون حدود. وتظل تخرج فى كل مناسبة، عندما نكون سكارى، وعندما نكون فى حالة غضب، وعندما نكون فى حالة إحباط، وعندما نكون فى حالة زهق، وعندما نكون منفعلين، وعندما نشعر أننا فى حالة حب، وحين لا يكون مناسبا أن نقولها، أو لا نستطيع التحكم فيها. وعندما نصيب الآخرين بالأذى. يكون من المستحيل ألا نخطئ، والغريب أن تكون للكلمات نتائج كارثية أكثر مما يكون لها فى المعتاد. أو ربما لا نعرف عنها ما يكفى، ونعتقد أنه ليس لها كل هذا وكل شىء كارثة متواصلة نتيجة لما نقول.

والعالم كله يتحدث بلا توقف، وفى كل لحظة هناك ملايين الحوارات، والروايات، والتصريحات، والتعليقات، والنميمة، والاعترافات، كلها تُقال وتُسمع، ولا يستطيع أحد السيطرة عليها. ولا أحد يمكنه توقع نتائجها الانفجارية التى يمكن أن تحدثها، ولا حتى متابعتها، ولأنه رغم أنها كلمات كثيرة ورخيصة جدا، وبلا معنى، يكون هناك قلة من يملكون القدرة على عدم الاكتراث لها. نحن نمنحها الأهمية، أم لا، ولكنها تكون مسموعة، أنتِ لا تعرفين كم مرة طوال كل هذه السنوات وما قلته لتريسا من كلمات عاطفية،

مفترض، أننا كنا فى رحلة شهر العسل، كنا عند النهاية تقريبا. أمكننى أن أصمت وأصمت إلى الأبد، لكن الواحد منا يعتقد أنه يريد أكثر عندما يحكى أسرارا، والحكى كثيرا ما يبدو كهدية، والهدية الكبرى التى يمكن تقديمها، أكبر وفاء، وأكبر دليل على الحب والاحتواء، إثارة الإعجاب، وفجأة لا يكفى الواحد أن يقول فقط كلمات ملتهبة سرعان ما تُستهلك أو تصبح مكررة، ولا حتى كذلك كافية لمن يسمعها.

إن من يقول لا يرتوى ولا يرتوى من يستمع، من يقول يريد الاستحواذ على اهتمام الآخر إلى الأبد، ويريد أن يدخل لسانه حتى الأعماق ("اللسان كقطرة المطر، اللسان فى السمع"، فكرت) ومن يستمع يريد أن يظل مخدوعا إلى النهاية، يريد أن يستمع وأن يعرف أكثر وأكثر، حتى لو كان ما يُقال مزيفا أو مجرد خيال. ربما لم تكن تريسا تريد أن تعرف، أو بمعنى آخر أنها لم تكن ترغب فيه. ولكنى قلت لها فجأة شيئا، لم أتحكم فى نفسى، كما يجب، وعندها لم أتمكن من مواصلة الكلام رغما عنى، كانت تريد أن تعرف وكان عليها أن تستمع إليه.

توقف رانز للحظة قصيرة جدا، ويتحدث الآن بلا تردد وكان صوته أقوى، صوت اعترافى تقريبا وليس همهمة ولا همسا، كان يمكنه أن يصلنى والباب مغلق. ولكنى حرصت على إبقائه مواربا. "لم تحتمله، لم يكن فى تلك الأيام طلاق، وهى لم تكن تريد محاولة إلغاء الزواج(*)، ولم تكن لا مبالية، وكان زواجنا قد وقع، وأنا أعتقد

(*) قبل قوانين الطلاق فى إسبانيا كان الزوجان أو أحدهما يلجأ إلى الكنيسة لإلغاء الزواج من أساسه من خلال تقديم أسباب أهمها الخيانة الزوجية للحصول على ما يسمى بالانفصال.

أنه كان قد وقع، قبل أن يكون زواجا واقعيا وفعليا. ولكن الطلاق أو إلغاء الزواج ما كان يكفى، حتى لو كان هذا ممكنا، ولم يكن هذا فقط بعد أن عرفت أنه ما كان يمكنها أن تحتملنى، أو الاستمرار معى، ولا ليوم واحد. ولا لدقيقة واحدة، وقالت لى، حتى لو بقيت معى لبضعة أيام ما كنت أعرف ماذا أفعل. لقد كانت قد قالت هذا، كانت قد قالت شيئا مرة، قبل ذلك بكثير، وما قالته كان لى أنا ولا حتى تحتمل نفسها لسبب أننى تخففت فى الحديث معها لمرة واحدة، دون أن تنتبه إلى أنها لم تكن مذنبة فى أى شىء، وما كان يمكننى الإبقاء عليها، وما كنت قد سمعته أنا ولو لم أسمعه ("التهجم ليس سوى كلمات"، فكرت، "كلمات قابلة للترجمة بلا حلم").

مرت عليها عدة أيام من التعاسة الحادة منذ أن حكيته لها، وتنامت هذه التعاسة، ولم أشاهد فى حياتى أبدا شخصا أكثر بؤسا منها، لا تكاد تنام، ولا تأكل. كانت تحاول التقيؤ ولم تتمكن، لا تتحدث ولا تنظر، لم تكد تتحدث مع أحد، كانت تدفن رأسها فى المخدة، حاولت إخفاء حالتها مع الآخرين، كانت تبكى، بكت بلا توقف طوال أيام، أيام قليلة. كانت تبكى فى أثناء نومها بعض الشىء، بضع دقائق، تبكى فى أحلامها، وسرعان ما تستيقظ متعرقة وفزعة وتنظر إلىّ فى السرير بغرابة، وبعدها برعب (كانت عيناها مركزتين علىّ ولكن دون أن تتعرف علىّ، بل ودون أن تنتبه إلى أين تكون"، فكرت، "تلك العيون الباردة المريضة التى تستيقظ فزعة ودون أن تكون هناك إشارة مسبقة لاستيقاظها من النوم")، كانت تخفى وجهها بالمخدة، كما لو كانت لا تريد أن ترى شيئا، أو تسمع.

حاولت أن أهدئ من روعها، لكنها كانت تخافنى، لقد أصابها الرعب منى، لقد أصبحت شخصا لا يريد أن يرى أو يسمع ولا يمكنه أن يواصل الحياة، لم يكن أمامها من طريق فى مواجهة التاريخ، فى الواقع لم يدهشنى أن تنتحر، وإن كنت لم أتوقعه، كان يجب علىّ أن أنتبه إلى هذا، لا يمكن الحياة على هذا النحو، البقاء بغير صبر على الحياة، ولا يمكن الانتظار حتى يمر الزمن ("كانت كما لو كانت قد ضاعت ولم يعد هناك مستقبل مجرد"، فكرت، "ماذا يهم إذا كان الحاضر لا يمكنه أن يكون واضحا ولا مقبولا"). كان كل شىء يتبخر، لكن هذا لا تعرفونه أنتم الشباب. لقد كانت هى صغيرة السن جدا.

توقف أبى، من المحتمل أنه توقف لالتقاط أنفاسه أو للتروى قليلا حول ما قاله حتى ذلك الوقت، وربما عرف أن الوقت قد فات على التوقف، الأصوات لم تجعلنى أتبين موقع كل واحد منهما، ربما كان أبى يضطجع على الكرسى العثمانى ولويسا تجلس على الأريكة، أو لويسا تجلس على الكرسى العثمانى ورانز يجلس على الكرسى الجديد اللطيف الذى كنت قد جربته لثوان معدودة. وربما كان أحدهما يجلس على الطاولة، لا أعتقد هذا، وبشكل خاص بالنسبة لرانز، الذى كان يحب هذه القطعة من الأثاث ليجرب أوضاعا جديدة عندما يكون بين جمع من الأصدقاء، وبطريقته فى الحديث التى تبدو غير مكترثة كثيرا لا أتخيل أنه الآن فى أى من تلك الأوضاع، ولأنه لم يكن بين جمع من الأصدقاء، أتخيله فقط جالسا على حافة المكان الذى يجلس فيه، منحنيا نحو الأمام، قليلا، وقدماه على الأرض، دون أن يجرؤ حتى على وضع ساق على ساق. بينما لويسا بعينين مفتوحتين تجلان ما تتأمله. كانت تفوح رائحة

الكولونيا والتبغ المعطر بالنعناع، وتميل قليلا إلى المشروب المعتق القريب من رائحة الجلد القديم، كما لو كان شخصا قادما من المستعمرات، ربما كان يدخن.

"لماذا حكيت هذا لها؟"، قالت لويسا.

"لو إننى حكيته لك الآن"، قال رانز، "لا أعرف إن كنت أفعل هذا كما فعلته حينها، يا عزيزتى الصغيرة".

"معذرة" أجابته لويسا بحزم وحس فكاهى، (بحزم لمجرد قول شيء، وحس فكاهى لأننى فكرت فى هذا)، "أنا لن أنتحر من أجل شيء حدث قبل أربعين سنة، مهما كان."

كان لرانز الحزم نفسه والسخرية نفسها ليضحك قليلا، بعدها أجابها:

"أعرف، نعم أعرف، لا أحد ينتحر بسبب الماضى، وأكثر من هذا، لا أعتقد أنك قد تنتحرين من أجل أى شيء، حتى لو عرفت اليوم أن خوان فعل شيئا مما فعلته أنا وحكيته لتريسا. أنت مختلفة، والزمن مختلف، أكثر حرية أو أكثر صعوبة، وكل شيء مقبول فيه. لكنى لا أعرف إن حكيت لك كل هذا كنوع من التأكيد على مودتى لك، أم أنها إشارة جديدة على المودة، أن أقدم لك احتراماتى حتى تظلى تسمعينى وترغبين فى رفقتى، وربما كانت النتيجة عكسية. مؤكد أنك لن تنتحرى، لكن ربما لن ترغبى فى رؤيتى مرة أخرى. أنا أخاف على نفسى، أكثر من خوفى عليك".

ربما وضعت لويسا يدها على ذراعه لو كان قريبا منها، وربما على الكتف لو أنه نهض لثوان، ("اليد على الكتف"، فكرت، "والهمس

غير المفهوم") أو تخيلته على هذا النحو، لم أكن أراه، فقط كنت أسمعه عبر فتحة الباب الموارب، وليس عبر حائط ولا عبر شرفات مفتوحة.

"إن ما فعلته حضرتك أو قلته قبل أربعين سنة لا يهمنى كثيرا ولن يغير من مودتى نحوك. حضرتك هو من أعرفه ولا شىء يمكنه أن يغير موقفى. أنا لا أعرف ما حدث حينها".

"ما حدث حينها"، قال رانز، "ما حدث حينها" كرر رانز، وربما كان يمسد شعره، يلمسه بأطراف أصابعه دون أن ينتبه. "ما كان حينها هو أنا، وربما لست أنا امتداده، أو ظله، أو وريثه، أو من حل محله. لا يوجد آخر يمكنه أن يشبهه كثيرا. إن لم أكن أنا، شىء أحيانا أؤمن به، حينها هو لم يكن أحدا وما كان يمكن أن يحدث ما حدث. أنا الأقرب شبها مما تبقى منه، على أى حال، كان يجب أن تكون تلك الذكريات لشخص ما، من لم ينتحر مفروض عليه أن يستمر، ولكن هناك من يقرر التوقف ويبقى هناك حيث بقى آخرون، ناظرا إلى الماضى. وبذلك فإن ما حدث يتحول إلى مجرد تخيل، ولكن ليس له هو، ولكن للعالم، فقط للعالم، الذى يهجره. لقد فكرت كثيرا فى هذا. لا أعرف إن كنتِ تفهمين هذا".

"لا يبدو أن حضرتك توقفت فى أى مكان"، قالت له لويسا.

"مفترض لا، وفى الوقت نفسه نعم"، أجاب رانز، عاد الصوت إلى الضعف، ويتحدث الآن لداخله بعض الشىء، ليس بتردد ولكن بتأمل، كانت كلماته تخرج واحدة واحدة، وكل كلمة تعبر عن تفكير، كما يقوم السياسيون بإعلان تصريح يريدون له أن يُترجم وأن يتم التعامل معه حرفيا. كان كما لو كان يملى كلماته. (ولكنى أنا الآن

أقوم بإعادة إنتاجها من الذاكرة، أى، بكلماتى الخاصة رغم أنها كلماته، فى الأصل) "أنا تابعت حياتى، ظللت أمارس حياتى بأقل مجهود ممكن، وحتى أننى عدت للزواج للمرة الثالثة، بأم خوان، تزوجت من خوانا، التى لم تعرف مطلقا أى شىء من كل ما حدث وكانت لديها فضيلة ألا تتهمنى مطلقا من خلال أسئلة عن موت شقيقتها الذى شهدته، والذى كان واضحا أمام الجميع، فيما لا أستطيع أنا توضيحه لها. ربما كانت تعرف هى أنه من الأفضل ألا تعرف، وإن كان هناك شىء يمكن معرفته فأنا لم أقل لها شيئا.

لقد أحببت خوانا كثيرا، ولكن ليس كحبى لتريسا، أحببتها بحدود، بكل احتراز، وليس بكل إصرار، كان حبى لها حبا متأملا لو كان لهذه الكلمة معنى، بشكل أكثر سلبية. وفى الوقت نفسه الذى واصلت فيه الحياة أعرف أننى توقفت أيضا فى ذلك اليوم الذى انتحرت فيه تريسا. فى ذلك اليوم، وليس فى اليوم السابق، من العجيب أن تبدو لنا أهمية الأشياء التى تحدث للآخر دون تدخل مباشر منا، أكثر من الأشياء التى نقوم بها نحن، أو نقترفها. حسنا، الأمر ليس على هذا النحو دائما، فقط أحيانا، طبقا لأى الأشياء، من المفترض".

أشعلت سيجارة وبحثت عن منفضة على طاولة المساء، كانت هناك، إلى الجانب الذى تنام فيه لويسا، ومن حسن الحظ أنها هى أيضا لا تزال تدخن، كلانا يدخن فى السرير، بينما نتحدث أو نقرأ، أو بعد أن نمارس الحب معا، قبل أن ننام، وقبل أن ننام نفتح النافذة حتى لو كان المناخ باردا، لتهوية الغرفة، لعدة دقائق، كنا متفقين فى هذا، فى بيتنا المشترك الذى أتجسس عليه الآن بموافقته المحتملة.

ربما عند فتح النافذة يمكن رؤيتنا من على الناصية من جانب شخص ينظر نحو الأعلى، هناك فى الأسفل.

"أى يوم آخر"، سألت لويسا.

صمت رانز، لثوان كثيرة حتى تكون فترة التوقف طبيعية، لقد تخيلته يمد يده بسيجارة من تلك التى لا يبتلع دخانها أبدا، يداه الكبيرتان المجعدتان ولكن بلا بقع، ويكون ناظرا إلى لويسا من المواجهة، بعينيه التى تشبه قطرتين عظيمتين من المشروب المعتق أو الخل، ينظر بألم وخوف، بمزيج من هذين الإحساسين المتشابهين كما يقول كليرك أو لويس، أو ربما بتلك الابتسامة البلهاء والعينين الساكنتين كمن يرفع النظر ويحرك الرقبة كحيوان عند سماع صوت أرغن أو صفير غراب من على القمم الجبلية، ويفكر للحظة إن كانت السكاكين التى توجد فى البيت تقطع كما يجب أم يجب الهبوط بها إلى الشارع هربا، ويتوقف فى ممارساته أو فى اهتزازته ليتذكر ويفكر فى الشفرات الحادة، أو ربما يتشبع فى أسراره فجأة، الأسرار المحفوظة والتى عاناها، التى يعرفها والتى لا يعرفها. وحينئذ، عندما يرفع رأسه استجابة لميكانيكية الموسيقى أو للصفير الذى يتكرر ويأتى متقدما عبر الشارع بكامله، فإن نظرته تسقط مجنونة على صور الغائبين.

"لا تحكِ لى إن لم تكن تريد ذلك"، سمعت لويسا تقول له.

"فى اليوم الآخر"، قال رانز، "اليوم الآخر كان ذلك اليوم الذى قتلتُ فيه زوجتى الأولى لأعيش مع تريسا".

"لا تحكِ لى إن لم تكن تريد، لا تحكِ إن لم تكن تريد"، سمعت لويسا تكرر وتكرر، وتكرر هذا عندما كان الحكى هو الشكل

الأكثر تحضرا للتعبير عن رعبها، وأيضا رعبى، ربما كان ندمها على أنها سألت. فكرت إن كان يجب علىّ إغلاق الباب، وإغلاق الفتحة حتى يعود كل شىء إلى كونه همهمات غير مفهومة أو همسات غير واضحة، لكن الوقت كان قد فات، بالنسبة لى أيضا، كنت قد سمعته، كنا قد سمعنا ننس ما كانت قد سمعته تريسا اجيلار خلال رحلة شهر العسل، قرب نهاية الرحلة، قبل أربعين عاما مضت، أو ربما لم تكن إلى هذا الحد، ولويسا تقول الآن "لا تحكهِ لى، لا تحكهِ لى"، ربما من أجلى، لقد فات الأوان، والنساء تشعرن بحب الاستطلاع دون مزج، ولا تتخيلن أو لا تتوقعن مدى ما تجهلنه. وما يمكن أن يصلن إلى اكتشافه ولا ما يمكنهن التوصل إلى عمله. لا تعرفن أن الأفعال تحدث وحدها أو تطلقها كلمة واحدة فقط. وفعل الحكى كان قد بدأ انطلاقته، تكفى البداية فقط، وكلمة بعد أخرى، قال رانز "زوجتى الأولى"، فكرت، "بدلا من منحها اسمها، وجعل لويسا تنتبه إلى هذا الاعتبار، لأنها سمعت هذا الاسم (جلوريا، أو ربما مريم، أو ربما تكون نييفيس. أو ربما برتا) ما كان لها أن تعرف عن من يتعلق الأمر، وليس على الأقل بشكل مؤكد، ولا أنا، وإن كان من الممكن أن نفترضه، هذا يعنى أن رانز يحكى فعلا وحقيقة، وهو لا يزال يتحدث إلى نفسه، كيف يمكن أن يحدث خلال لحظة إذا واصل التذكر والحكى، ولكن ما قاله حتى الآن انتبه إلى أن ما يقوله لشخص آخر، ولم ينس المتوجه إليه بل إنه منتبه إلى أنه يحكى وأن هناك من يستمع إليه.

"نعم، والآن يجب أن تتركينى أحكيه لك"، سمعت أبى يقول، "كما حكيته لتريسا. ولم يكن كلانا مختلفا كثيرا عنه وقتها، لقد قلت جملة وبها وضعتها فى داخل الحدث، وكان علىّ أن أحكى

الباقى، والحكى أكثر للتخفيف من حدة جملة واحدة، إنه عبث، كان خطأ غير مقصود، ولن أدخل فى تفاصيل كثيرة. لقد قلته الآن وأدخلتك فى الحدث، لقد قلت شيئا ببرود. وحينها كان ساخنا، كما تعرفين، يقول الواحد منا أشياء مشتعلة ويجرى تسخين الأجواء، ويحب الواحد كثيرا ويريد أن يكون محبوبا كثيرا، ولا يعرف ما يجب عليه أن يفعله أحيانا. فى بعض الحالات، فى بعض الليالى يتحول الواحد منا إلى عصبى، يتحول إلى متوحش، ويقول أشياء مرعبة للشخص الذى يحبه. وينسى بعدها كل شىء، إنها لعبة، ولكن بالطبع، هذا الفعل لا يمكن نسيانه.

كنا فى تولوز، كنا قد ذهبنا فى شهر العسل إلى باريس، وبعدها رحلنا إلى جنوب فرنسا، وكنا ليلة السفر فى فندق لوبلونيوم، فى ليلة السفر، فى السرير وكنت قد قلت لتريسا أشياء كثيرة، الواحد منا يقول كل شىء فى مثل هذه المناسبات لأنه لا يشعر بالتهديد بأى شىء، وعندما لا يعرف ماذا يمكنه أن يقول أكثر من ذلك، ومع ذلك يشعر بالحاجة إلى أنه يريد أن يقول لها المزيد، قلت لها ما يقوله الكثير من العشاق دون نتائج كارثية محتملة: "أحبك إلى درجة أننى على استعداد لارتكاب جريمة قتل من أجلك"، وضحكت هى، وأجابت: "سيكون هذا أقل شىء"، ولكن فى تلك اللحظات ما كان يمكننى أن أضحك، لأنها كانت لحظة من تلك التى لا يمكننى أن أضحك فيها، كانت من تلك اللحظات التى تتطلب كل جدية العالم، ولا مكان للهزل فيها، وحينها لم أفكر أكثر من هذا، وقلت لها تلك الجملة: "لقد فعلتها".

قلت لها: "لقد فعلتها"، "I have done the deed" فكرت، أو ربما فكرت، "لقد كنت أنا"، أو فكرت بلغتى، "لقد فعلت الفعلة

وفعلت المغامرة وقمت بالحدث، والحدث هو فعل، وهو المغامرة ولهذا السبب سرعان ما نحكيه أو نتأخر قليلا، لقد قتلت من أجلك وهذه هى مغامرتى وأن أحكيها لك الآن لأنها هديتى لك، وسوف تحبيننى أكثر عندما تعرفين ما فعلته من أجلك، وحتى لو كانت معرفتك بما فعلت سوف يلطخ قلبك ناصع البياض".

صمت رانز من جديد، وبدا لى الآن أن فترة الصمت كانت غبية، كما لو كان بعد حكيه ما لا يُحكى فقرر السيطرة على حكايته.

"إنها الجدية الملعونة". أضاف بجدية بعد ثوان. "بعدها لم أعد إلى الجدية فى حياتى على الإطلاق، أو هكذا حاولت".

أطفأتُ السيجارة وأشعلتُ أخرى، نظرت إلى الساعة دون أن أفهم كم الوقت. كنت قد سافرت وكنت قد نمت وكنت أستمع، كما استمعت إلى جييرمو ومريم جالسا أيضا وأقدامى على السرير، وأيضا كما سمعتهما لويسا وهى مستلقية، مدعية المرض، دون أن أعرف إن كانت تسمعهما أم لا. والآن هى التى لا تعرف أننى كنت أستمع إليها، وأننى لم أكن مستلقيا ولا نائما.

"من يكون"؟، سألت هى أبى. وهى أيضا، بعد ارتعابها وندمها الميكانيكى، كانت على استعداد لمعرفة كل شىء، أو على الأقل أكثر من هذا، بعد أن عرفت وسمعت الجملة رغم أنفها ("الاستماع هو أخطر شىء". فكرت، "لأنه يعنى المعرفة، والوعى، ومعرفة الحقيقة، إن الأذنين ليس لهما رموش يمكن أن تغلقهما لحظة النطق، ولا تستطيع حمايتهما من الإحساس الذى ستسمعه، وربما يمكن أن يلطخ قلوبنا الناصعة البياض، أو ربما تكون شاحبة وخائفة، أو جبانة").

"لقد كانت فتاة كوبية، من هناك، من هافانا"، قال رانز، "حيث كنت أتكاسل هناك لسنتين، إن فيلالوبوس له ذاكرة أفضل مما كنت أعتقد (لقد تحدثنا عن البروفسور، فكرت، وبعدها فإن أبى يعرف أنى أعرف ما يعرفه فيلالوبوس) لكنى لا أريد أن أتحدث عنها كثيرا، لو تسمحين لى، لقد تمكنت من نسيان كيف كانت هى، إن شكلها أصبح ممحوا مثل كل ذلك الذى حدث، لم نكن متزوجين لفترة زمنية طويلة، سنة تقريبا، وكانت ذاكرتى متعبة، تزوجت منها عندما لم تكن لدى رغبة، هذا إذا كنت قد أحببتها، الواحد منا يفعل هذه الأشياء استجابة لإحساسه بالمسئولية، والواجب، وبسبب ضعف وقتى، وبعض وقائع الزواج يجرى الاتفاق عليها، ويتم الإعلان عنها، وتبدو منطقية ولا مناص منها، ولهذا السبب تنتهى إلى إتمامها.

فى البداية دفعتنى هى إلى حبها، وبعدها أرادت أن تتزوج وأنا لم أعترض، وأمها، والأمهات جميعا تردن أن تتزوج بناتهن، أو كن يردن هذا حينها، ("كل الناس تجبر كل الناس"، فكرت، "ولو توقف العالم فإن كل شىء سيبقى طافيا فى تردد كونى ومستمر، بلا نهاية، فالناس لا تريد سوى أن تنام، لأن الندم المسبق يصيبنا بالشلل"). وكان حفل الزواج فى مذبح كنيسة السفارة، التى كنت أعمل فيها، وكان عرسًا إسبانيًا بدلاً من أن يكون عرسًا كوبيًا، حظ سيئ، ومن أرادت ذلك هى وأمها وأعتقد أنه كان مخططا له، ولأنها كانت كوبية كان يمكننا أن نحصل على الطلاق عندما تعرفت على تريسا. لأن الطلاق هناك معترف به، وإن لم أعتقد أن تريسا كان يمكنها أن تقبل هذا، ولا حتى أمها بشكل خاص، لأنها كنت متدينة جدا".

توقف رانز لالتقاط أنفاسه واستمر بصوته الساخر المعروف عنه دائما، الصوت الأكثر شهرة: "الأمهات المتدينات من الطبقة المتوسطة، والحموات المتدينات الأكثر ارتباطا، والمفترض أننى تزوجت حتى لا أعيش وحيدا، أنا لا أعفى نفسى من المسئولية، لم أكن أعرف الزمن الذى سوف أمكثه فى هافانا، كنت متشككا فى الاستمرار فى العمل الدبلوماسى، رغم أننى لم أكن قد أنهيت دراستى بعد، وبعدها هجرت تلك الفكرة ولم أكمل الدراسة أبدا وعدت إلى دراستى فى الفنون، كانوا قد وضعونى فى تلك السفارة بالواسطة بفضل نفوذ عائلتى، ليروا إن كانت الدبلوماسية تعجبنى، أنا كنت رصاصة طائشة حتى تعرفت على تريسا، أو الأفضل القول حتى تزوجت من خوانا"، لقد قال "رصاصة طائشة"، وكنت متأكداً أنه فى تلك اللحظة، رغم الجدية التى كنت أتحدث بها، كانت قد سعدت بإطلاق هذا التعبير المهجور، وكما كان يسعدها أن تنادينى "نقار الزهور"، يوم عرسى، خلال الاحتفال، بينما كانت لويسا تتحدث مع خطيب قديم لم أكن أتقبله وأشخاص آخرين - ربما كوستاردوى، ولم أكن قد شاهدت الكازينو، فقط كنت أرقبه عن بعد - وكنت أرى نفسى مبتعدا عنها خلال دقائق، وكان أبى يحتجزنى فى إحدى الغرف ليقول لى هذا: "والآن ماذا؟" وليقول لى بعدها بلحظات ما كان يريد أن يقوله لى بالفعل: "عندما تكون لديك أسرار، أو تكون لديك بالفعل، لا تحكها لها". والآن يقوم هو بحكاية أسراره، ويحكيها لها هى بشكل خاص، ربما ليجنبنى أن أحكى لها أسرارى (ما هى الأسرار التى أملكها، ربما كان سر برتا الذى لا يعتبر فى الواقع سرى الخاص، وربما كانت شكوكى، أم سر نيفيس، حبى القديم فى مكتبة الأدوات المكتبية) أو تكون هى من تحكى لى

أسرارها (ترى أى أسرار لديها، لا أستطيع أن أعرفها، ولو عرفتها ما عادت أسرارا).

"ربما يحكى رانز الآن سره الذى احتفظ به لأربعين سنة حتى لا نحكى نحن أسرارنا"، فكرت، "الماضى والحاضر والمستقبل، وأن نحاول ألا تكون لنا أسرار. ومع ذلك جئت اليوم إلى بيتى سرا دون أن أنبه أحدا بوصولى، وأجعلها تعتقد أننى سأعود غدا، وتحتفظ لويسا أمام رانز بسر وجودى هنا، مستلقيا أو جالسا على قدمى فى السرير، وربما أتسمع، لا بد أنها شاهدتنى، وإلا ما تفسير سر الغطاء والبطانية والشراشف الملتفة التى تغطينى بعض الشىء.

"هلا قدمت لى مزيدا من الويسكى، من فضلك؟"، سمعت أبى يقول الآن، إذن كان رانز يشرب كأسا من الويسكى، مشروب لونه يشبه لون عينيه عندما لا ينعكس عليهما الضوء، هى الآن فى الظل، سمعت صوت الثلج يسقط فى الكأس وصوتًا آخر أيضا للويسكى، وبعدها سمعت الماء، بمزجه بالماء حتى لا يشبه لون عينيه كثيرا. ربما كان الزيتون الذى شاهدته فى الثلاجة موجودًا الآن على الطاولة المنخفضة فى صالوننا، كانت هذه الطاولة من أوائل قطع الأثاث الذى اشتريناه، معا، وواحدة من القطع القليلة التى لم يتغير مكانها طوال كل هذا الوقت، منذ زواجنا، لم يمض على ذلك ولا حتى سنة واحدة، فجأة شعرت بالجوع، وكان يمكننى أن آكل الآن بضع زيتونات ومن الأفضل أن تكون محشوة، وأضاف أبى: "نذهب بعد ذلك لتناول طعام العشاء، أليس كذلك؟، إننى أحكى لك ما أحكيه، كما كان متوقعا. حسنا، لقد حكيت كل شىء تقريبا."

"بالطبع سنذهب لتناول العشاء"، أجابت لويسا. "أنا لا أتنازل عن أى دعوة". وهذه حقيقة، هى لا تتخلف عن أى دعوة توجه إليها. يمكنها أن تتردد كثيرا، ولكنها لو قررت لا تتخلف، إنها امرأة لطيفة فى هذا، "ماذا حدث بعد ذلك؟" قالت، وهذا هو السؤال الذى يطرحه الأطفال، حتى عندما تكون الحكاية قد انتهت.

وسمعت الآن صوت قداحة رانز بوضوح (بدأ السمع يعتاد ويلتقط كل شىء مهما كان مصدره) كانت يداى من قبل متقاطعة ومتلاعبة.

"حدث أننى تعرفت على تريسا وخوانا، وعلى أمهما الكوبية التى عاشت طوال حياتها فى إسبانيا. وذهبن إلى هافانا لبعض الوقت بسبب ميراث بعيد وبيع هذا الميراث، ميراث عن خالة لأمهما كانت قد ماتت، لم أعتقد أن فيلالوبوس سوف يتذكر كل هذا ("ربما كانت لويسا قد قالت له"، فكرت، "لقد حكى لنا فيلالوبوس هذا وهذا، وما هى الحقيقة؟"). وتحاببنا بسرعة، وأنا كنت متزوجا، التقينا فى بعض الأوقات بشكل سرى، لكنه كان محزنا، كانت تصاب هى بالحزن، لم تكن هناك إمكانية لاستمرار هذا الحب، وكانت رؤيتها تصيبنى أنا بالحزن، لم تكن لقاءات كثيرة. وكافية، كنا نلتقى دائما فى المساء، كانت الشقيقتان تتنزهان معا وبعدها تفترقان، لم أكن أعرف ما كانت تفعله خوانا ولا خوانا كانت تعرف ما تفعله تريسا.

كانت تريسا تأتى لتلتقى بى فى غرفة فى أحد الفنادق فى تلك الأمسيات وبعدها عندما يهبط المساء فجأة (كان الليل ينبهنا)، تلتقى مرة أخرى مع خوانا وتعودان معا لتناول العشاء مع الأم. وفى

آخر ليلة التقينا فيها كان يبدو موعدا للفراق لأننا لن نستطيع أن نلتقى بعدها، كان شيئا عبثيا، كنا شبابا، لم نكن مرضى ولم تكن هناك أي حرب. عادت هى إلى إسبانيا فى اليوم التالى، بعد إقامتها لثلاثة أشهر فى بيت خالتها ـ الجدة المتوفاة فى هافانا. وقلت لها إننى لن أبقى هناك إلى الأبد، وأننى سرعان ما سأعود إلى مدريد، ويجب أن نواصل لقاءاتنا.

هى لم تكن ترغب فى ذلك، وتفضل أن تنتهز فرصة الفراق الإجبارى لتنسى كل هذا، وتنسانى، وتنسى زوجتى الأولى، والتى من سوء حظها أنها تعرفت عليها. كانت ترى أنها لطيفة، أتذكر أنها كانت تراها لطيفة. كنت أنا مصرا وحدثتها عن طلاقى: "لا يمكننا أن نتزوج"، قالت لى "هذا مستحيل".. كان أمرا عاديا كما كانت تلك الأيام، منذ أربعين سنة، كانت هناك آلاف الحكايات مثل هذه، فقط الناس تحكى ولا تفعل أى شىء. حسنا، البعض يفعل، ("الأسوأ من كل هذا أنه لم يتم فعل أى شىء". فكرت "هذا ما كانت قد قالته مريم لجييرمو فى إحدى الليالى، بصدرها المبتل واللامع بعض الشىء، وكانا معا فى السرير). وحينها قال الجملة التى سمعتها أنا والتى جعلتها لا تتقبله بعدها ("قابلة للترجمة كلماتها ولا صاحب لها وتتردد من صوت إلى آخر ومن لغة إلى أخرى ومن قرن إلى آخر"، فكرت، "إنها هى دائما نفسها، تدفع إلى الأفعال نفسها منذ لم يكن فى العالم أحد ولا كانت هناك لغات ولا حتى آذان لتسمعها. ولكن من يقولها لا يحتملها، يرى أنها مكتملة").

أتذكر أننا كنا نحن الاثنين بعد ارتداء ملابسنا، ومستلقيين على السرير المستأجر، وكنا نرتدى أحذيتنا ("وربما كانت أقدامنا

قذرة"، فكرت، "فلا أحد كان يمكنه أن يراها")، فلم نتعر فى ذلك المساء، لم تكن لدينا رغبة. "أملنا الوحيد أن تموت هى فى يوم ما"، قالت لى "وهذا لا يمكن التعويل عليه". "وأتذكر أنه عندما قالت هذه الجملة وضعت يدها على كتفى وقربت فمها من أذنى. لم تهمس لى به، لم يكن مجرد تذكر، ويدها على كتفى وشفتاها القريبتان كانت طريقة لتعزيتى والتخفيف عنى، أنا متأكد، لقد فكرت كثيرا فى كيفية قول هذه الجملة، وإن كان بعد مرور زمن فهمتها فيه على نحو آخر.

كانت جملة تعبر عن التخلى وليس بدافع فعل شىء، كانت جملة من ينسحب ويعلن هزيمته، بعد أن قالت هذا قبلتنى، قبلة قصيرة جدا. كانت قد قررت هجر أرض المعركة («اللسان فى الأذن هى القبلة الأكثر إقناعا"، فكرت، "اللسان الذى ينوع عنا أسلحتنا، التى تهمس وتقبل، والتى تكاد تجبرنا").

توقف رانز مرة أخرى، كان صوته قد فقد آخر ما فيه من سخرية، أصبح لا يكاد يشبهه، وإن لم يكن يشبه صوت المنشار. "وبعدها عندما حكيت لها ما كانت قد قالته لى وحدثتها عن تلك الجملة، فى البداية لم تتذكرها، كانت قد قالتها بلا تفكير، كما كانت تتحدث عادة بشكل عفوى جدا، وعندما تذكرت فهمت، كانت فقط تعبيرا عن التفكير الذى كان فى رأسينا، إنه أمر واضح، كان فقط مجرد ذكر شىء دون هدف محدد، كما لو قلت لى أنت الآن: "لقد حانت ساعة التفكير فى العشاء"، ولا أنا حتى انتبهت إلى كلماتها فى ذلك الوقت، ولم أقلبها حتى بعدها بمرور وقت طويل، قلبت فى الكلمات بعد أن كانت تريسا قد ذهبت وكنت أتحرق شوقا

إليها، أملنا الوحيد أن تموت هى فى يوم ما، وهذا الأمل لا يعول عليه. وكان عقلى الغبى هو الذى فهم هذه الجملة بطريقة أخرى ("أنت لا تفكر فى الأشياء، يا أبى"، فكرت، "لا تفكر فيها بهذا العقل المريض جدا. فالنائمون والموتى ليسوا سوى لوحات مرسومة، يا أبى، لا يجب التفكير فى الأحداث بطريقة أخرى، هكذا، أنت تدفعنا إلى الجنون")، تذكرت هى جملتها فقط عندما ذكرتها بها، وهذا سبّب لها حالة عصبية، تمنيت لو أننى لم أحكِ لها أى شىء (استمعت هى إلى الاعتراف بهذا الفعل أو الحدث أو المغامرة، وهذا ما يجعلها شريكة حقيقية ليس لأنها تخيلته، بل لمعرفتها بالحدث وباكتمال الواقعة. إنها تعرف، لقد عرفت وهذا هو خطؤها، لكنها لم ترتكب الجريمة مهما كان ندمها وتأكيدها على الندم، تلطيخ يديها بدماء الميت لعبة، وتظاهر، وتخفيف عن من يقتل، لأنه لا يمكن ارتكاب فعل القتل مرتين ولا يوجد شك أبدا فى من يكون "أنا"، وما قد وقع فقد وقع. فقط هل هو مذنب بسماع من تحدث، ومن يتكلم، هذا يعرف أنه فى الواقع لم يفعل أى شىء، وحتى أنه أجبره بلسانه فى أذنيه، وبصدره ملتصقا بظهره، وبالتنفس المتسارع، وبيده على الكتف والهمس غير المفهوم الذى يخفف عنا). لا شىء.

ـ ما الذى فعلته حضرتك؟، هل قلت لها كل شىء، قالت له لويسا. كانت لويسا تسأل فقط ما هو ضرورى جدا.

ـ "نعم، حكيت لها كل شىء" قال رانز، "ولكن بالنسبة لك أنت لن أحكيه لك، وهذا ما لم أفعله بالضبط، وليس التفاصيل، كيف قتلتها، هذا لا يمكن نسيانه وأفضل ألا تكونى مجبرة على تذكره،

ولا حتى تتذكريه وأنا أمامك الآن، وهذا ما سوف يحدث لو إننى حكيته لك".

- "لكن كيف كان تفسير موتها؟ ألم يعرف أحد الحقيقة، هذا نعم يمكنك أن تحكيه لى، قالت لويسا، فجأة داخلنى بعض الخوف، كانت تسأل فقط ما هو ضرورى، وسوف تفعل نفس الشىء معى لو أنه كان يجب عليها أن تسألنى.

سمعت صوت الثلج من جديد، كان هذه المرة ناتجا عن رج الكأس، ربما كان رانز يفكر فى عقله المريض، أو أنه لم يعد كما كان منذ عشرات السنين، وربما كان يعيد ترتيب شعره الأبيض دون أن يلمسه، خصلاته بيضاء جدا كما لو كانت بودرة التلك. ربما كان شكله، كما رأيته فى يوم من الأيام، يبدو عليه فقر لحظى. ومنذ ذلك اليوم ابتعد عنى كثيرا.

- "نعم، يمكننى أن أحكيه لك، ولا فى هذا أخطأ فيلالوبوس"، قال أخيرا، "ربما كان من القلة الأحياء الذى يتذكر شيئا مما حدث، أيضا، بالطبع هناك، من يتذكرونه: الشقيقتان تريسا وخوانا لو أنهما كانتا أحياء، فقد كانت تعرفه وتتذكره خوانا وأمها. لكن مع سلفتى، سلفتى الاثنتين، لم أتعامل معهما منذ سنوات طويلة، منذ موت تريسا لم تكن لديهما الرغبة فى معرفة أى شىء عن خوانا ولا عنى، وإن لم تقولاه بشكل مباشر: خوان على سبيل المثال، لا أكاد أجزم أنه قد عرفه. فقط الأم، جدة خوان، كانت لديها رغبة فى التعامل معى كواحد من هذه العائلة، وأعتقد أنها فعلت هذا لتحمى ابنتها أكثر من أى شىء آخر، للسهر على خوانا وعدم تركها لزوجها، وزواجها الخطر منى، فيما أعتقد. وأنا لا أتهمها، لقد

تشكك الجميع فى أننى مذنب وأننى أخفيت شيئا عندما انتحرت تريسا، بينما لم يشك أحد عندما ماتت الأخرى، أترين، الحياة بذاتها لا ترتبط بالوقائع نفسها، ومنذ ذلك الحين عشت حياة عادية وحتى يمكننى أن أقول لطيفة، وبعد أى شىء يمكن مواصلة الحياة، وبعد أن تمكنت من تكوين ثروة أنجبت ابنا أشعر تجاهه بالامتنان، وأحببت خوانا ولم أجعلها تعسة، وعملت فى المجال الذى يشغلنى أكثر من غيره من الأعمال، وجمعت أصدقاء ولوحات. واستمتعت، كل هذا كان ممكنا لأن أحدا لم يعرف أى شىء، فقط تريسا. وما فعلته فقد وقع، وما لم أفعله لم يقع لو لم يجهله الجميع، وظل سرا، ترى أى حياة كان يمكننى أن أعيشها لو فشى السر، ربما ما كان يمكن أن تكون لى حياة، بعد كل هذا".

- "ما التفسير إذن؟ هل حدث حريق؟" ألحت لويسا، ولم تترك أبى ليتهرب كثيرا، أشعلت أنا سيجارة أخرى، من خلال بقايا السيجارة السابقة، شعرت بالعطش، وكنت أود أن أغسل أسنانى، لم أتمكن من المرور حتى الحمّام رغم إننى كنت فى بيتى، لقد كنت هنا بشكل سرى، كنت كما لو كان فمى مخدرا، ربما بفعل النوم، وربما من أثر السفر، وربما لأن فكىّ مغلقان من فترة، عندما انتبهت إلى ذلك تركت الضغط على فكى، للحظة.

- "نعم، كان حريقا" قال ببطء، "كنا نعيش فى فيلا صغيرة من طابقين، فى منطقة سكنية منفصلة بعض الشىء عن وسط المدينة، كانت هى معتادة على التدخين فى السرير قبيل النوم، وأنا أيضا، لقول الحقيقة، خرجت أنا لتناول العشاء مع بعض رجال الأعمال الإسبان الذين كان يجب أن أقوم بمرافقتهم، والسهر معهم. مفترض

أنها دخنت فى السرير وغلبها النعاس، وربما شربت بعض الشىء لتجبر نفسها على النعاس، كانت معتادة ذلك خلال الفترة الأخيرة.

ومن المحتمل أنها شربت كثيرا فى هذه الليلة، وطرف السيجارة أشعل الشراشف، يبدو أن الحريق كان بطيئا فى البداية لكنها لم تستيقظ أو أنها استيقظت متأخرة، وبعدها لم تكن لدينا رغبة فى معرفة إن كانت قد اختنقت قبل أن تحترق كاملة، والمعتاد فى هافانا النوم والنوافذ مغلقة، ماذا يهم، لم يدمر الحريق البيت بكامله، تدخل الجيران مبكرا، وأنا لم أعد إلا بعد أن تمكنوا من العثور علىّ وتنبيهى بعدها بوقت طويل، كنت قد سكرت مع رجال الأعمال، ولكن النار تمكنت من الإتيان على غرفة نومنا، وكل ملابسها وملابسى وكل هداياى إليها، لم يتم أى تحقيق أو تشريح، تم تسجيله على أنه حادث. كانت هى محترقة، ولم يهتم أحد بالبحث أكثر من ذلك، إذا كان هذا لم يهمنى أنا. أمها، حماتى، كانت منهارة ولم تفكر فى أى احتمالات أخرى"، لقد تحدث الآن بسرعة أكبر، كما لو كان متعجلا فى الانتهاء من الحكاية، أو الانتهاء من هذا الجزء منها. "ولم تكن أسرتها ذات نفوذ"، أضاف "كانت تنتمى إلى الطبقة المتوسطة فقط، مع بعض الثراء المالى، أرملة وابنتها، فيما أنا كانت لدى اتصالات جيدة، لو كنت أحتاجهم لو حدث تقص أو التحقيق حول اشتباه، ولكن لم يحدث، خاطرت بعض المخاطرة، وكانت سهلة، وكان هذا هو التفسير، ميتة سيئة"، قال رانز، "ميتة سيئة"، كرر، "كان قد مر على زواجنا عام واحد فقط".

- "ولكن ما هى الحقيقة؟"، قالت لويسا.

ـ "الحقيقة أنها كانت قد ماتت فعلا عندما خرجت لقضاء تلك السهرة"، أجاب أبى، عاد صوته إلى الضعف الشديد عندما قال هذه الجملة، إلى درجة إننى بذلت جهدا من جديد كما لو كان الباب مغلقا، كان الباب مواربا واضطررت إلى الاقتراب من الفتحة بأذنى حتى لا أفقد أى كلمة.

"كنا قد تشاجرنا عند حلول المساء"، قال، "عندما عدت أنا إلى البيت بعد القيام بعدة أعمال فى المدينة شغلتنى اليوم بكامله، مع رجال الأعمال هؤلاء، عدت مغموما، وهى كانت أسوأ، كان قد حدث شىء، لم نكن نتلامس منذ حوالى الشهرين، إما أنا أو هى. وكانت غاضبة وحانقة منذ أن تعرفت على تريسا، وبشكل خاص بعد ذهابها، ذهب عنى إحساسى بالعطف وأصبحت أحنق عليها، نحوها ("لقد تجنب ذكر اسمها"، فكرت، "لأنه لا يريد الآن أن يوجه لها كلمة توبيخ، ولا يمكنه أن يغضب أو ترك ميتة لا تعنى أحدا، كانت مهمة فقط لدى أمها، ماميتا ماميتا، التى لم تعرف كيف تحميها أو تسهر عليها، كذب حماتى"). كانت تنحو نحو الغضب الذى لا يمكنها السيطرة عليه، عندما نتحول عن حب شخص وهذا الشخص يواصل حبه لنا بكل ما يملك ولا يستسلم، كلنا نريد أن ينتهى كل شىء عندما نقرر أنه قد انتهى، كلما شعرت بالابتعاد عنها كانت أكثر التصاقا بى، وتصبح أكثر إلحاحا على البقاء إلى جانبى، ("لن تستطيع التخلى عنى"، فكرت، "وأنت تعال هنا، أو أنت لى، أو أنت مدين لى، أو أنت معى حتى الجحيم")، كنت قد أصبت بالإحباط وفقدت صبرى، كنت أود قطع تلك العلاقة والعودة إلى إسبانيا، ولكن أن أعود أنا وحدى، ("أنا لم أعد أثق فيك"، فكرت، "إما أن تخرجنى من هنا، أو أنا لم أكن فى إسبانيا، أو أنت ابن قحبة، إما

أن أحصل عليك أو أقتلك")، تشاجرنا، ليس شجارا معتادا بل عدة جمل غاضبة وشتائم ورد عليها وشتائم وردود عليها، ودخلت هى غرفة النوم، واستلقت على السرير فى الظلام وبكت، لم تغلق الباب حتى لا أسمعها تبكى، كانت تبكى لكى أسمعها. سمعت نشيجها من الصالون لبعض الوقت، بينما كنت أستهلك الوقت قبل خروجى واللقاء من جديد مع رجال الأعمال، فقد اتفقنا أن أرافقهم لقضاء السهرة، بعدها توقفت وسمعتها تدندن قليلا بشكل لا مبالٍ ("إنه مقدمة النعاس والتعبير عن التعب"، فكرت، "الغناء الأكثر تقطعا وتفرقا يمكن سماعه بالليل فى غرف نوم النساء السعيدات، واللاتى لم تصلن بعد أن تكن جدات أو أرامل أو عوانس، يكون أكثر حلاوة أو أكثر انتصارا"). بعدها صمتت، وعندما حانت الساعة دخلتُ أنا غرفة نومنا لأبدل ملابسى وشاهدتها نائمة، لقد نامت بعد البكاء، كانت تتصنع النوم أم لا، لا شىء يهد الجسد تعبا مثل الألم.

كانت الشرفة مفتوحة، كنت أسمع أصوات الجيران قادمة من بعيد مع أطفالهم قبل ساعة العشاء، بعد اقتراب الليل. فتحت الدولاب وغيرت قميصى، ألقيت بالقميص القذر على الكرسى، وكنت لا أزال أمسك القميص النظيف بين يدى عندما فكرت فيه. كنت قد فكرت فيه عدة مرات، لكنى فكرت فيه فى لحظتها حينئذ، هل تفهمين؟ فى تلك اللحظة. إنه أمر غريب كيف يمكن لتفكير أن يصل أحيانا بكل بوضوح وقوة ولا يفلح أى شىء فى الحيلولة بينى وبينه، يمكن التفكير فى احتماليته وعلى الفكر أن ينتهى، أن تنفذ ما تفكر فيه فيتحول إلى شىء تم تنفيذه، دون مرحلة انتقالية، دون تأمل، بلا ترتيب، ودون تقليبه كثيرا، دون معرفة جيدة إن كان قابلا

للتنفيذ، حينها تقع الأحداث وحدها ("إنها نفس الأفعال التى لا يعرف أحد أبدا إن كانت تريد التنفيذ"، فكرت، "كل الأفعال طوعية، الأفعال لا ترتبط بالكلام عندما تحمل تأثيرها، بل تمحوها وتبقى معزولة عما بعدها وما قبلها، إنها الأشيّاء الوحيدة التى لا رجعة عنها، مادام هناك إصرار على التقدم والتراجع مرات ومرات، التكرار والتأكيد على الكلمات، يمكن أن يتم تكذيبها وتتخلى عنا، ويمكن أن تكون تشويها أو نسيانا").

يجب أن يكون رانز ناظرا إلى لويسا بعينيه المتبخرتين، عينان سائلتان، أو ربما كانت نظرته مركزة على الأرض. "كانت هى هناك بملابسها الداخلية، كانت قد خلعت فستانها ودخلت السرير كمريضة، والشراشف كانت تغطيها حتى وسطها فقط، كانت قد شربت وحدها وصرخت فىّ، وبكت ودندنت ونامت. لم تكن مختلفة عن أى ميتة، لم تكن تختلف عن أى لوحة، فقط أنها فى اليوم التالى سوف تستيقظ هى وتستدير بوجهها الذى تدفنه حاليا فى المخدة. ("تدير الوجه ولا تظهر عنقها الجميل"، فكرت، "ربما مثل نيبيفيس، الشىء الوحيد الذى بقى دونها بعد مرور الزمن، تدير الوجه مع اختلاف أنها كانت خادمة شابة كانت تقدم الغناء المسموم(*)، أو ارتيميسا الرمادية، ولأن تلك الخادمة لن تستدير أبدا ولا سيدتها ستأخذ الكأس، ولن تحمله إلى شفتيها أبدا، والحارس ماتيو كان يمكنه أن يحرقهما معا بقداحته، وأيضا يحرق معهما الرأس الضبابى للعجوز الموجودة هناك فى الخلفية، إنها

(*) هنا عودة إلى الإشارة إلى اللوحة التى كان يحاول حارس المتحف ماتيو إحراقها لأنه لم يكن معجبا بها.

النار، أم حماة، إنه الحريق"). بوجهها المستدير تجاهى لن يسمح لى أن أذهب أو أبحث عن تريسا. التى لا تعرف هى عنها أى شىء على الإطلاق، ولن تعرف لماذا تموت، ولا حتى عرفت أنها كانت تموت.

أتذكر أننى جذبت حمالة الصدر نتيجة الوضع الذى كانت عليه، وفكرت للحظة أن أتركه حتى لا يترك علامة، كنت على وشك أن أفعل ذلك عندما فكرت فى ذلك ولم أفعل، فكرت فيه بسرعة، فكرت فيه دون أن أتخيله ولهذا فعلته ("التخيل يجنب الكثير من المآسى"، فكرت، "من يتنبأ بموته الشخصى من النادر أن ينتحر، ومن يتنبأ بموت الآخرين من النادر أن يقتل، من المفضل أن يكون القتل أو الانتحار بالتفكير، لأنه لا يترك تأثيرا ولا حتى آثارا، وحتى بالذراع البعيدة التى تمسك به، كل شىء مسألة مسافة وزمن، عندما تكون الذراع بعيدة بعض الشىء فإن السكين تضرب الهواء بدلاً من أن تضرب الصدر، ولا تنغرس فى اللحم الأسمر أو الأبيض بل تخترق المسافة ولا يحدث أى شىء. ومسارها لا يُقاس ولا يُسجل ويتم تجاهله، ولا يمكن عقاب النية، والمحاولات الفاشلة كثيرا ما يتم التغاضى عنها، وهى حتى مرفوضة من قبل من يفكرون فيها لأن كل شىء يبقى على حاله بعدها، فالهواء هو نفسه، ولا تنفتح البشرة، ولا اللحم يغير وضعه ولا شىء يُخدش. المخدة المضغوطة تحت الوجه لا تؤذى، وبعدها كل شىء يصبح كالسابق، لأن الضربة التى لا تُوجه إلى شخص محدد والاختناق بلا فم ليسا كافيين لتجنب الأشياء ولا العلاقات، ولا حتى التكرار، ولا الإلحاح، ولا حتى التنفيذ الفاشل ولا التهديد"). قتلتها وهى نائمة، بينما كانت تولينى ظهرها (لقد قتل رانز الحلم"، فكرت، الحلم البرىء، ومع ذلك فإن الصدر الحنون لإنسانة أخرى هو الذى يحمينا، نشعر

بالحماية فقط عندما نشعر أن إنسانا ما خلفنا، إنسانا ربما لا نراه ويغطى ظهرنا بصدره الذى يكون على وشك ملامستنا وينتهى دائما بلمسنا وفى منتصف الليل، وعند الاستيقاظ فزعا بسبب كابوس أو نفقد القدرة على النعاس، حين نصاب بالحمى أو نعتقد أننا وحيدون ومهجورون فى الظلام، ما علينا سوى أن نستدير ولنرى حينها، أمامنا، الوجه الذى يحمينا، ويتركنا نقبله لأن هذا الوجه قابل للتقبيل) الأنف والفم والرائحة والجبهة والوجنات والأذنان، إنه كل الوجه (أو ربما ما بين النوم والاستيقاظ، يضع يدا على كتفنا للتخفيف عنا، أو ليسندنا. أو ليمسك بنا").

لن أحكى لك كيف. اتركينى فأنا لن أحكى هذا لك ("اذهبى"، فكرت، "أو أنا سأقتلك، يفكر أبى للحظة وفى الوقت نفسه يقوم بالفعل، ولكن ربما يجب التوقف للحظة قبل التفكير إن كانت السكاكين الموجودة فى البيت تقطع كما يجب، ومسنونة، ينظر إلى حمالات الصدر التى يمسك بها وبعدها يرفع الرأس ليتذكر ويفكر فى الشفرات التى لا تضرب الهواء هذه المرة ولا حتى الصدر، بل تطعن الظهر، كله متعلق بالمسافة والزمن، أو ربما يده الكبيرة التى ترتاح على العنق الجميل وتضغط وتهشم، وحقيقة أنه تحت المخدة لا يوجد أى وجه، بل موجود فى الأعلى، الوجه الذى لن يستدير بعدها أبدا، كانت الأقدام تفرفص على السرير، الأقدام العارية، وربما كانت نظيفة جدا لأنها كانت فى بيتها أو يمكن أن تصل على الفور فى مواعيدنا الدائمة، بما إننا كنا متزوجين، فإن ذلك الذى يمكنه أن يراهما أو يداعبهما، ذلك الذى انتظرته كثيرا، ربما يرفع ذراعيه وعند رفعها سترى إبطها حديث الحلاقة، بالنسبة للزوج الذى يعود ولا يلمسها مطلقا، ولكن لا يجب الانزعاج كثيرا بأى

تكسيرة فى التنورة لأنها نزعتها وموجودة على الكرسى الذى ترك عليه أبى أيضا قميصه القذر، ويرتدى النظيف دون أن يحكم أزراره، سوف تحترق معها، القميص القذر والتنورة المكوية وربما "جلوريا"، أو ربما "مريم" أو ربما "نييفيس"، واحتمالا "برتا" أو "لويسا"، إنها تنجح فى الاستدارة وتواجهه فى آخر زاوية لصدر رانز الكثيف الشعر، أبى، شعره كثيف مثل بيل ومثل شعرى، ذلك المثلث الموجود على الصدر الذى يحمينا ويدعمنا، ربما ألصقه بجلوريا بشعرها الطويل المهوش بسبب النعاس أو الخوف أو الألم، وبعض الخصلات المتفرقة تتعارض على الجبهة كما لو كانت تجاعيد نحيلة قادمة من المستقبل لتلقى علينا بظلالها للحظة، للحظة الأخيرة، لأن هذا المستقبل لن يكون، بالنسبة لها، لا مستقبل محدد ولا مستقبل مجرد. وبالمقابل فى تلك اللحظة الأخيرة، فإن اللحم يتغير أو البشرة تتفتح أو شىء ينجرح").

- "لا تحكه لى إن كنت لا تريد"، قالت لويسا. "لا تحكيه لى إن كنت لا تريد"، كررت لويسا، والآن بدا لى أنه من غير المحتمل أن يرويه.

- "لا، لا لن أحكيه لك، لا أريد أن أحكيه لك. بعدها أحكمت أزرار قميصى ونظرت من الشرفة، لم يكن هناك أحد، أغلقتها، ذهبت إلى الدولاب حيث كانت أقمشتها الفواحة والجامدة، وضعت ربطة عنق وارتديت الجاكيت، كان الوقت متأخرا بالنسبة لمواعيدى، أشعلت سيجارة، لم أكن أفهم ما فعلته لكنى كنت أعرف أننى فعلته، إنها أشياء مختلفة أحيانا، وحتى الآن لم أفهم ما فعلته وأعرف هذا، كما فى تلك اللحظة، وإن لم أكن أنا قد فعلت هذا فلا أحد فعل هذا، وهى لم توجد أبدا من قبل، لقد مر زمن طويل والذاكرة

تتعب، تماما كالبصر، جلست على حافة السرير، كنت متعرقا ومتعبا جدا، كانت تؤلمنى عيناى كما لو لم أكن قد نمت لعدة ليال، أتذكر هذا، ألم العينين، وحينها فكرت فيه وفعلته، فكرت من جديد وفعلته فى الوقت نفسه، تركت السيجارة المشتعلة على الشراشف ونظرت إليها كيف كانت، قطعت الجزء المشتعل دون أن أطفئه، وأشعلت سيجارة أخرى، أخذت نفسين أو ثلاثة وتركتها على الشراشف، وفعلت الأمر نفسه مع سيجارة ثالثة، كانت هناك ثلاث شعلات متقدة، ست شعلات، كانت الشراشف تحترق، ورأيت كيف كانت تصنع فتحات مستديرة من الضوء، (كنت أنظر إليها طوال عدة ثوان"، فكرت، "كيف كانت تتنامى وتبدأ فى التوسع الدائرى، كانت كلطخة سوداء فى الوقت نفسه وتحترق تأكل الشراشف")، لا أعرف"، توقف أبى فجأة، كما لو لم يكن قد أنهى الجملة الأخيرة مكتملة، لا يُسمع أى شىء، فقط تنفسه المتسارع والقوى خلال دقيقة، تنفس شيخ، وبعدها أضاف: "أغلقت باب غرفة النوم وخرجت وهبطت إلى الشارع، وقبل أن أصعد السيارة عدت إلى النظر نحو البيت من عند الناصية، كل شىء كان عاديا، وكان الوقت ليلا، كان الليل قد هبط فجأة ولم يكن هناك دخان يخرج من البيت ("ولن يراها أحد من الأعلى"، فكرت، "من الشرفة أو النافذة، حتى لو توقف أمامهما كما فعلت مريم عندما كانت تنتظر، أو أرغنيو قديم وغجرية ذات ضفيرة لتعمل، أو مثل بيل الأول وأنا بعده أمام بيت برتا كلانا ينتظر أن يذهب الآخر، أو مثل كوستاردوى فى ليلة ممطرة تحت شرفتى") لكن هذا حدث منذ زمن بعيد"، أضاف رانز بظل صوته المعروف عنه، الأكثر اعتيادا عليه، خيل لى أنى سمعت صوت قداحة ربما أخذ زيتونة وأشعلت لويسا سيجارة. "وأيضا، لا يتحدثون عن هذه الأشياء".

ظل الصمت ممتدا، لويسا لا تقول شيئا الآن، وأمكننى تخيل أن رانز كان ينتظر ساهرا، بيديه المتشابكة، ربما كان جالسا على الأريكة، أو منحنيا على الكرسى العثمانى، أو فى الكرسى الرمادى الجديد المريح جدا، كان قد ساعد هو شخصيا فى اختياره، محتمل. وليس فى المجلس، لا أعتقد، وليس فى مجلس جدتى الهافانية التى كانت ولا شك تفكر فى ابنتيها، الحية والميتة، كلاهما متزوجة، وربما تفكر فى الابنة الميتة المتزوجة لأم كوبية أخرى عندما كانت تدندن "ماميتا، ماميتا، ين ين ين"، خلال طفولتى لتخيفنى وهو ما بدا لى قليل المكوث ومضحك، خوف أنثوى فقط، لبنات وأمهات وزوجات وحموات وجدات وخادمات، ربما كان رانز يخشى أن لويسا، زوجة ابنه، تشير إليه بإشارة تعنى "اذهب"، أو حسنا "ابتعد عن هنا"، ولكن ما قالته لويسا فى النهاية كان هذا:

- "أرى أن الوقت قد حان لنفكر فى العشاء، إن كنت تشعر بالجوع".

توقف التنفس القوى المتسارع لرانز، وسمعته يجيب لما حكمتُ أنه ارتياح:

- "لست متأكدا من أننى أشعر بالجوع. لو توافقين يمكننا أن نتنزه باتجاه رستوران الكالدى وعندما نصل إلى هناك ندخل لو كنا نرغب فى ذلك، وإلا فإننى أرافقك خلال العودة وكل منا إلى بيته، وأرجو ألا يذهب النوم عن عيوننا الليلة".

سمعت كيف وقفا وبدأت لويسا ترتب بعض الأشياء وتحملها لتضعها على الطاولة المنخفضة، إحدى قطع الأساس القليلة التى

اشتريناها معا. سمعت خطواتها المتجهة إلى المطبخ وخلال عودتها وفكرت: "الآن يجب أن تدخل إلى هنا، لتبدل ملابسها أو تأخذ شيئا. أنا متشوق لرؤيتها. عندما يذهبان يمكنني غسل أسناني وشرب بعض الماء، وربما بقى بعض الزيتون".

أبى، لا شك أنه كان مرتديا المعطف الآن أو يلقيه على كتفيه، وصل إلى المدخل وفتح الباب المؤدى إلى الشارع.

- "هل أنتِ جاهزة"، سأل لويسا.

- "لحظة"، أجابت هى."سأذهب لإحضار منديل".

سمعت صدى كعب حذائها يقترب، كنت أعرف خطواتها جيدا، كانت ترن على الخشب بشكل أكثر رقة من الحذاء المعدنى لبيل على الرخام أو حذاء كوستاردوى فى كل مكان وزمان. هذه الخطوات لم تكن تعرج، ولا حتى عندما تكون أقدامها عارية، لا تصعد درجات السلم بثقل بحثا عن خرطوش قلم الحبر المجهول، ولا حتى تنفرس أبدا كالشفرات، ولا تسحب الكعوب الحادة بسرعة وتوتر، لا يمكن أن تكون أبدا كالبلطة، لو كان الأمر بيدى، أو هذا ما آمله، شاهدت يدها على مقبض بابى، كانت تستعد للدخول، كنت أراها هناك، لم أشاهدها منذ ثلاثة أسابيع مضت، وتقريبا ثمانية أسابيع مرت دون أن أراها هنا، فى بيتنا وغرفة نومنا والمخدة، ولكن قبل أن تدفع الباب قال لها رانز عبر المدخل، إنه سيخرج فى طلب المصعد وكان المعطف على كتفيه:

- "خوان يصل غدا. هل تريد حضرتك أن أحكى له أم لا أقول له أى شىء".

إجابة رانز كانت سريعة الوصول، ولكن الكلمات خرجت بطيئة ومتعبة، بصوت صدئ وخشن كما لو كانت عبر حاجز:

- "أشكرك جدا"، قال "أشكرك جدا أن توفرى على التفكير فى هذا، أنا لا أعرف ما هو الأفضل. فكرى فيه نيابة عنى، ما رأيك.."

"احترس" قالت لويسا، ودفعت الباب. لم تشعل الضوء إلا بعد أن أغلقته، ربما لاحظت على الفور الدخان الكثيف لسجائرى. أنا لم أنهض واقفا، ولم نقبل بعضنا البعض، كنا كما لو لم نكن قد شاهدنا بعضنا، أنا لم أكن قد وصلت بعد، نظرت إلىّ بطرف عينيها وابتسمت لى بطرف عينيها، فتحت دولابنا وأخذت منديلا مرسوما عليه حيوانات كنت قد أحضرته أنا فى رحلة سابقة، حين لم نكن قد تزوجنا بعد، كانت تفوح منه رائحة طيبة، عطر جديد، لم يكن من ماركة "تراساردى"، الذى كنت قد أهديته لها. كان يبدو على وجهها النعاس، كما لو أن عينيها تؤلمانها، عينا رانز، كانت جميلة. وضعت المنديل حول عنقها وقالت لى:

- ها أنت ترى".

وانتبهت على الفور إلى أن هذه الجملة كانت الجملة التى قالتها لى برتا عندما ظهرت من خلفى مرتدية معطفا منزليا، وشاهدتها خلف ظهرى منعكسة على الزجاج القاتم بعد أن أنهيت مشاهدة الفيديو الذى كانت قد شاهدته هى عدة مرات، ولا تزال تواصل مشاهدته، وربما كانت تشاهده اليوم. لهذا، افتراضا، أنا أجبتها الآن بنفس الجملة. نهضت واقفا، وضعت يدى على كتف لويسا.

- ها أنا أرى - قلت لها.

والآن خف انزعاجى ولم تعد أحاسيسى كارثية جدا، ورغم أننى مازلت قادرا على التفكير فى المستقبل المجرد كالسابق، أعود للتفكير بشكل مشوش، وأعود للخطأ بالتفكير على افتراض أن ما يأتى لا يمكن أن يأتى، وأسأل نفسى دون تحديد كبير أو اهتمام بما سيقع لنا فى الغد نفسه أو خلال خمسة أو أربعين عاما، وبما لا نتوقع. أعرف، أو أعتقد، أن ما حدث أو ما يحدث بين لويسا وأنا لن يعرفه أحد، ربما حتى زمن طويل، أو ربما لن أعرفه أنا بل سيعرفه ورثتى، هذا إذا كان لنا بعضهم، أو يعرفه شخص مجهول وغريب، وربما لا يكون موجودا فى هذا العالم، لأن الميلاد مرتبط بالحركة، بإشارة ما، بجملة منطوقة فى الطرف الآخر من هذا العالم نفسه. أن تسأل وتصمت، كل شىء محتمل، الصمت مثل ما فعلت خوانا اجيلار أو السؤال والإجبار كما فعلت شقيقتها تريسا، أو عدم فعل لا هذا ولا ذاك، مثل تلك المرأة الأولى التى أطلقتُ عليها اسم جلوريا والتى يبدو أنه لا وجود لها على الإطلاق، سوى لأمها المزواجة، وحماة، كانت قد ماتت فى كوبا حزنا، أرملة بلا بنات، ابتلعها الثعبان، وليس فى كل اللغات التى أعرفها كلمة تتعارض مع كلمة "يتيم". والتى ستنتهى من الوجود قريبا جدا، على

أى حال، عندما تحين ساعة رانز، ونكون لويسا وأنا قادرين على تذكر شىء أكثر مما حدث لنا وما فعلناه نحن، وليس ما حكوه لنا أو حدث للآخرين (عندما لا تكون أسبابنا ناصعة البياض).

أحيانا يكون لدىّ إحساس أنه لا شىء مما يحدث يحدث بالفعل، وأن كل هذا وقع وفى الوقت نفسه لم يقع، لأنه لا شىء يحدث دون انقطاع، لا شىء ينمو أو يبقى أو يُتذكر بشكل متواصل، حتى الأشياء الأكثر روتينية للوجود تمحو وتنكر نفسها فى تكرارها الظاهرى الذى لا شىء يكون شيئا، ولا أحد يكون لا أحد غير ما كانه من قبل، وعجلة العالم الضعيفة مدفوعة بفاقدى ذاكرة يسمعون ويرون ويعرفون ما لا يُقال وما لا مكان له وما لا يمكن الحصول عليه ولا الغير قابل للشراء.

وأحيانا يكون لدىّ إحساس أن ما يُعطى مماثلٌ تماما لما نأخذه لذاته، وما نجربه مماثل تماما لما نتذوقه، ومع ذلك تذهب منا الحياة ونفنى حياتنا فى الاختيار والرفض والانتقاء، فى رسم خط يفصل تلك الأشياء التى هى مماثلة تماما ولا تصنع من تاريخنا تاريخا وحيدا نتذكره ويمكن حكيه، سواء فى اللحظة نفسها أم بعد زمن، وهكذا تُمحى أو تتبخر، وإلغاء ما نحاول أن نكونه وما نفعله، نركز كل ذكائنا وحواسنا وجهودنا لإدراك ما سيكون متوازنا، أو هو أصبح كذلك، ولهذا نحن مفعمون بالندم والفرص الضائعة، بالخضوع والتأكيد والفرصة المنتهزة، بينما الحقيقة هى لا شىء مؤكد، وكل شىء يسير إلى الفناء. لا يوجد شىء متكامل مطلقا، وتُرى هل كان هناك شىء فى يوم من الأيام، فقط أيضا أنه حقيقى وأنه لا شىء يمر عليه الزمن وكل شىء باق هناك، فى انتظار من يعيده، كما قالت لويسا.

أقوم الآن بتقييم أعمال جديدة، تماما كما تفعل هى، يبدو أن كلانا تعبنا من السفر لثمانية أسابيع، وحتى لأقل من هذا، إنها سفريات متعبة جدا وعائدها النفسى قليل. لن تكون لدىّ مشكلة، بإجادتى لغاتى الأربع وشيئًا من اللغة الكتالونية، ومازلت أواصل تعلمها لأبدو أفضل، وهى إمكانية تدفعنى الحديث تليفونيا مع برشلونة كثيرا، وهناك كثير من الناس يرون أن لدىّ علاقات مهمة فى الهيئات الدولية، وأننى أتعامل مع مسئولين كبار، ولن أخدعهم رغم أنهم يخطئون. ولكن لا أحب كثيرا فكرة البقاء فى مدريد طوال الوقت، أدخل وأخرج مع لويسا بدلا من الذهاب لرؤيتها أو استقبالها، فى غرف ومصاعد ومدخل نملكه نحن الاثنان، ومخدة مشتركة (لمجرد القول لأنه عادة ما تكون هناك مخدتان) والتى نجد أنفسنا أحيانا مجبرين على النزاع خلال النوم ومنه، تماما كالمريض، نسير فى اتجاه الاعتياد على مشاهدة العالم، دون أن تتردد أقدامنا على البلاط المبلل، ولا نغير الفكرة، ولا يمكن الندم حتى الاختيار.

والآن لا شك أنه عند الخروج من السينما أو بعد العشاء نذهب إلى المكان نفسه، فى اتجاه وحيد عبر شوارع شبه خالية ومبللة دائما، سواء قبلنا أم لا هذه الليلة، أو ربما كان فى ليلة أمس عندما لم ترغب هى. بدا هذا لى لحظة، لكننا واصلنا المسير، من المفترض، بكل هذا، بالسير نحو هذا المكان نفسه بخطوات مشتركة (ترن غير متراتبة لأن الأقدام التى تسير أربعة)، يفكر كل منا فى الآخر، بشكل أساسى، على الأقل هذا ما أفعله، وأعتقد أنه، مع كل هذا، لن نبدله بأى شىء فى هذا العالم، ولم نطالب بالتخلى المتبادل أو القضاء المبرم لما كان عليه كل واحد منا وما نحن فيه

الآن، فقط بدلنا من وضعنا، وهذا لا يبدو الآن خطيرا جدا، أو غير محسوب: يمكننى القول إننا ذهبنا لشراء بيانو أو سيكون لنا ابن أو لدينا قط.

تحدثت قبل عدة أيام مع برتا، هى من هاتفتنى، وعندما تتصل هذا يعنى أنها حزينة قليلا أو تشعر بالوحدة، والآن لن يكون سهلا أن أمضى بعض الوقت فى بيتها لو أننى تركت عملى كلية فى الترجمة الفورية، وعلىّ أن أحتفظ بالحكايات والنكات والوقائع التى كنت دائما ما أفكر فى حكيها لها لوقت أطول، سواء كانت حزينة أو مسلية، أو أن أكتب لها رسائل، ونادرا ما فعلنا هذا.

سألتها عن "بيل"، غابت ثوان قبل أن تتذكر أو تتبين شخصيته، حكايته مضى عليها وقت طويل، وكان قد غادر نيويورك، فيما تعتقد، ولم يعد بعد. "آه لقد تذكرت الآن"، قالت، "ربما يظهر فى أى يوم من الأيام المقبلة". فهمت أنها لم تعد تعرف أى شىء عنه منذ أن شاهدناه يستقل التاكسى، أنا من الشارع، وهى من النافذة. ولكن من المحتمل أن يظهر، وهى لديها أسبابها، لو كان جييرمو. ولا تزال برتا تواصل اتصالاتها عبر الإعلانات، ولم تتراجع بعد ولم تتخل عن هدفها، قالت لى إنها مهتمة الآن بشخصين لم تتعرف عليهما بعد. "خ اتش"، و"ترومان" حروفهما الأولية والاسم المستعار. تشجعت عندما تحدثت عنهما، كانت تبدو نبرة صوتها عطوفة كما هى عادة النساء عندما تكون لديهن أحلام وهذا الحلم لا نقدمه نحن ولا يهمنا بل فقط ينقلنه إلينا، ولكن بينما كنا نتحدث تخيلتها فى لحظة من تلك اللحظات التى يبدو فيها هلال وجنتها اليمنى، إثر جرحها، يزداد قتامة حتى يتحول إلى اللون الأزرق، أو الموف، ويجعلنى أعتقد أنه توجد لطخة على وجهها. ربما، فكرت (وفكرت

فيه كنوع من تحاشيه)، سوف يأتى يوم تتخلى فيه عن محاولاتها، وتترك إصرارها، ويتحول الهلال إلى هذين اللونين الدائمين. بربما هذا هو اسمها، وبدايات أحرفها "بى إى إيه".

لم أعد إلى رؤية كوستاردوى حتى هذه اللحظة، أعرف أننى سألتقى به من وقت لآخر، وبشكل دائم على ما أعتقد، من خلال أبى وحتى عندما لا يكون هو موجودا، هناك حضور يرافقنا بشكل دائم، منذ الطفولة ولا يغيب عنا أبدا، سوف يظل موجها للعالم، وسوف يظل منحنيا ويحكى حكايات قليلة التصديق يقول إنه عاشها. ولكنى أفضل عدم التفكير فيه، فأنا أفكر أحيانا دون رغبة فى رؤيته.

لم أتحدث مع رانز حتى الآن عما سمعته فى تلك الليلة، قبل فترة فى الواقع، ورغم أن تلك الليلة بدأت تبتعد بسرعة كبيرة فى زمن منحدر الجريان، ومع ذلك، فإن مثل كل الأزمنة جميعا، يبدو مذاقه واحدا، حياة واحدة غير مكتملة أو ربما منتصفها، لكل واحد منا، حياتى الخاصة، أو حياة لويسا. من المحتمل ألا نتحدث مطلقا، ولا يجب أن يعرف رانز أننى أعرف، ولا أعتقد أنه سأل لويسا إن أخيرا قد حكت لى أى شىء، دائما ما يكون هناك شخص لا يعرف شيئا أو لا يريد أن يعرف، ونبقى هكذا إلى الأبد. وفيما أرى فإن العلاقة بينهما تبدو كما كانت عليه أو شبيهة بها، كما لو أن تلك الليلة لم تكن أو لا تحتسب، ومن الأفضل هكذا، وتظل بينهما مودة واحتراما، وهى تحب الاستماع إليه.

الجديد أننى أراه الآن أكثر شيخوخة وأقل سخرية، شيخا تقريبا، وهو ما لم يكنه أبدا، يسير بتوتر أكثر، وعيناه أقل حركة

ويقظة، وأقل عاطفية عندما تنظران إلىّ أو أنظر إليها، أصبح قليل الترحيب بالذين يوجدون أمامه، وفمه الأنثوى يشبه فمى وبدأ فى الارتخاء بسبب التجاعيد، وحواجبه ليست لديها القوة لتدفق كثيرا، وأحيانا يضع ذراعيه فى أكمام المعطف، أنا على يقين أنه فى الشتاء المقبل سيضعهما فى المعطف بشكل دائم، نلتقى كثيرا، وأنا أعرف الآن أننى سأبقى فى مدريد أكثر سكونا، وبدأت فى الاستعداد لإجازة طويلة، نخرج فى معظم الأيام لتناول الغداء مع لويسا أو بدونها. إلى لاتارينيرا أو إلى الانتشا أو إلى الدورادا وإلى الكالدى، وأيضا إلى مطعم نيكولاس، ورجوانتينو وفورتونى والمقهى ولا فوندا، إنه يحب تبديل المطاعم. ولا يزال يواصل حكى حكايات معروفة أو مجهولة عن حياته فى العمل، وعن سنوات شيخوخته ليبدو أمامى نافعا ومسليا أو أنه قادر على السفر لزيارتهم، والرجال الأثرياء يريدون استقباله، ويطلبون أن ننتقل لرؤية صديق ما.

وفكرت فيما حكاه رانز للويسا وأنا سمعته فى الخفاء، كنت أدخن جالسا إلى جانب السرير، ورغم أننى سأنساه، فأنا مازلت لم أنس، وعندما أنظر الآن إلى صورة خالتى تريسا الصغيرة التى يحتفظ بها رانز فى بيته، أنظر إليها باهتمام أكثر مما كنت أنظر به إليها من قبل، خلال طفولتى ومراهقتى. ربما أنظر إليها كمن ينظر إلى صورة فوتوغرافية من تلك التى لا ترانا ولا نراها، سواء من الغضب أو من التعب، فالصور لا تتعدى أن تكون ما تؤديه من معنى، الصور دائما ما تكون ساكنة فى يوم واحد لا يتذكره أحد. عندما تم التقاطها، كما كن ينظرن إلى جدتى والى أمى أحيانا بعينين ثابتتين وابتسامة بلهاء بعد انقطاع ضحكاتهن، والنظرة تائهة، والعينان جافتان وبلا رموش، كما لو كانت لشخص استيقظ للتو ولا يزال لا

يفهم ما حوله. ربما كانت جلوريا تنظر على هذا النحو فى لحظاتها الأخيرة، وهى ليس لها صورة، ولم تستطع أن تدير وجهها، من المؤكد دون تأمل، ولا حتى التذكر، مع شعور بالألم والخوف المستعاد، الألم والخوف لا ينتهيان بسرعة، بالنظر إلى الوجوه ورؤيتها تنمو ولكن لا تشيخ، وجوه مليئة تحولت إلى مسطحة، وجوه متحركة سرعان ما اعتدنا رؤيتها هادئة، ليست هى ولكن صورتهم التى تحل محلهم، وبما أننى أستعد للنظر إلى أبى، وكما سوف تعتاد لويسا فى يوم من الأيام النظر إلى صورتى عندما لا يكون أمامى ولا حتى نصف حياتها، وتكون حياتى قد انتهت. وحتى لو لم يعرف نظام الموتى ولا نظام الأحياء، فمن يشعر أولا بالحسرة أو يشعر أولا بالخوف، لا يهم كثيرا، كل شىء يعتبر ماضيا ولم يحدث، إضافة إلى أنه لا يُعرف عنه أى شىء، ما سمعته فى تلك الليلة من شفتى رانز لا يبدو لى عرضيا ولا بدا عبقريا ولم يتسبب فى الإضحاك، ولكن نعم بدا لى ماضيا. كله وحتى الذى مازال يجرى.

لا أعتقد أننى سوف أعود لمعرفة أى شىء عن مريم، إلا إذا استطاعت هى إن تمكنوا من إخراجها من كوبا، والذى يوجد لإتمام هذا الأمر عدة خطط، وأن تنجح هذه الخطط فى وقت قريب، وربما تكون الصدفة مساعدة على ذلك، أعتقد أنه يمكننى أن أتعرف عليها فى أى مكان، حتى لو لم تكن مرتدية القميص الأصفر ذا الفتحة المستديرة ولا تنورتها الضيقة وكعب حذائها العالى الذى ينغرس فى الأرض، أو لا تحمل حقيبة يدها المعلقة فى ذراعها، وليست معلقة على كتفها، كما هى العادة اليوم، حقيبة اليد التى

تفقدها توازنها، سأتعرف عليها حتى لو كانت تسير الآن برشاقة ولا يخرج كعبها عن الحذاء أو لا تصدر عنها الإشارات التى تعنى "أنت، تعال هنا" أو "أنت لى"، أو "سأقتلك".

وأن التقى بجيبرمو فى يوم من الأيام لن يكون صعبا، فى مدريد، للأسف، فإن كل الناس تتعارف بسرعة وإن كان فى وقت متأخر، حتى القادمين من الخارج ويبقون، ولكنه هو لا يمكننى التعرف عليه لأننى لم أشاهد وجهه، فالصوت والذراعان لا معنى لهما للتعرف على أى شخص. فى إحدى الليالى، قبل أن أنام، خطر لى أن أفكر فى الثلاثة، فى مريم وفيه هو وزوجته المريضة، مريم بعيدة جدا أما الاثنان فلا أحد يعرف إن كانا فى مدينتى نفسها، أو فى شارعى نفسه، أو فى بيتنا. يصبح مستحيلا أن تتخيل وجها لشخص سمعت صوته ولهذا فإننى أضع له وجه بيل فى بعض الأحيان، وجهه ذا الشارب لأنه الأكثر احتمالا لأنه ربما يكون وجهه، وهو أيضا يمكن أن ألتقى به فى هذه المدينة المتحركة، وفى أحيان أخرى أتخيله مثل الممثل شين كونرى، بطل من أبطال طفولتى وكثيرا ما يكون له شارب فى السينما، يا له من ممثل عظيم، وأيضا يختلط مع الوجه العبثى لكوستاردوى، الذى كثيرا ما يترك شاربه ينمو أو يحلقه بالتوالى، أو حتى وجه رانز نفسه، الذى كان يتفاخر بشاربه فى شبابه، لا شك خلال فترة إقامته فى هافانا وفيما بعدها، وعندما تزوج فى النهاية من تريسا اجيليرا وذهب برفقتها فى رحلة شهر العسل، أو وجهى أنا أيضا، وجهى حليق الشارب، ولم يكن به شارب من قبل، ولكن ربما فى يوم من الأيام أدعه ينمو، عندما أشيخ حتى أتجنب تشبهى بأبى كما هو الحال الآن، وهذا ما سأتذكره دائما.

فى ليالٍ كثيرة أشعر بنهد لويسا يحف بظهرى فى السرير، ونحن مستيقظون أو نحن نائمون، هى تحاول أن تقترب منى. ستكون هناك دائما، وهو المنتظر وهذه هى الفكرة، وإن كانت تنقص الكثير من السنوات لاستكمال هذا الذى أفكر به أحيانا، إن لم نتمكن من تغيير كل شىء على طول الزمن وطوال المستقبل المجرد، وهذا هو المهم لأن الحاضر لا يمكن تغيير لونه ولا هضمه، وهذا ما يبدو لى الآن تعاسة حقيقية، أرغب فى هذه اللحظات ألا يتغير أى شىء على الإطلاق، ولكن لا أستطيع أن أستبعد أن شخصا، امرأة لم أعرفها بعد، تأتى لترانى فى إحدى الأمسيات غاضبة منى، أو سعيدة لأنها أخيرا عثرت علىّ، ومع ذلك لا تقول لى أى شىء وفقط نتطلع فى بعضنا، أو نتعانق واقفين فى صمت، ونصل حتى السرير لنتعرى، وربما تكتفى هى بخلع حذائها، مبينة لى قدميها اللتين غسلتهما باهتمام قبل أن تخرج من البيت لأننى يمكن أن أراهما وأداعبهما والآن تصبحان متعبتين وتشعران بالألم لأنها انتظرتنى كثيرا (قدم إحداهما ملطخة بالبلاط).

من المحتمل أن تكون تلك المرأة ذاهبة إلى الحمّام وتحبس نفسها فيه لعدة دقائق دون أن تقول أى شىء، لتراقب نفسها وتتزين وتحاول أن تمحو عن وجهها التعبيرات المتراكمة من الغضب والتعب والارتياح، متسائلة ما هو الأفضل لها بعد الدخول فى عراك مع الذى جعلها تنتظر لفترة طويلة، وينتظر هو الآن أن تخرج، وتتعارك معى، ربما لهذا أجعلها تنتظرنى هى أكثر من اللازم، الباب المغلق للحمّام، أم أن هذا لم يكن فى نيتها، أن تبكى فى الخفاء، وتخفف من بكائها بالجلوس على قاعدة الحمّام، أو على حافة البانيو بعد أن تنزع عدساتها اللاصقة إن كانت تحملها، وتجفف عينيها بمنديل

حتى تهدأ، وتغسل وجهها، وتتزين وتكون فى أحسن حال للخروج من جديد مدعية السعادة.

ولا أنفى أنه ربما تكون تلك المرأة هى لويسا وأننى لست الرجل فى ذلك اليوم، وأن هذا الرجل يطالبها بالموت ويقول لها: "إما هو أو أنا"، و"وحينها أكون أنا". وفى هذه الحالة أكون سعيدا أن تخرج على الأقل من الحمّام، بدلا من أن تبقى مستلقية على الأرض الباردة وبصدر وقلب ناصعى البياض، والتنورة المكرمشة وأيضا بوجنتين مبللتين بمزيج من الدموع والعرق والماء، لأن الماء المنتشر من الصنبور كان يضرب فى رخامة الحوض وسقطت قطرات منه على الجسد المسجى، قطرات مثل قطرات المطر التى تتساقط من الإفريز بعد العاصفة، ودائما فى النقطة نفسها من الأرض أو الجلد أو اللحم الذى ينفتح حتى ينفذ ويحدث حفرة عميقة أو ربما مجرى، وليس كقطرة الصنبور التى تختفى فى البلاعة دون أن تترك أى أثر على الحوض، وليست كقطرة الدم التى تتقطع على الفور بما يوجد فى اليد، ربطة شاش أو رباط طبى أو منشفة، وفى أحيان أخرى ماء، أو من نفس يد من ينزف دما إن كان ما زال بكامل وعيه ولم يجرح نفسه، اليد التى تذهب باتجاه بطنه أو صدره أو ظهره تحجب الحفرة. من جرح نفسه، بالمقابل، لا يد له، ويحتاج يدا أخرى تدعمه. أنا أدعمه.

كانت لويسا تدندن أحيانا فى الحمّام، بينما أنا أراقبها وهى تتزين معتمدة على مفصل باب ليس باب غرفة نومنا، كطفل حرون أو مريض ينظر إلى العالم من مخدته أو دون عبور الممر، ومن هناك أستمع إلى ذلك الغناء الأنثوى الصادر من بين الأسنان والذى لا يُقال لُيسمع أو يُؤدى ولا يُترجم، تلك الدندنة التى لا قيمة لها،

الدندنة العفوية والتى لا توجه إلى أحد ليسمعها ويتعلمها ولا ينسى. هذا الغناء الصادر رغم كل شىء ولا يصمت ولا ينمحى بعد قوله، عندما يتبعه الصمت بعد قوله، عندما يتبعه الصمت عندما يتبعه صمت حياة الكبار، أو ربما يكون رجاليا.

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت».. للكاتبة الفرنسية «مارى نيميه» .. رواية .. جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر».. للكاتب الفرنسى «بيير بيجى».. رواية.. جائزة إنتر.

٣ ـ «موال البيات والنوم».. للكاتب المصرى «خيرى شلبى» .. رواية .. جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» .. سيرة ذاتية.. جائزة سلطان العويس.

٥ ـ «اللمس».. للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله».. مسرح.. جائزة أبها.

٦ ـ «عاشوا فى حياتى».. للكاتب المصرى «أنيس منصور» .. سيرة ذاتية.. جائزة مبارك.

٧ ـ «قبلة الحياة».. للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» .. رواية.. جائزة التفوق.

٨ ـ «ليلة الحنة».. للكاتبة المصرية «فتحية العسال» .. مسرح.. جائزة التفوق.

٩ ـ العاشقات.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٠ ـ نوّة الكرم.. للكاتبة المصرية.. «نجوى شعبان».. رواية.. جائزة الدولة التشجيعية.

١١ ـ «الفسكونت المشطور».. للكاتب الإيطالى «إيتالوكالفينو» رواية.. (عدد خاص).. جائزة فياريچيو.

١٢ ـ القلعة البيضاء.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط.. للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد».. أدب رحلات .. جائزة التفوق.

١٤ ـ قرية ظالمة.. للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» .. رواية.. (عدد خاص).. جائزة الدولة للأدب.

١٥ ـ الرجل البطيء.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كوتسى».. رواية .. جائزة نوبل.

١٦ ـ طحالب.. للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» .. متتالية قصصية .. جائزة كين .

١٧ ـ شوشا.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية .. جائزة نوبل.

١٨ ـ شارع ميجل.. للكاتب من ترينداد «ف. س. نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

١٩ ـ الحياة الجديدة.. للكاتب التركى «أورهان باموق» .. رواية.. جائزة نوبل.

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٢١ ـ الآخر مثلى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. رواية .. جائزة نوبل.

٢٢ ـ المستبعدون.. للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك».. رواية ـ جائزة نوبل.

٢٣ ـ الأنثى كنوع .. للكتابة الأمريكية «جويس كارول أوتس».. قصص.. جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى.. للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» .. رواية.. جائزة الجونكور.

٢٥ ـ إسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. جائزة نوبل.

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوزيه سارامارجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلُو.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى» .. رواية.. جائزة نوبل.

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية «بريجيته كروناور» .. قصص.. جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٣٢ ـ مارتش.. للكاتبة الأمريكية «جيرالدين بروكس» رواية.. جائزة البوليتزر.

٣٣ ـ اغتنم الفرصة.. للكاتب الكندى «سول بيللو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٤ ـ البصيرة.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٥ ـ بريك لين.. للكاتبة الإنجليزية البنغالية.. «مونيكا على».. رواية.. جائزة البوكر.

٣٦ ـ بريد بغداد.. للكاتب التشيلى «خوسيه ميجيل باراس».. رواية.. الجائزة الوطنية للآداب.

٣٧ ـ عن الجمال.. للكاتبة البريطانية «زادى سميث».. رواية.. جائزة الأورانج.

٣٨ ـ العار.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج. م. كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٣٩ ـ قبلات سينمائية.. للكاتب الفرنسى «إيريك فوتورينو».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٠ ـ هكذا كانت الوحدة.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة نادال.

٤١ ـ الشلالات.. للكاتبة الأمريكية «چويس كارول أوتس».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٤٢ ـ العشب يغنى.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٣ ـ العالم.. للكاتب الإسبانى «خوان خوسيه مياس».. رواية.. جائزة بلانيتا.

٤٤ ـ ميراث الخسارة.. للكاتبة الهندية «كيران ديساى».. رواية.. جائزة البوكر.

٤٥ ـ الطفل الخامس.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٦ ـ بن يجوب العالم.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٧ ـ ثورة الأرض.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٤٨ ـ ملك أفغانستان لم يزوجنا.. للكاتبة الفرنسية «إنجريد توبوا».. رواية.. جائزة الرواية الأولى فى فرنسا.

٤٩ ـ الكهف.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٠ ـ يوميات عام سيئ.. للكاتب الجنوب إفريقى «ج.م كوتسى».. رواية.. جائزة نوبل.

٥١ ـ كازانوفا.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.

٥٢ ـ انقطاعات الموت.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٣ ـ العم الصغير.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة هيلده دومين لأدب فى المنفى.

٥٤ ـ اللعب مع النمر.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٥ ـ فى أرضٍ على الحدود.. للكاتب الألمانى «شيركو فتّاح».. رواية.. جائزة نظرات أدبية.

٥٦ ـ الإرهابية الطيبة.. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٥٧ ـ المسرحيات الكبرى جـ١ .. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» .. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٨ ـ المسرحيات الكبرى جـ ٢.. للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر».. مسرح.. جائزة نوبل.

٥٩ ـ نصف شمس صفراء.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى» .. رواية.. جائزة الأورانج.

٦٠ ـ مذكرات چين سومرز «مذكرات جارة طيبة».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦١ ـ مذكرات چين سومرز «إن العجوز استطاعت».. للكاتبة الإنجليزية «دوريس ليسنج».. رواية.. جائزة نوبل.

٦٢ ـ الحوت.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية..جائزة نوبل.

٦٣ ـ رقة الذئاب.. للكاتبة الأسكتلندية «ستيف بينى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٤ ـ رحلة العم مآ.. للكاتب الجابونى «چان ديڤاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٦٥ ـ مسيرة الفيل.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو» رواية.. جائزة نوبل.

٦٦ ـ كرسى النسر.. للكاتب المكسيكى «كارلوس فوينتيس».. رواية.. جائزة سرفانتيس.

٦٧ ـ داي.. للكاتبة الإسكتلندية «أ. ل. كيندى».. رواية.. جائزة كوستا.

٦٨ ـ الحب المدمر.. للكاتب الأمريكى الكندى «دي واى بيشارد».. رواية.. جائزة الكومنولث.

٦٩ ـ أين نذهب يابابا؟.. للكاتب الفرنسى «جون لوى فورنييه».. رواية.. جائزة الفيمينا.

٧٠ ـ نداء دينيتى.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما».. رواية.. جائزة الأدب الكبرى لإفريقيا السوداء.

٧١ ـ صخب الميراث.. للكاتب الجابونى «جان ديفاسا نياما» رواية.. جائزة الأدب الكبرى لأفريقيا السوداء.

٧٢ ـ المؤتمر الأخير.. للكاتب الفرنسى «مارك بروسون».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

٧٣ ـ كتاب الرسم والخط.. للكاتب البرتغالى «جوزيه ساراماجو».. رواية.. جائزة نوبل.

٧٤ ـ كلُّ رجل.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٧٥ ـ نُريد أن نتحدث عن كيفين.. للكاتبة الأمريكية «ليونيل شرايفر».. رواية.. جائزة الأورانج.

٧٦ ـ ألم فذ.. للكاتب الإنجليزى «أندرو ميللر».. رواية.. جائزة جيمس تيت بلاك.

٧٧ ـ أناقة القنفذ.. للكاتبة الفرنسية «موريل باربرى».. رواية.. جائزة المكتبات للرواية.

٧٨ ـ حزن مدرسى.. للكاتب الفرنسى «دانيل بناك» رواية.. جائزة روندو.

٧٩ ـ غداً.. للكاتب الألمانى «فالتر، كاباخر».. رواية.. جائزة جورج بوشنر الكبرى.

٨٠ ـ الكلمة المكسورة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدز».. رواية/ قصيدة.. جائزة كوستا.

٨١ ـ أن نُصبح أغرابًا.. للكاتبة الإنجليزية «لويز دين».. رواية.. جائزة بيتى تراسك.

٨٢ ـ المرأة المسكونة.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلي».. رواية.. جائزة كاسا دى لاس أمير كاس.

٨٣ ـ بيتر كامينتسند.. للكاتب الألمانى «هِرمَن هيسه».. رواية.. (عدد خاص).. جائزة نوبل.

٨٤ ـ بيت السيد بيسواس.. للكاتب من ترينداد «ف. س . نايبول».. رواية.. جائزة نوبل.

٨٥ ـ مدريد الأصيلة.. للكاتب الإسبانى «كارلوس أرنيتشيس».. مسرح.. وسام الاستحقاق.

٨٦ ـ لافينيا.. للكاتبة الأمريكية «أوروسولا كى لى جوين».. رواية جائزة ديمون نايت التذكارية الكبرى.

٨٧ ـ أشجار متحجرة.. للكاتبة المكسيكية «أمبارو دابيلا».. قصص.. جائزة بياروتيا.

٨٨ ـ سنوات الهروب.. للكاتب الكولومبى «بلينيو أبوليو ميندوثا».. رواية.. جائزة بلازا إى خانيس.

٨٩ ـ الباحث عن الذهب.. للكاتب الفرنسى «جان مارى جوستاف لوكليزيو».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٠ ـ جائزة أو. هنرى.. مجموعة من المؤلفين.. قصص قصيرة.. القصص الفائزة بجائزة أو. هنرى لـ عام ٢٠٠٧.

٩١ ـ الحيوان المُحتضر.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة بن /نابوكوف.

٩٢ ـ أنشودة ألاباما.. للكاتب الفرنسى «جيل لوروا».. رواية.. جائزة الجونكور.

٩٣ ـ إنجيل الابن.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. رواية.. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٤ ـ الوصمة البشرية.. للكاتب الأمريكى «فيليب روث».. رواية.. جائزة فوكنر.

٩٥ ـ ليتنى لم أقابل نفسى اليوم.. للروائية الألمانية «هيرتا موللر».. رواية.. جائزة نوبل.

٩٦ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الأول. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٧ ـ حكاية أوزوالد.. للكاتب الأمريكى «نورمان ميلر».. لغز أمريكى.. الكتاب الثانى. جائزة باريس ريفيو (هادادا).

٩٨ـ وبنى لها معبداً.. للكاتب الألمانى «سيجفريد أوبرماير».. رواية.. جائزة شيلزهايم.

٩٩ ـ جنون المتاهة.. للكاتب الإنجليزى «آدم فولدر».. رواية.. جائزة صنداى تايمز لكاتب شاب.

١٠٠ ـ الملك ينحنى ليقتل.. للكاتبة الألمانية «هيرتا موللر».. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

١٠١ ـ العبد.. للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر».. رواية.. جائزة نوبل.

١٠٢ ـ الفراشة والدبابة.. للكاتب الأمريكى «إرنست همنجواى».. قصص.. جائزة نوبل.

١٠٣ ـ التجمع.. للكاتبة الأيرلندية «آن إنرايت».. رواية.. جائزة البوكر.

١٠٤ ـ موندو.. للكاتب الفرنسى «ج.م.ج لوكليزيو» قصص.. جائزة نوبل .

١٠٥ ـ الكون فى راحة اليد.. للكاتبة النيكاراجوية «جيوكوندا بيلى».. رواية.. جائزة اتحاد الناشرين.

١٠٦ ـ جزيرة صغيرة.. للكاتبة الإنجليزية «أندريا ليفى».. رواية.. جائزة الأورانج .

١٠٧ ـ حياتى .. للكاتبة الأمريكية «إيزادورا دونكان».. سيرة ذاتية.. جائزة الكتاب القومى.

١٠٨ ـ تيو.. للكاتبة النيوزيلندية «باتريشيا جريس».. رواية.. جائزة ميدالية ديوتيز للرواية وجائزة مونتانا للرواية.

١٠٩ ـ الجولة وحوادث مؤثرة أخرى.. للكاتب الفرنسى «ج. م. ج لوكليزيو».. قصص.. جائزة نوبل.

١١٠ ـ ذهول ورعدة.. للكاتبة الفرنسية «إميلى نوتومب».. رواية.. جائزة الأكاديمية الفرنسية الكبرى للرواية.

١١١ ـ أوليف كيتريدج.. للكاتبة الأمريكية «إليزابيث ستراويت».. رواية.. جائزة البوليتزر.

١١٢ ـ زهرة الكركديه الأرجوانية.. للكاتبة النيجيرية «تشيماماندا نجوزى آديتشى».. رواية.. جائزة الكومنولث لأفضل كتاب أول.

١١٣ ـ ثمة شيء أقول لكم.. للكاتب البريطانى من أصول باكستانية «حنيف قريشى».. رواية.. جائزة بن بنتر للأدب.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ فوس.. باتريك وايت.. جائزة نوبل للآداب ١٩٧٣.

٢ ـ الناقوس الزجاجى .. سيليفيا بلاث .. جائزة البوليتزر ١٩٨٢.

٣ ـ ذكريات ترانى .. توماس ترانسترومر.. جائزة نوبل ٢٠١١.



خابير ماریاس
واحدٌ من أهم روائيي أسبانيا المعاصرين.

- ولد فى مدريد عام 1951 .
- ظل محافظا على مكانته وشهرته الأدبيّة طوال ربع القرن الأخير من القرن العشرين وحتى هذه اللحظة.
- كتب القصة والرواية والنقد، وحققت أعماله نجاحات كبرى، وتمت إعادة طبعها لأكثر من مرةٍ سواء فى بلده أسبانيا او فى دول امريكا اللاتينية.
- من أهم أعماله: "الرجل العاطفى"، "عندما رأيت ميتًا"، "رغباتٌ ماضيةٌ"، "ظهر الزمن".
- ترجمت اعماله إلى اكثر من خمس وعشرين لغة عالمية.
- حصل على العديد من الجوائز الأدبية المهمة منها، جائزة رومولو غاييغو للرواية، وجائزة دبلن، وجائزة نيللى ساش عن مجمل أعماله، كما حصلت روايته الشهيرة "قلبٌ ناصع البياض" منذ صدورها عام 1993 على جائزة النقد، وجائزة "السلام" كأفضل كتاب فى معرض فرانكفورت الدولى للكتاب.
- أثناء إعداد روايته للطبع أعلنت وزارة الثقافة الأ سبانية عن فوز الكاتب خابير ماریاس بالجائزة الوطنية للآداب عن العام 2012، إلا أن الكاتب أكد فيه رفضه لهذه الجائزة وغيرها من الجوائز وطلب توجيه قيمتها لدعم المكتبات العامة التى تقلصت ميزانياتها نتيجة للإجراءات التقشفية التى تتبعها حكومة بلاده للخروج من الأزمة الاقتصادية.

الجائزة: جائزة اتحاد الناشرين الألمان للسلام

تاسست جائزة "السلام" الألمانية عام 1950، ومنذ دورتها الأولى تمُنح كلّ عام ولم تتوقف إطلاقا لأىّ سبب من الأسباب، ويتم الإعلان عنها خلال معرض فرانكفورت الدولى للكتاب وقت انعقاده، وقد حققتْ مصداقية كبيرة طوال اكثر من نصف القرن، وهى ذات امتياز أدبى وفكرى رفيعين، وقد أصبحت فى السنوات الأخيرة محط اهتمام جميع مبدعى العالم، حيث تمُنح أثناء انعقاد معرض الكتاب الأول فى العالم، كما أنها تمُنحُ لكلّ الكتّاب من كلّ جنسيات العالم.



يقوم بطل "قلبٌ ناصعُ البياض" باستعادةٍ لا إرادية، وتكاد تكون عشوائية لتاريخ عائلته وعلاقاته مع الآخرين، فيغوص فى اكتشاف أسرار الأب والعلائق البشرية المبهمة والعصية على الإدراك.

والبطل طوال أحداث الرواية يتخذ من الأحداث الماضية ذريعة لاستنطاق الأغراض الإنسانية وطموحها لكى يحاول الكشف الحقيقى عن ماهية الوجود وتداعياته وأسبابه ومرتكزات ديمومته.

إن البطل هنا يكاد يمثل الإنسان المعاصر المُحاصر بالعديد من علامات الاستفهام والذى قد لا يمتلك فى الحقيقة قلبًا ناصع البياض، بل إنه قد لا يجرؤ على التفكير فى قلبه هذا.

"قلبٌ ناصعُ البياض" هى رواية أفكار ورؤى ومراجعة مع الذات ومع الأنساق والسُبل السرديّة الروائية المتداخلة.

الروائى: خابير مارياس.. روائى أسبانى.
الجائزة: جائزة اتحاد الناشرين الألمان للسلام 1993.



الهيئة المصرية العامة للكتاب



تصميم الغلاف: هند سمير

22 جنيهًا